الجزء الأول

حدثتني آية

الذين يتركون حياتهم في يد اللّٰه سيرتب اللّٰه لهم حياتهم في كل
تفاصيلها حتى يروا لطف اللّٰه يشملهم في أبسط الأشياء قبل أعظمها

تأليف: أسامة عبد العظيم

ح أسامة عبدالعظيم عبدالحليم إبراهيم ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إبراهيم ، أسامة عبد العظيم عبد الحليم

حدثتني آية . /أسامة عبد العظيم عبد الحليم إبراهيم.-

الرياض ، ١٤٤٣هـ

ردمك : ٠-١١١٣-٠٤-٦٠٣- ٩٧٨

١- قصص القرآن أ.العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤٣/٤٣٩٨

رقم الإيداع :١٤٤٣/٤٣٩٨

ردمك : ٠-١١١٣-٠٤-٦٠٣- ٩٧٨

مقدمة

قد ينتهي المرء من ختمة للقرآن دون أن يجد لهذه القراءة أثرًا في أفعاله وسلوكه، يختم مرة بعد مرة ولم تستوقفه في القرآن كله آية واحدة يتدبر معانيها؛ وذلك لأنه قرأ القرآن كما يُقرأ غيره، لم تُحرِّك قراءته في قلبه شيئًا، فالقرآن إنما أُنزِل ليُتَدَبَّر ويُعمَل به، أُنزِل ليرسم للمؤمنين حياتهم وفق مراد الله ، ولن نجد لقراءة القرآن أثرًا في حياتنا إلا حينما نقرؤه على أنه رسالة من الله للخلق، فمما ميَّز الجيل الأول أن تعاملهم مع القرآن ارتقى من القراءة إلى التجسيد الحي في واقع الحياة .

والقرآن حينما نزل تلقفته آذان العرب فوجدت في أسلوبه بيانًا يَعجز عن مثله إنسان، لم يقتصر تأثيره على من آمن بالنبي ﷺ وصدَّقه، إنما تجاوزه ليؤثر حتى فيمن كفر به وحاربه . روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس ابن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسًا يستمع فيه وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا ثم انصرفوا . (١)
لم تكن مرة واحدة بل تكررت في ليال متتالية وفي كل مرة يلوم بعضهم بعضًا ويتعاهدون على ألا يعودوا ثانية ، فكان تأثير القرآن أقوى من تلاومهم، فردتهم جاذبية القرآن إلى نفس الموضع عدة ليال.
وهذا الإعجاز التأثيري للقرآن هو إعجاز خالد، يأخذ بمجامع القلوب ، يؤثِّر في النفس تأثيرًا مباشرًا نراه في حياتنا بصور مختلفة، حينما تستقبل قلوبنا القرآن في لحظات خشوع وسكون نتفاعل مع الآيات كأنما أول مرة نسمعها ، تأخذك قصة من قصصه إلى مشاعر تعجز عن وصفها، ربما من صوت قارئ تحبه تجد نفسك مدفوعًا لتكرار سماعها كل يوم .

---

١ السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٣١٥)

فللقرآن جاذبية غلّابة، ما استقبله قلب خاشع إلا هزَّ أوتاره، وما قرأه قارئ بتدبر إلا غيّر فيه شيئًا في لحظتها، وذلك لأن الأوامر والنواهي ليست هي الجزء الغالب في القرآن، بل إن الحيز الأكبر فيه يتعلق بالأخلاق، والمعاملات، وعلاقة العبد بخالقه، والغاية من خلق البشر، والعبادات التي يريد الله من الخلق أن يتعبدوه بها، وتعاليم بناء الأمة وتنظيم أمورها، وجملة من القصص التي جاءت في سياق حكيم ونظم فريد أراد الله منا أن نتدبره وأن نتوقف عند دلالاته ليس لنعرفها فحسب، إنما لنتعلم كيف يمكن للإيمان أن يغير من حياة الفرد، وكيف يمكن للإيمان أن يوجه الفرد إلى الطريقة المثلى لمواجهة مواقف الحياة والتعامل مع الأحياء.

والقصة في القرآن لم تكن مجرد عرض سردي لتفاصيل أحداثها، إنما جاءت في عرض نابض بالحياة، تتفاعل معه مشاعر المؤمن وهو يتابع أحداثها كأنها تتجسد أمام عينيه، فيرق القلب لتفاصيلها ويستوعب العقل مضامينها وغاياتها، وهذه هي الغاية التي ننشد ، ألّا يُقرأ القصص القرآني كأي قصص، فما ذكره الله إلا لغاية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[1] فالغاية هي الاعتبار والتدبر، لكنها غاية لا يدركها كل قارئ لكتاب الله، إنما لمن يقرأ هذا القصص بقلب خاشع ومشاعر تتفاعل مع الأحداث كأنما تشاهدها رأي العين، في حينها ستدرك كم أن هذا القصص يمكن أن يعيد رسم أفكارك، يبث الطمأنينة في قلبك، طمأنينة يلقيها الله في قلوب عباده، تُثبِّته عند المخاوف ، فلا تزلزله الفتن، ولا تؤثر فيه المِحن.

والكتاب الذي بين أيدينا هو خواطر حول قصص القرآن، ليس سردًا للقصص بقدر ما هو محاولة لتناوله بشيء من التدبر يراعي مكان العبرة ومقتضى المقام والغرض من القصة .

---

١ (يوسف: ١١١)



مشاهد من قصة يوسف عليه السلام



قصة يوسف عليه السلام قصة متفردة في مُجمل أحداثها وفي تفاصيلها، جاءت لتخبرنا ببعض تفاصيل حياته كإنسان قبل أن يكون نبيًّا مرسلًا، جاءت لتخبرنا أن الصعاب التي يواجهها المرء في حياته قادر على تجاوزها حينما يستحضر معية الله، جاءت لتخبرنا ببعض خبايا النفس البشرية في عرض نابض بالحياة؛ لنرى هذا الكم الهائل من التناقضات في قصة واحدة بين دنس وطهر، خيانة ووفاء، شر وخير، قسوة ورقة، فراق ولقاء، حزن وفرح، غلظة ولين، نرى كل هذا واضحًا جليًا في تفاصيل أحداثها ليرسخ في أذهاننا قيمًا أخلاقية، ومفاهيم عقائدية، ودروسًا تربوية، وخواطر دعوية ينهل كل امرئ من فيض أحداثها بقدر ما يحسن في مجالات المعرفة؛ لذا نجد أن الكتابات التي تناولت هذه القصة قد اختلفت اتجاهات كاتبيها، فنجد الداعية يفيض في استخراج ومضات دعوية قد استوقفته ، ونرى التربويين يستخرجون دروسًا من كل مشاهدها، بل نرى حتى من يكتبون في الاقتصاد وفي أمور الحكم يتوقفون عند قصة يوسف عليه السلام وكيف أدار البلاد في زمان مجاعة وقحط، وكيف أنه تجاوز بأمة في غابر الزمان في محنة أصابتهم لم تمس قوت يومهم فقط بل مست بقاءهم على قيد الحياة .

ورغم كثرة ما قد نتوقف عنده من معان وقيم تضمنتها أحداثها إلا أننا نجد أبرز دروسها قد جاء واضحًا ومباشرًا في ختام عرض أحداثها﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]مَن يتق ويصبر فلن يضيعه الله، من يتق ويصبر فلا عليه بتدبير البشر ومكرهم وصدودهم، من يتق ويصبر يتقوى بمعية الله لتهون عليه صعاب الحياة، من يتق ويصبر يأنس فلا يفزع، يطمئن فلا يقلق، يلجأ إلى ركن الله القوي فلا تهزمه المحن، من يتق ويصبر لا يُخضِع حُكمه على الأحداث لتصوره ونظرته الضيقة المحدودة، من يتق ويصبر لا يقنط في الشدائد ولا يركن في الرخاء، من يتق ويصبر لا تغرُّه البدايات المشرقة ولا تصده البدايات المرهقة، فالبدايات المبشرة لا يشترط أن تأتي توابعها حميدة، وتقلبات الأيام قد تحمل من الخير ما لم يُكشَف لنا إلا بعد حين .

١ [يوسف:٩٠]

وقبل أن يخبرنا ربنا بتفاصيل القصة أخبرنا أنها ليست قصة عادية نعرف تفاصيل أحداثها وينتهي بنا المقام عند قراءتها، إنما قبل أن يسرد التفاصيل أخبرنا أننا سوف نرى في كل مشهد فيها آيات ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[1] آيات لا تفارق أحداثها مع كل ابتلاء مرَّ به، نرى صبره البشري في أروع صوره، ونرى معية الله في ألطف صورها لنعلم أن تكاليف الله ليست فوق طاقة البشر، ولنرى نموذجًا في واقع الحياة من تطبيق هذه التكاليف في حياة الأنبياء وهم يُبتلون ويصبرون ببشرية خالصة ، فلا نرى المعجزات والخوارق إلا في نطاق ضيق يخدم جوهر الرسالة أما صبرهم على دعوتهم وتحملهم مشقة تطبيق تكاليفها فقد جاء ببشرية خالصة، كي لا يتحدث ضعيف نفس بجهل عن كيفية تطبيق التكاليف وعجز قدرته عن تحمل مشاقها.

وحين تقرأ القصة وتأخذك أحداثها واحدة تلو الأخرى تحار أي من ابتلاءاتها أشد وطأة عليه؟ فما أن تنتهي محنة إلا ونجد التي تليها قد بدأت، صنوف شتى من الابتلاءات التي تعرض لها فلا نكاد نعرف أيها أشد وطأة، حين ينتهي بنا سرد جانب من جوانب حياته نعتقد أننا رأينا أقوى ابتلاء قد واجهه، لكن هذا الإحساس سرعان ما يتلاشى بمجرد أن نبدأ في التعرض لجانب آخر من حياته، وربما نتساءل أي من هذه الابتلاءات هو محور القصة ؟ قسوة إخوته؟ أم كيد امرأة العزيز؟ أم دخوله السجن؟ أم توليه السُلطة ومشقة القيام بأمر العامة في زمان المجاعة؟ وبجوار كل هذا مهام نبوته في دعوته الناس للتوحيد وتصحيح مفاهيمهم نحو الخالق سبحانه، يصعب أن تحدد محور القصة الأساسي كأبرز ابتلاءاتها .

ولعل قاسمًا مشتركًا قد جمع بينها، وهو أن هذه الابتلاءات قد أظهرت بعض خبايا النفس البشرية في خيرها وشرها، ورأينا كيف تعامل معها حين ظهر بعض قبحها في كيد إخوته وكيد نسوة المدينة، وحين ظهر بعض جمالها في إكرام الملك له وإظهار فضله، رأيناها حين كُشِفت بعض خبايا كل من عاملهم ورأينا جانبًا مظلمًا في كل شخصية، ذاك الجانب الذي في العادة يجتهد المرء في إخفائه، لكننا نراه في أحداثها ظاهرًا مباشرًا قويًّا، لم يستح أصحابه في التصريح به

---

١ [يوسف : ٧]

والدفاع عنه، ففي كيد إخوته :﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾[1]

وفي تدبير امرأة العزيز :﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[2]

وفي تدبير نسوة المدينة :﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾[3]

ثم نرى حِلمه ورِفقه كخط واحد لم تغيره الأحداث، لم تصنع منه شخصًا آخر، لم يزده جهل الجاهل إلا حلمًا، ولم تزده قسوة القاسي إلا رحمة.

وحين نقرأ قصة يوسف عليه السلام علينا ألا نجتزئ مواقفها إنما نقرؤها كلُحمة واحدة ومشاهد مترابطة تُبنى أحداث المشهد على نتائج الذي سبقه، فيبدأ المشهد الذي يصف لنا جانبًا من القصة من حيث انتهى المشهد الذي قبله، لنستوعب حجم التنقلات التي شهدها في حياته من الفرقة والشتات إلى الانضمام والائتلاف، من المِحن والابتلاءات إلى المنح والعطاءات، من الضيم وهضم حقه إلى العز والسلطان، من الأسر والعبودية إلى القوة والتمكين، ولا يمكن أن نستوعب كل هذه التنقلات في حياة شخص واحد إلا حينما نقرأ قصته كاملة كوحدة واحدة، لنرى كيف غير الله الوضع من حال إلى حال .

١ [يوسف: ٩]

٢ [يوسف: ٣٢]

٣ [يوسف: ٥١]

المشهد الأول : من بيت النبوة إلى ظلمات الجُب

قال تعالى:﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾[سورة يوسف٤-٦]

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ في بيت النبوة الوالدان هما المرجع، هما مصدر التوجيه، ليس في أعمال اليوم الاعتيادية فحسب، بل حتى في رؤيا طفل صغير في حال النوم، فحين حاك في صدره ما رأى أفرغه على مسامع والده.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ لم يكن دور الوالدين يومًا مجرد الرعاية من توفير طعام وشراب ومسكن ، إنما دورهما التربية ، والتربية محورها الأساسي هو تشكيل الأفكار، بناء القناعات التي يفهم بها المرء الحياة من عقيدة صحيحة، ومبادئ يتمسك بها وطموحات يتطلع إليها وطريقة التعامل التي تعكس ما يحمل من قيم وأخلاق، ثم يأتي دورهم في توجيه الاهتمامات لئلا يسقط الابن فريسة للمغريات، وضبط مفاهيم القدوة في مخيلته لئلا يتخذ من السفهاء قدوة ، ودور آخر في تنمية المهارات بالتنقيب عما يتميز فيه الابن ودعمه ، لذا نجد في القصة التي نحن بصدد الحديث عنها أن الأبناء قد استأذنوا أباهم في أن يذهب يوسف عليه السلام معهم، لا لعمل يقوم بأمره إنما ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ فلم يعب عليهم رغبتهم تفهمًا لاحتياجاتهم، هذه هي التربية وهذا هو دور الوالدين، أما ما دون ذلك فهي رعاية توفرها أغلب الكائنات الحية لأبنائها.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾قالها وهو طفل صغير بتوقير الابن لأبيه ، ثم قالها وهو عزيز مصر الآمر المطاع﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾[1] فالمنبع الأصيل لا تُغيره الأحداث، لا تُغيره المكانة والوجاهة والسلطة، يظل الوقار ملازمًا له حتى في أبسط الألفاظ .

---

١ [يوسف : ١٠٠]

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ كان يوسف عليه السلام إذ ذاك صغيرًا، لم يؤول الرؤى بعد، وحين قصَّها على أبيه لم يتعرض يعقوب عليه السلام لتفسيرها، لكن ظاهرها يسوق البُشرى لعلو يُصيب يوسف عليه السلام في الدنيا والآخرة، إلا أنه لم يتطرق لتأويلها إنما تطرق لتوجيهه بألا يقصها على أحد حتى إخوته.

وتفسير الرؤيا قد أشار إليه يوسف عليه السلام في آخر القصة حينما دخل عليه أبواه وإخوته ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[1] هذا السجود هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك في صغري، قد جعلها ربي صدقًا، أي أنه علم تأويلها لما صارت حقًّا فكان تأويله لها أن الأحد عشر كوكبا هم إخوته - وكانوا أحد عشر رجلًا - والشمس والقمر يرمزان لأبيه وأمه.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ حين نقرأ لفظ السجود ترتسم في ذهننا الصورة النمطية لسجودنا وجباهنا على الأرض، ونحاول في تخيلنا أن نُسقطه على باقي الأشياء في الكون، والذي لا خلاف فيه أن سجود كل شيء بحسب طبيعته، ليس كنفس هيئتنا في السجود، فحين نقول أن الكواكب والنجوم والجبال والأشجار تسجد ليس علينا أن نُقيده في مخيلتنا بالسجود الحركي كما يسجد البشر. بل إن تعبير السجود يشتمل أيضا من ضمن معانيه خضوع الكون بما فيه لله والطاعة له.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ بُني تصغير (ابن) فهو صغير السن، لكن رؤياه تفوح منها رائحة بلوغ أمره وعلو شأنه ، يتلطف معه في الحديث عطفًا وشفقة، كأنما يتذكر الأب حال إخوته معه، إعراضهم عنه، كيدهم به، فإذا ما كان أقرب الناس إلينا بهذه الغِلطة فأين للمرء أن يفر ؟ تلطَّف الأب لما يستشعر من صنيع إخوته معه .

---

١ [يوسف : ١٠٠]

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ لم يتطرق لتفسير الرؤيا، لم يسترسل في حديث قد لا يعرف كل تفاصيله، بل أجمل التوجيه أن اكتم فلا تفصح بحديثك. ليس كل ما نعرفه يحق لكل أُذن أن تسمعه، قد نحتاج لشيء من الكتمان، وما أجمل الأدب النبوي حين يوجه بلطف، يُظهر العِلة للأمر أو النهي، لا يستصغر شأن صغيره بأوامر لا مبررات لها، إنما يذكر عِلة عدم الذكر بكيدهم وترصدهم له ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ فإرصاد البشر لبعضهم لا ينتهي.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ التوجيه يكمن في كيفية التعامل، فقد توسَّم في رؤياه خيرًا وفراسة الأب في ابنه نادرًا ما تخيب، حين يتوسم فيه خيرًا يأتي الخير.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ يستمع الأب لتفاصيل الرؤيا، لم يُهمِّش حديثه، أو يستصغر شأنه، ثم جاء التوجيه بعد الاستماع ، توجيه ليس من أب لابنه فحسب إنما من مُجرِّب للحياة إلى حديث عهد بها، إن النفوس ليست واحدة، وما ينطق به لسانك لن تتلقفه القلوب بنفس المذاق، قد يأنس به البعض ويبغضك بسببه آخرون، لذا اكتم الحديث قدر ما استطعت، لا تتحدث بحديث يوغر عليك القلوب، إن لم تجد فيمن تحادثه أُلفة ومودة فلا تسترسل وتُخرج كل ما بداخلك، بل اكتم، ففي بعض النفوس مقاومة لكل صاحب رسالة، لكل صاحب موهبة ، بعض البشر لا يُحسنون شيئًا قدر إحسانهم لوأد الأفكار .

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ الكيد هو الاحتيال الخفي بقصد الإضرار، أي إيصال المكْروه إلى الإنسان مِن حيث لا يشعر، وقد قالها يعقوب عليه السلام على سبيل اليقين لا الظن، فسوابق أفعالهم تجاهه قد أنبأته أنهم يضمرون له سوءًا، وعادة الآباء ألا يُفصحوا عن شيء كهذا بين أبنائهم، لكن لما كانت سوء طباعهم تجاهه غالبة كان عليه أن يُحذِّره .

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ كيد البشر غالبًا ما يأتي من قوي على ضعيف، فلا ملجأ للضعيف إلا أن يركن إلى قوة الله فيتقوى بها على كيد البشر ومكرهم.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾يُرجع سبب ترصدهم له إلى تزيين الشيطان لهم عداوته ، كأنه يريد أن لا يوغر صدره على إخوته فأشار إلى أن الشيطان هو الذى أغراهم بالكيد له، فإذا ما قص عليهم رؤياه نبت الحسد في قلوبهم، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة .

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يجتبيك، يختارك دون غيرك، يُقربك دون غيرك، ولا اجتباء إلا وقبله ابتلاء، فكل ما ستصل إليه من مكانة وعِلم مآله إلى اجتباء الله لك، إلى اختيار الله لك، إلى نِعم الله عليك.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ قد تتعثر خطواتك في دروب الحياة، وبعد سعي وجهد تتجاوز كل الصعاب ويعطيك الله أكثر مما كنت ترجو، حينها على قلبك أن يأنس إلى فضل الله لا إلى فضل البشر، لا إلى فضل السعي، لا إلى فضل الكفاح، لا إلى فضل الظروف والصُدف .

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي تأويل الرؤيا على حقيقة دلالتها، كما سيأتي في تأويله رؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك فيما بعد.

قال تعالى :﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف : ٧-١٠]

﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ رغم أن مشاهد القصة قد حوت تفاصيل كثيرة، وشخصيات متعددة، وأماكن مختلفة، لكن تبقى قصته مع إخوته هي الحدث الأبرز بين أحداثها، وذلك لأنها خالفت ما اعتاده الناس أولًا، ناهيك عن كونها في بيت نبوة يفيض بنور الوحي صباح مساء، وثانيًا لأن كل أحداث القصة قد بُنِيَتْ نتيجةً لفعلتهم في حق أخيهم؛ لذا لا عجب أن تكون قضية إخوته مصدر الاعتبار الأول

في القصة؛ ليعلم كل امرئ أن الابتلاءات لا تؤخذ بظواهرها فحسب، وأن لُطف الله يحل مع كل ابتلاء، فلا ينزل ابتلاء بمرء إلا وصاحبه لطف الله يخففه على قلبه، وإلا فبعض الابتلاءات من قسوتها تكاد تقتل القلب كمدًا .

﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ليست آية واحدة، بل آيات متعددة، ففي تفاصيل أحداثها نرى الآيات في كل مشهد تتوالى، نرى تناقضات البدايات مع الخواتيم، نرى أسرة واحدة في بيت نبوة تتخللها التناقضات، بين أخ يحنو وإخوة تقسو، نرى الرعاية التي نالها في بيت العزيز كانت سبب شقائه لسنوات في السجن، نرى سنوات الرخاء يتبعها سنون جدب، نرى الواقع في نهاية أحداثها بعد أن كان حلمًا في أولها، نرى الحزن يكسو مشاهدها ثم يتبعه فرح في آخر أحداثها يمحو كل حزن قبله .

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ آفة كل بناء أن يأتيه الهدم من داخله، الأُسر لا تمزقها الهزات الخارجية بقدر ما تمزقها الفرقة من داخلها، وإخوة يوسف عليه السلام إنما وقعوا أسرى لحب الذات، لكن هذا الحُب لا يصلح أن يكون سببًا لبغض الآخرين، لتمني زوال ما بهم من نِعم، لعقد مقارنات ومفاضلات ونعي حظوظ، لماذا يحبه أبونا أكثر منا؟ أليس أصغر منكم والصغير ضعيف.

سُئلت أُم مَن تحبين من أولادك ؟

فقالت: «مريضهم حتى يشفى، وغائبهم حتى يعود، وصغيرهم حتى يكبر، وجميعهم حتى أموت».

لقد أساءوا فهم رفق الأب بابنه الصغير. ماذا يريد الابن اليافع من أبيه؟!

لم لا يفهم الأبناء أن ما يرونه من عطف أبويهم على أخيهم الصغير قد شملهم حينما كانوا صغارًا؟!

هل من العدل أن نعيب على أب يحنو على طفله الصغير وهو يرى قسوة أخوته عليه؟!

أمـا إخوتـه فقـد أصيبـوا بـداء الزهـو بالنفـس ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾[1] أعُصبتكـم مـبرر لحسـدكم عـلى أخ لكـم مـن أبيكـم ؟! كان الأولى بالعُصبـة أن تكـون عونًـا لا عبئًـا ، أن تكـون لـلأب سـندًا لا وجعًـا. ثـم لِمَ أخرجتـم الله مـن حسـاباتكم؟! أليسـت تلـك العاطفـة التـي تسـكن القلـب تجـاه شـخص مـا يُغْلَـبُ عليهـا المـرء وليسـت باختيـاره؟! كيـف لنـا أن نحسـد قلبًـا عـلى حـب قلـب دون غـيره ؟!

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ كان يوسـف عليه السلام في مـكان مـا لا يفطـن لمـا يحـاك لـه، وهكـذا هـي المكائـد لا تـأتي عفويـة أبـدًا إنـما يسـبقها كيـد وتخطيـط، فقـد أصبحـت النكايـة بأخيهـم قضيتهـم الكـبرى، أفرغـوا لهـا أوقاتهـم، اسـتنزفوا طاقـات عقولهـم بالتفكـير في التخلـص منـه، ولم تـألُ عقولهـم جهـدًا في التفكـير بالكيـد بيوسـف عليه السلام، فبعـد بشـاعة الفكـرة ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ يـأتي تلطيـف الجـرم لئـلا يوقـظ غفلـة الضمـير ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ مكائـد تُرصَـد لطفـل لا لجـرم ارتكبـه إنـما هـي حسـد قلـب عـلى حُـب قلـب. والخيانـات التـي تـأتي مـن الظهـر لا تمـر بـلا أثـر، بـل إنهـا تـترك في القلـب مـرارة تعجـز الأيـام عـن محـو آثارهـا.

﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ ألقـوه في أرض بعيـدة عـن الأرض التـي نعيـش فيهـا، فالغايـة إبعـاده عـن أبيـه وليـس قتلـه تحديـدًا، فـكل طريقـة تبعـده عـن أبيـه هـي فكـرة مقبولـة لديهـم .

﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ وجـه أبيكـم لا قلبـه، إنهـم لم يبالـوا بالقلـب ومـا يحـوي، يعلمـون مقـدار الألم والمـرارة التـي سـوف يسـببها فقـدان يوسـف عليه السلام بقلـب أبيهـم، لكنهـم لم يبالـوا، إنـما اهتمـوا بوجـه أبيهـم، وأعرضـوا عـن مـرارة قلبـه بفقـدان ابنـه.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لا مـكان لاسـم القائـل وإن أظهـر رفقًـا عـن البقيـة، فمـن يهـادن في الإثـم لا يقـل جرمـا عـن مرتكبـه، أمـا الأخـوة فقـد كان أرفقهـم ذلـك الـذي أنكـر القتـل ورجَّـح النفـي، ليـس أن يلقـوه في الجـب بـل في ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾

---

١ [يوسف : ١٤]

فحين يخالط المرء من يستسيغون الجرم تأتي أفكاره وألفاظه قريبة من اللغة التي لا يحسنون سواها، ﴿ وَأَلْقُوهُ ﴾ هكذا كان الكيد ، وهكذا كان التدبير.

والمرء الذي يتعرض لمكائد البشر وخذلان البشر لن يسلم من شوائب المكر إلا حينما يأنس قلبه بالله، فحين نقرأ ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ نستحضر صورة ذهنية سلبية للكيد بطفل لا ذنب قد اقترفه ولا جريرة قد اكتسبها، لكننا حين نقرأ في قصة موسى عليه السلام ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾[1] نستحضر صورة أخرى من معية الله ولطفه، وكلاهما إلقاء، لكن الأولى من تدبير بشر لبشر والثانية من تدبير الله لبشر .

قال تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[يوسف: ١١-١٤]

﴿ لَا تَأۡمَ۬نَّا ﴾ مع كل هذه المكائد يتحدثون عن الأمانة، ومهما اجتهد المرء في إخفاء مكره يفضحه الله في فلتات لسانه، وتعابير وجهه، فالأب لم يتحدث عن خيانة ولم يتطرق لخوف على صغيره من مكيدة تحاك ضده، لكن نظرته لتعبيرات وجوههم ربما ألقت في نفسه شيئًا من التردد حينما رأى عصبتهم، بأي حُجة أقبلوا على أبيهم مجتمعين يطلبون مرافقة يوسف عليه السلام؟ أأصبح يوسف عليه السلام فجأة أخًا مقربًا إلى قلوبهم يريدون أن يأنسوا به ويأنس بهم؟

﴿ يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ ﴾ حين يأتي الاهتمام الزائد فجأة؛ على المرء أن يقلق من نية فاسدة تتوارى عنه. اختاروا ما يأنس به الطفل ﴿ يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ ﴾، قواعد الطفولة تشمل حتى أبناء الأنبياء يأنسون باللعب.

خاطرة إلى كل أب أن ارفق بأبنائك واحترم طفولتهم ، فها هم أبناء نبي يتحدثون عن اللعب ولم يعب عليهم.

---

١ [القصص : ٧]

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ أسرف إخوة يوسف عليه السلام في دلائل إقناعهم لأبيهم ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ تجاهلوا معرفته بأحوالهم معه من قبل هذا، والذي ينوي النصيحة لا يجعلها حُجة، فنعت المرء نفسه بالنصح والإصلاح لا يكون بألفاظ مجردة وأفعال تناقضها، أأصبحتم الآن له ناصحين ومواقفكم تجاهه تضمر الشر في كل حين ؟ مَن يُحب الخير لغيره لا يتباهى به، ولا يدَّعيه باللفظ المجرد ، لا يمكن أن يضمر الأذى ويُظهر الصَّلاح، وكأن الأحداث تتصاعد في حياة الطفل الصغير ليتخلص من كل شوائب البشر حتى في العناية والرعاية والتربية والتوجيه، فلا يأنس قلبه إلا الله .

﴿ لَيَحْزُنُنِيٓ ﴾هاجس يُحدِّث القلب في اللحظة الأولى أن وراء الإلحاح سوء نية، لكنه الأب الذي افترض في أبنائه حُسن النية فقال في رِقة تملؤها الحسرة﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾ يُظهِر تخوفه ويعطي المبرر ويلتمس لأبنائه العُذر، أخاف أن يُؤذَى في غفلة منكم، لا يريد أن يوغر صدورهم على أخيهم، لا يتهم جزافًا، أن الخوف سببه إحساس بمكر يُحاك ضد أخيهم .

﴿ لَيَحْزُنُنِيٓ ﴾مرارة الفقد لا تعادلها مرارة، فقد الأحبة يدمي القلب، هذا نبي مُرسل ويحمل هذا الكم من المشاعر، فما بال أحدنا يعامل بنيه بقسوة ويدَّعي أنها تربية .

﴿ لَيَحْزُنُنِيٓ ﴾نقل لنا القرآن وصفًا بليغًا لمشاعر الآباء تجاه أبنائهم، رأيناها هاهنا في موقف يعقوب عليه السلام وما آل إليه حاله من الحزن على فقد ابنه، ورأيناها في قصة أم موسى عليه السلام حين ألقته في البحر وغدا قلبها فارغًا ولم يهدأ لها بال حتى عاد إليها .

وحين نقرأ هذا القصص نجد أنفسنا أكثر فهمًا لطبيعة المشاعر، وأنها جزء لا يتجزأ من تكويننا، خاصة تلك التي لا نستطيع السيطرة عليها كرد فعل على المواقف التي نتعرض لها، أو نجد أنفسنا في تفاصيل أحداثها ـ ربما بغير سعي منا ولا قصد ـ ، وأن الرِقة واللطف واللين والحُزن على الفراق كلها مشاعر يحق لها أن تأخذ حيزًا واسعًا في حياتنا، وأن تعاملنا مع المواقف لا يجب أن يتسم بالتجاهل والبرود بل نمنح مشاعرنا حق الظهور علانية في أي موقف في فرح أو حُزن.

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ كم من ألفاظ ننطقها بحُسن نية ونجد غيرنا يستخدمها بسوء نية، فإخوة يوسف عليه السلام لم يُكلفوا أنفسهم البحث عن سبب آخر يُخفون به مكيدتهم إنما أخذوها من فم أبيهم لِيُعيدوها ثانية، كأنما أهداهم العذر الذي سيأتون به ﴿ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ يُقْدِم البشر على إيذاء من لم يلحقوا بهم ضررًا لأنهم - غالبا - لا يشعرون بآلام الآخرين. إذا علمت مكانة أمر ما أو شخص ما في نفس إنسان ثم فكرت في إيذائه به أو حرمانه منه فأنت والذئب سواء .

﴿ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ﴾ ظل إخوة يوسف عليه السلام يُكررون عصبتهم على مسامع أبيهم كأنما يذكرونه في كل آن كيف تُفضِّل صغيرين لا منفعة فيهما على جمع يقوم بما تحتاجه من مقومات العيش والعمل؟ وكيف يشملهما برعايته ويترك جماعتهم؟ هكذا تخدعنا عقولنا أحيانا، هكذا تُسول لنا أنفسنا أحيانا، أننا الأفضل، أننا فوق المقارنات، أننا نستحق تقديرًا أكبر، واحترامًا أكبر، واهتمامًا أكبر، والحقيقة التي تنطق بها تجربة الحياة أن الاحترام والاهتمام والحب لا يُستجدى، وأن المرء رهين ما يقدم، وأن أفعالنا هي مقياسنا الحقيقي في نظر الآخرين، ولو رأى يعقوب عليه السلام في أبنائه حبًّا ورعاية وعطفًا على إخوتهم الصغار ما دارت كل هذه النقاشات، وما أظهر كل هذا التخوف والتردد مِن طلب هو في عُرف الأسرة مقبول حين يصحب الأخوة أخاهم معهم .

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾ [يوسف : ١٥-١٨]

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ اكتملت أركان المكيدة ، انطلقوا بيوسف عليه السلام مبيتين له النية، أن يجعلوه في غيابة الجب ، لكن الذي ترعاه يد الله أنَّى لأيدي البشر أن تطاله ، الذي ترعاه يد الله لا تضره مكائد البشر، وكأن كل هذه الأحداث تجرد يوسف عليه السلام من عوالق البشر فلا يكون لأحد عليه فضل في تربية أو إصلاح، فحين يصير شابًّا ويتعرض لمحن أشد وطأة لا يعبأ بمكر البشر إنما يأنس بمعية الله، لذا اختار السجن على غواية امرأة العزيز﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ يفضل تقييد الحرية على أن يقترف إثمًا ، هكذا هم عباد الله حين تكون أعينهم وعقولهم وقلوبهم متعلقة بالله في كل تصرفاتهم .

﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ﴾ العُصبة كلها على رأي واحد، ولفظ الإجماع هذا يصور لنا كم بلغت المكيدة في نفوسهم، كم بلغ الحِقد في قلوبهم، إخوة يكون أرفقهم بيوسف عليه السلام مَن يقترح أن يُلقى في غيابات بئر في صحراء قاحلة. الإجماع على أمر لا يعني صلاحه، فقد يجتمع البعض على أمر ويكون فيه مفسدة . لابن مسعود جملة جامعة قال فيها «الجماعة ما وافق الحق؛ ولو كنت وحدك» .

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ ليس تباكيًا بل بكاءً، ليس ادعاءً وتزييفًا بل حقيقة، يبكون حقيقة، أي قدرة تلك التي استطاعت أن تُنتج دموعًا كاذبة بعد موقف كهذا ؟!

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ في وقت المساومة والإقناع كانت ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ وفي وقت التضليل والخداع أصبحت﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أليس المقصود باللعب كان يوسف عليه السلام لا أنتم؟ بعض الخداع يحتاج أن يلبس ثوب الخطيئة وأن يظهر شيئًا من التقصير، يعترفون بتقصيرهم في حمايته لئلا يتهموا بقتله.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ كيف يمكن وصف هذا المشهد؟ أب يرى قميص ابنه ملطخًا بالدماء ومَن يحمله هم إخوته الذين يُفترَض عليهم نصرته وحمايته، إنهم من كادوا به.

﴿ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ جعلوا وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في ادعائهم، لكن يعقوب عليه السلام أبطل قرينتهم هذه بقرينة أقوى منها، وهي سلامة القميص من الشقّ. عن الحسن قال : لما جاء إخوة يوسف عليه السلام بقميصه إلى أبيهم ، جعل يُقلِّبه فيقول : ما عَهِدت الذئب حليمًا؟ أكل ابني ، وأبقى على قميصه[1].

﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ ﴾ سوّلت أي زَيَّنت وحَسَّنت. والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه. لا تثق في ميولات النفس في كل آن فقد تقودك لفعل ذميم.

﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ القلوب المتعلقة بالله لا تفتأ في كل مقام تتمسك بمعيته، استسلام لقضاء الله، لم يزد في كلامه عن عتاب عابر يُخرج شيئًا مما يحمله القلب من مرارة ﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ ﴾ عتاب لا تجريح فيه ولا توبيخ، عتاب يخاطب القلوب لا الآذان، عتاب يُذكِّرهم بإنسانيتهم قبل أخوتهم ليوسف عليه السلام، عتاب يوقظ الضمير من غفلته، يرد العقل إلى رشده، لكن ما من شيء من كل هذا قد حرك مشاعرهم.

﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ صرح بها ولم يكتمها، ليس الأمر كما تقولون إنما زينت لكم أنفسكم سوءًا. ثم باستسلام المؤمن لقضاء الله يُعلن أنه لا يملك إلا الصبر، ليس صبرًا عابرًا ولا عاديًا إنما ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ فبعض الخذلان لا يصلح معه العتاب، بعض الأوجاع لا تجدي معها الشكوى، فلا تُشكى إلا لله، في حينها يلهج اللسان بصبر جميل، ولا يكون الصبر جميلا إلا إذا خلا من الشكوى لغير الله، ومن الركون إلا لله، وما حيلة كل مبتلى إلا الصبر الجميل، صبر لا شكوى فيه ولا سخط، صبر لا جزع فيه ولا تذمر .

1 تفسير الطبري (579/15)

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ العون من الله لا من غيره، قد أوكلته أمري، قد لجأت إليه دون سواه، قد أعلنت خضوعي لقضائه، الأمر أكبر من كيد عابر، الأمر أكبر من حسد إخوة، ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ فلا طلب للعون في الابتلاءات التي لا تقوى القلوب على حملها إلا من الله، لا قوة تعين ضعيفًا إلا قوة الله، لا معية تربط على قلب مبتلى إلا معية الله، استسلام مطلق لقضاء الله يُجمِّله بصبر جميل، وكل القرائن تُخبره بكذب ادعاءاتهم .

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ هكذا هي قلوب المؤمنين، لا تطرقها يد اليأس ولا تُدنِّسها رائحة القنوط، لذا ظل يعقوب عليه السلام ما بقي من حياته ينشد عودة يوسف عليه السلام حتى إنه بعد فَقْدِ ابنه الآخر قال لبنيه﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كأنما يتذكر رؤيا يوسف عليه السلام العالقة في قلب الزمان والتي لم يرها يعقوب عليه السلام حقيقة بعد.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ كل اتكاء على جدار البشر هو سقوط مؤجل، كل اتكاء على غير الله إلى زوال ، فالله المستعان لا غيره، الله المستعان باعتقاد قلبي لا بلفظ مجرد ، فإذا ما تعلق القلب بها يقينًا اختلفت نظرته للحياة والأحياء .

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ والله المستعان ترددها حينما تغلبك الحياة، حينما تغلبك الهموم، حينما تضيق عليك الدنيا الواسعة، تلجأ إلى الله بجوامع قلبك؛ لتتضاءل أمام عينيك الدنيا بكل متاعبها .

المشهد الثاني «من غيابات الجُبّ إلى ظلمات السجن »

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢﴾

[يوسف: ١٩-٢٢]

انتهى المشهد الأول من القصة، طويت صفحة إخوته ومكيدتهم، وبدأت صفحة معية الله لعبده تأخذ شكلًا أكثر إشراقًا. فالمشهد الآن غلام صغير مُلقى في غيابات بئر في صحراء قاحلة في زمان غابر لا نعرف شكل الحياة فيه داخل المدن فكيف هي في البادية ؟! فيسوق الله له قافلة تريد الماء ربما لحاجة ملُحة أو على سبيل التزود لا أكثر. هكذا هي معية الله لا تفارق عباده، لكنها تتدخل لتغير سير الأحداث حينما تنقطع أسباب النجاة، نجدها قد تدخلت لنجاة إبراهيم عليه السلام من الحرق، وهاهنا تتدخل لإنقاذ يوسف عليه السلام من غيابات الجب.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾أسباب النجاة التي يسوقها الله لعباده ليس شرطًا أن تكون أسبابًا ظاهرة واضحة جلية، فقد حفظ موسى عليه السلام بعاطفة ألقاها في قلب زوجة فرعون﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ﴾[1]، ونجّى يوسف عليه السلام من ظلمات الجُب بطلبهم الماء ولو على سبيل التزود، لا الإلحاح ، هكذا هي معية الله لعباده، يخلق حاجة في نفوس بعض خلقه ليكون في قضائها لُطف بغيره، فما قدَّر ابتلاء إلا وساق معه بشريات الفرج .

﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾ الغريب رأى فيه البُشرى، وإخوته رأوا فيه سبب شقائهم. قد ينتقص منا مَن هُم أولى الناس بدعمنا، وكأنما نرى بعض واقعنا في كل مشهد من مشاهد القصة .

١ [القصص : ٩]

﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾كيف كانت نظراته الأخيرة في وجوه إخوته؟ كيف كانت نظراتهم له وهم يتخلصون منه في غيابات البئر ؟ بل كيف كانت نظراتهم وهم عائدون إلى أبيهم يحملون له الخبر ؟ ألم يلتفت منهم أحد للوراء يودعه ولو بنظرة عابرة؟ أي قسوة هذه التي تصرف القلوب عن أبسط معاني الإنسانية؟ إن المرء السوي يستشعر مرارة الجُرم حين يُروى على مسامعه، فكيف هي قلوب صانعيه؟ ألا تشعر ؟ ألا تتألم مثل باقي القلوب ؟ بل كيف كانت نظراته لمن انتشله من غيابات الجب، وقبل أن يُقدِّم له أي نوع من الشكر على المعروف يسمعه يهتف أن وجد بضاعة؟ بإمكانك أن تطرح مرارة ما يمكن أن تمر به في حياتك بجوار نظرات هذا الطفل في هذه الحال.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾أبوه نبي، وجدُّه نبي، وجد أبيه نبي، ثم ها هو في نظرهم بضاعة، نظرة الناس لا تُغير الحقائق، نظرة الناس ليست دائما حكمًا صائبًا، من قبل قالوا عن إبراهيم عليه السلام ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [1] كان في نظرهم مجرد فتى، أما في ميزان الإيمان:﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [2]

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ نبي كريم يرونه بضاعة يسعون لستر خبرها ولم يعلموا أن خبرهم هذا سوف يوثقه كتاب سماوي. حين يكون الشخص في المكان الخاطيء تكون الأحكام عليه قاسية، لا يُعرَف له قدر ولا يُحفَظ له حق، هكذا هي حال كل من يكون في مكان لا ينتمي إليه ، وهكذا هي حال كل صاحب موهبة بين سفهاء يسخرون منه وآخرون ينتقصون من قدره .

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لم يكتفوا باتخاذه سِلعة تُباع، بل كانوا في بيعه من الزاهدين، هكذا النعم حينما تكون في يد جاحد بها، هكذا يُباع كل مبدع حينما يوكل أمره لمن لا يعرف قدره ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾

١ [سورة الانبياء: ٦٠]
٢ [النحل :١٢٠]

كأنما يريدون أن يتخلصوا من عبئه عليهم. لفتة أخرى تخبرنا أن نظرات الناس ليست مقياسا للحُكم على أحد.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ بعض الوجوه تتأمل فيها الخير من نظرتك الأولى، كذلك فإن بعض الأعمال نقوم بها تطوعًا أو حبًا للخير ولا ندري أننا مجرد أسباب للطف الله بغيرنا من العباد.

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ لَفَظَهُ إخوته وكادوا له، وأكرمه غريب لا يعرفه، هكذا هو عطاء الله، لا مقاييس له، لا حدود تقيده، يبدأ تمكين يوسف عليه السلام من باب الرق، تبدأ أول صفحاته بمصر وقد دخلها ﴿بِضَٰعَةً﴾ وقد بِيع ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ وهم فيه ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ كان عزيز مصر عقيمًا لا يُنجِب، فاستبشر في يوسف عليه السلام خيرًا، فكان عُقم العزيز سبب الرحمة بيوسف عليه السلام.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة:

العزيز في يوسف عليه السلام حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾

و المرأة التي قالت لأبيها عن موسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾

وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ليس أمرًا إلزاميًا يُلزم به زوجته، إنما حوار راق وأسلوب إقناع، الصدام والتعنت هو ما يُفسِد البيوت، ولو قامت على الاحترام لَصَلُحَت.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾عطاء إلهي لا سعي بشري، وهكذا كل توفيق في الحياة نُرجعه لعطاء الله، يسعى المرء بكل طاقته لكنه لا يتعلق بالأسباب، لا يتعلق بقدرتها أو عجزها، إنما يسعى بجوارحه وقلبه معلق بعطاء الله له، بفيض الله عليه، بلطف الله به، فيمضي في أي طريق يسلكه مع أقدار الله بيقين.

﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ يتحدث الله عن التمكين ولم نر مشاهده بعد، يحدثنا الله عن التمكين ولا تزال صورة البدايات عالقة في أذهاننا، لا نزال نستحضر مشهد غيابات الجب، مشهد ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾مشهد البيع بـ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ، مشهد ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ مشاهد كلها تحمل صور الاستضعاف لكن الله يحدثنا بأنها تمكين، إنه البناء النفسي لعقلية المؤمن حينما ترتسم في مخيلته كل صور الضعف التي لاقاها يوسف عليه السلام ليستحضرها في نهاية القصة وما بلغه من قوة وتمكين لنعلم أن التمكين لا يأتي إلا بعد ضعف ، وأن الاجتباء لا يأتي إلا بعد ابتلاء، وأن المنح لا تأتي إلا بمحن تتوالى قبلها، وأن القوة الحقيقية ليست في سلطان قائم على الأرض إنما في إيمان وقر في القلب .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الله غالب يُقدِّر ما شاء من أحداث، يُرسِل الفرج بعد الضيق بأسباب وبغير أسباب. قال ابن كثير: أي إذا أراد شيئًا فلا يُرَد ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه .

وقال القرطبي : الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أي لا يغلب الله شيء، بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريده أن يقول له: كُنْ فَيَكُونُ.

وقيل: ترجع إلى يوسف عليه السلام؛ أي الله غالب على أمر يوسف عليه السلام يدبّره ويحوطه ولا يكِله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيْدُ كائد.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أي اكتمل نضجه، نضج عقلي ونفسي وجسماني، ثم يأتي العطاء بعد الاكتمال ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ أي آتيناه حكمة في التصرف وفهمًا يرتقي به عن أفهام من هم دونه فيبصر الأمور على حقيقتها بلا شوائب، ﴿ وَعِلْمًا ﴾ ثم يأتي العلم بعد الفهم، علمًا فيما بينه وبين ربه، وعلمًا بمصالح نفسه، وعلمًا بمصالح العباد، وهذا العطاء هو أول أمر النبوة لذا نجده متكررًا في الخبر عن أنبياء الله، فعن لوط عليه السلام ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [1]
وعن داوود وسليمان عليهما السلام ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [2]

١ [سورة الانبياء: ٧٤]
٢ [سورة الانبياء: ٧٩]

﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ ﴾ عطايا الله لا تأتي بعجلة العبد، إنها تأتي في الوقت الذي أراده الله ، تأتي في الوقت الذي يكون في عطائها خير للعبد، قد يؤجل الله عنك أمرًا لِحكمة، وقد يُعجِّله لحكمة، في الحديث أن النبي ﷺ قال: يُسْتجَابُ لأَحَدِكُم مَا لَمْ يعْجلْ: يقُولُ قَد دَعوتُ رَبِّي، فَلَم يسْتَجبْ لِي. (1)

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ الصَّابرين على النوائب، جزاء غير مقيد بزمان ولا مكان، أُبتلِي يوسف عليه السلام في حياته بصنوف شتى من الابتلاءات فما كان منه إلا صبر جميل وقلب راض ولسان ذاكر، حفظ الله فحظفه وراقب الله فعصمه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ نجزي المحسنين بِحُسن عطائنا، حتى في الإخبار عنهم يُعلمنا ربنا أدبًا فريدًا، قبل أن يسرد بعض تفاصيل قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز يُذكِّرنا أولًا أننا نتحدث عن نبي من المحسنين فقدم حُسن الذكر، وجميل الصفات، واجتباءه إياه، وإتيانه العلم والحكمة قبل أن يسرد طرفًا من قصته مع امرأة العزيز، معان تحجب مخيلاتنا عن التفكير السيئ ولو بالخاطرة .

قال تعالى ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤]

تنتقل أحداث القصة لجانب آخر في حياة يوسف عليه السلام، يوسف الإنسان، يوسف الشاب، يوسف الغريب في عقيدته ووطنه وقيمه وأخلاقه عن كل المحيطين به، وغربة المرء ليست محصورة في انتقاله من المكان الذي تربى فيه إلى مكان جديد، إنما غربة المرء الحقيقة أن يعيش وسط أناس لا يألفهم ولا يألفونه، يشعر بغربته وهو بينهم، إنها غربة الأفكار والاهتمامات والمشاعر.

١ أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)

وقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام تكشف لنا كيف يمكن للمرء أن يُظهر صدق حقيقته الإيمانية والأخلاقية في مواقف الفتن، إن كانت أحداث طفولته قد عجز عن إظهار أي مقاومة بشأنها فكل الذي سيأتي كانت له وقفات حاسمة في تفاصيله ونتائجه، لنعلم أنه ليس للفضيلة وطن، لنعلم أن استحضار الرقابة الإلهية ليس له مكان محدد ولا زمان محدد وليس حكرًا على أناس دون غيرهم، لنعلم أن مَن تعلق قلبه بمراد الله كان سره كعلانيته وظلمة ليله كضوء نهاره، لنعلم أن من هتك السِتر الذي بينه وبين الله هتك الله السر الذي بينه وبين الناس، وأن من اعتصم بالله آواه ومنعه .

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾محاولة دنيئة تكشف عن نقيصة في الأخلاق، أهذا الذي استأمنك عليه زوجك؟ أهذا الذي استقدمه ورعاه ليكون لك ولدًا؟ والنفس ترضخ لقوة الشهوة حين لا تردها عقيدة ولا يُهذبها إيمان ولا يردعها ضمير، الابتلاءات آتية لا ريب، لكن الذي يصنع الفارق هو القلب الذي يستقبلها برضا المؤمن بقضاء الله، فلا اجتباء بغير ابتلاء، ولا صدق بغير بينة .

﴿ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾ بعض الرذائل نستقبح أنفسنا بعد إتيانها، إنه النقص البشري، إنه التمييز والمفاضلة بين العباد، بين نفس تميل ونفس تثبت، حتى الوصف القرآني جاء غاية في الدقة، لم يقل سيدته، لم يقل زوجة العزيز، بل ﴿ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾ استنكارًا لصنيعها.

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ مكيدة أخرى قد أفرغ صانعها كل جهده أخذًا بالأسباب.

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ هكذا قالها بقوة الإيمان، قالها خشية من الله في خلوة قد هيأت لها امرأة العزيز كل الأسباب، حين تستحضر خشية الله في قلبك عند الخلوة فاعلم أن قلبك ينبض بالإيمان

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ قالت، قال، لا فواصل، لا أداة عطف توحي بالتسويف أو التريث، إنما قول قاطع لم يمنح نفسه أي وقت للتفكير، هذا هو اليقين، وأكثر الخيبات التي نعيشها إنما هي جراء التردد في وقت كان علينا أن نكون حازمين.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ تذكير بالله أولًا أعقبه بـ ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ تذكير بنبل الأخلاق وحُسن السيرة والسريرة، أعقبه بـ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تذكير بالجزاء وسوء العاقبة للظالمين، تدرج يرد النفس إلى رشدها ، يحول دون خاطرة عابرة تحيد فيها عن طريقها .

﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ﴾ لا لنصرفه عن السوء إنما لنصرف السوء عنه، فلا يطاله ولا ينال منه، هكذا هي حياة المحسنين التي زكَّاها الله، إنها حياة يعلن فيها المؤمن عبوديته المطلقة لله، فلا يقتصر الجزاء على رضا الله فحسب، إنما سلامة العيش من منغصات الحياة، حتى إن الركون البسيط من النفس لا يحدث للقلوب المتعلقة بالله.

﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ﴾ في كل موقف آثرت فيه طاعة الله بالانصراف عن السوء والفحشاء، صرف الله عنك بَعده السوء والفحشاء فلا يلقيانك في طريق، فالله يحفظ قلوب عباده من كل مظاهر الدنس .

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٥-٢٩]

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾كلاهما يسعى نحو الباب بهمم مختلفة، هو يفر من المعصية، بينما هي تسعى نحوها، ليس في كل بقاء خير، فبعض الأماكن في تركها خير، وبعض الأشخاص في فقدانهم خير، استبق نحو كل باب ترى فيه نجاتك، ولا تمكث في مكان يُساء إليك فيه .

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾تسابقه نحو الباب الذي أغلقته بيديها بإحكام ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ ألا تثق في إغلاقها له؟ النفس تحت وطأة الشهوة تكون قلقة مضطربة لا تفكر بعقل ولا تتصرف بحكمة ، فكلاهما انطلق لكن الغايات قد اختلفت فتحرك هو بيقين المؤمن أن الله جاعل له مخرجًا وإن كانت أحكمت إغلاق الأبواب، وتحركت هي خلفه بقلق أنساها أنها أحكمت إغلاق الباب.

﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ﴾ بعض الابتلاءات يكون فيها النجاة، أساءت إليه، شقّت قميصه، فكان دليل براءته .

﴿سَيِّدَهَا﴾ليس سيد يوسف عليه السلام، رغم أنه في حُكم المملوك، يرتفع الله بعبده فينسب سيادته عليها لا على يوسف عليه السلام.

﴿لَدَا ٱلۡبَابِ﴾المكان الذي أحكمت إغلاقه جاءتها الفضيحة من عنده.

﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾استثارة للحمية ، تلاعب بالألفاظ، الآن تذكَّرتْ أنها من أهله، الآن تذكَّرتْ زوجها، ألم يكن كذلك حينما غلَّقت الأبواب؟ يا للنفس حين تكيد وتُصدِّق كيدها، لقد احتاطت وتمادت في كيدها، فاختارت الوقت الذي ليس بعادة العزيز أن يحضر فيه، ثم غلقت الأبواب تأكيدًا وكيدًا، ثم راودت، ثم استبقت الباب لتجد العزيز عند الباب.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ بكل جرأة تتحدث ، لكنه حديث تلميح لا تصريح﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ فأشارت تلميحًا إلى يوسف عليه السلام الذي أبى التلميح، وبثبات قال تصريحًا :﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ حين يكون المقام اتهامًا لا يصلح

التلميح أو التعريض، إنما دفاع واضح وصريح لإبراء النفس من دَنَس الشبهات ﴿هِىَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ هكذا هو منطق الأبرياء، واضح لا غموض فيه، لا جدال ولا جهد في الإقناع، إنما بكلمات بسيطة واضحة تغنيهم عن أحاديث طويلة يصنعها من يختلقون ويدَّعون الكذب .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ من أين جاء الشاهد؟ ما اسمه؟ كل هذا لا يفيد في عرض القضية شيئًا، القرآن يوثق مواقف لا يعرض أسماء، الذي يعنينا أن الله أجرى الحق على لسانه في تلك اللحظة الحرجة ؛ فأدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز .ثم إنه ليس بشاهد عادي ، إنما هو من أهلها؛ لتكون شهادته أوجب للحُجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف عليه السلام، وأنفى للتهمة عنه .رغم أنه لم يسلم من حظ النفس فقدمها وأخره ﴿فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ﴿فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لكنه مع ذلك قدم رأيًا فريدًا في إقامة الحُجة دون الحاجة للمواجهة المباشرة أمام العزيز.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ تبين للعزيز صدق يوسف عليه السلام، فنظر إليها متعجبًا من جرأتها على اتهامه رغم كل ما قدمت من كيد به، إنها تكيد وتدَّعي كذبًا وتدافع عن كذبها أمامه ، فلم يجد العزيز بُدًا من الإعراض عنها، وهذا دأب قليلي الحيلة، لا يأخذون رأيًا قاطعًا إنما تمييع القضايا الشائكة، بل تخفيف حدة الألفاظ بتوزيع الاتهام كأنه يتقي غضبها﴿كَيۡدَكُنَّ﴾إنها امرأة واحدة فلما دخل باقي النساء بكيدها ليقحمه في الحديث!

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ الذي يشغل العزيز هو انتشار الخبر ، فيتوجه إلى يوسف عليه السلام مخاطبًا أن أَعرِض عن الحديث في هذا الأمر ولينتهِ الحديث فيه عند هذا الحد، هذا هو ما كان يشغله، ثم يلتفت إليها أن استغفري عن هذا الخطأ، ومع أن أخطاءها كثيرة لكنه عاد ثانية ليخفف من حِدة النقد ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ كأنه خطأ عابر لا يستحق من العزيز أن يَبُت فيه برأي، لذا تمادت امرأة العزيز فيه ثانية .

ورغم أن العزيز لم يكن يدين بدين سماوي نعرفه إلا أنه كان يعرف الاستغفار من الذنوب، ربما بقايا تعاليم قديمة، ربما إرث أخلاقي جعله يرى في فِعل امرأته نقيصة تستوجب الإعراض عنها فعبَّر عنه بالاستغفار .

قال تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف : ٣٠-٣٢]

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ خرج الحديث عن حدود قصره، هكذا هي القصور حين يسكنها فارغو العقول، ينشغل سكانها بتناقل أخبارها ، ونسوة المدينة اللاتي ادعين الصلاح أردن التشهير بأبلغ صوره، فألصقن اسم العزيز إليها ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وهذا أدعى لنشر الخبر وتناقله في المدينة كلها، ثم تشنيع و تبشيع للجرم ﴿تُرَٰوِدُ﴾ فلم يكتفوا بنقل الخبر إنما بشرح بعض تفاصيله، ﴿فَتَىٰهَا﴾ ليس شخصًا عاديًّا، ليس رجلًا من القصر، إنما ﴿فَتَىٰهَا﴾ لتتلقف الآذان الخبر باستقباح شأنها واستهجان فعلتها .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ الدين ليس ضد الحب ، إنما هو ضد كل انهيار للخُلق باسم الحب، كل وأد للعفة باسم الحب ، فالقلب الذي يضرب بالأخلاق عرض الحائط ليس قلبًا محبًا إنما قلب يبحث عن المتعة بستار الحب ، فالله تعالى كما أوجد في قلوبنا المشاعر أوجد بجوارها الإرادة التي تضبط سير المشاعر، التي تُقيم عوج أي انحراف قد تميل إليه النفس، الإرادة التي تضع في طريق الاعوجاج أشواكًا تؤلمنا حتى نصحح مسارنا، التي تُذكرنا في كل آنٍ أن حياتنا مع العفة أنقى من حياتنا مع الرذيلة ، وحياتنا مع الكرامة أنقى من حياتنا مع المذلة ، وحياتنا مع الفضيلة أنقى من حياتنا مع الانحطاط.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذه الحكمة وكمال العقل الصادر من نسوة المدينة وهن في بيوتهن ومجالسهن، قبل أن يُعرض عليهن يوسف عليه السلام، ما أسهل النقد وإطلاق الأحكام حين لا نكون طرفًا في تفاصيل الأحداث، التمييز ليس في حكمك على الأمور من خارجها إنما في صلاحك وأنت في قلب أحداثها، حين تغوص في أمواج الفتنة ثم تخرج منها سالمًا، فالنسوة اللاتي أطلقن القول العاقل وأظهرن الشماتة هنَّ أنفسهن مَن خاطبهن الملك قائلا ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ خطبكن بالجمع، فالفِعل جاء منهن كامرأة العزيز .

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ قد تستنكر على أحدٍ فعله وتذمه إما قولًا أو في نفسك وأنت لم تخض ما خاض فيه ، فتدور دائرة الزمان وتسقط في نفس موضعه فإذا بك تفعل نفس ما فعل ، تخطو نفس خطواته ، وتتصرف نفس تصرفه، فلا تكلف نفسك مشقة محاسبة الناس على أفعالهم ، فهي ليست وظيفتك، ولا تتعجل الحكم على أحد قبل أن تخوض نفس التجربة ، لا تلم غريقًا وأنت على شاطيء البحر ، فمن عاب أُبتلي ، ربما ليست قاعدة عامة لكنها موجودة نراها كثيرًا في حياتنا .

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يحكي شخص عن تجربته فيقول: عِبت على رد فعل شخص في بلاء وقع به، استنكرت رد فعله وطريقة معالجته للأمر ولم يمض وقت طويل حتى وقعت في نفس البلاء أسلك نفس الطريق الذي سلك، وأسمع من غيري نفس العبارات التي أسمعتها له من قبل؛ فلا تسخر من غريق لا يحسن العوم وأنت على اليابسة.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ كما أن الأخبار كسرت جدران القصر لخارجه، ها هي تعود إليه من جديد، فعلمت امرأة العزيز بقول نساء المدينة في حقها، وبعض النفوس تبلغ بها الدناءة ألا يكون لها شغل شاغل سوى تناقل الأحاديث، ونشر التفاصيل التي تضيق النفس بافتضاحها، لكن امرأة العزيز أدرى بنساء المدينة، فكادت لهن كما كادت ليوسف عليه السلام من قبل، أعدت لهن طعامًا ودعتهن جميعًا إليه ليرين بأنفسهن ما الذي دعاها لما صنعت وتقف هي شاهدة عليهن .

﴿ وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ ﴾تعلـم يقينًـا نتيجـة اللقـاء ووقعـه في عيونهـن وقلوبهـن، إنهـن قـد بلغـن مـن الدنـاءة أنـه لم يعـد للحيـاء مـكان في أحاديثهـن.

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ ﴾ مـن يصطفيـه الله يُلقـي الهيبـة في وجهـه، فـما رآه أحـد إلا انـشرح لـه صـدره، ومـن العجيـب اختـلاف النظـرات والتقديـر، فنسـوة المدينـة هالهـن مـا رأيـن مـن جمـال الخَلْـقِ، أمـا ملـك مـصر حـين رأى يوسـف عليه السلام أول مـرة هالـه مـا رأى مـن عظيـم الخُلُـقِ وحُسـن المنطـق ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾هكـذا هـي نظـرات النـاس ، كل يبحـث عـن غايتـه.

﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ تحركـت السـكين فتجـاوزت الفاكهـة لتطـال اليـد التـي تمسـك بهـا، فطالهتـا بالأذى.فأيـن إحسـاس الجِلـد بالسـكين وهـي تَقطعـه؟ لم يشـعرن بـالألم لانشـغال قلوبهـن بيوسـف عليه السلام حـين رأينـه فتخـدَّر الشـعور.

﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾أكثـر مـا يقـود النـاس للهلكة هـو إمعان النظـر فيما لا يملكـون، فرغم أن الإحسـاس بـالألم يفـوق جميـع الأحاسـيس الأخـرى حتـى أنه قـد يوقف المـرء عـن طلب ما يسـد بـه جوعه وعطشـه عنـد الـضرورة، إلا إنهن قد تجـاوزن مرحلة الإحسـاس بـالألم حينما رأيـن ما هـو أكثـر إلحاحًا عـلى أبصارهن.

﴿ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾استـدل النسـوة بجـمال الوجـه وعُلـو الهيبـة عـلى جمـال الـروح وصـدق السريـرة حتـى ظنـنَّ أنـه مَلـك لا بـشر عـادي، فلـما تمـت مكيدتهـا، أصبـح نسـوة المدينـة في نفـس خندقهـا، أصابهـن مـا أصابهـا، لقـد عبـن عليهـا ثـم أُبتلـين بجنـس مـا شـمتن بـه .

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ ﴾أتـدري مـا هـذا؟ إنـه وأد للفضيلـة في أبشـع صورهـا، إنه انتهـاك لكرامـة الإنسـان، ومـاذا يبقى للمـرء إن هو فـرط في كرامتـه؟ كيف يمكن لـه أن يحيا بعدهـا؟ لقـد كادت له ثم كادت لنسـوة المدينة وكل هـذا كانت تُدبـره سرًّا، تُدبره وفي وجهها شيء مـن الحيـاء دفعها للدفاع عن نفسـها أمـام العزيز، أمـا الآن، لا عفة، لا حيـاء، لا كرامة، لتنطـق بفحـش اللفـظ علانيـة ﴿لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾ ما عبتن عـلي فيه هو مـا تطلبنه الآن.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ ما أروع اللفظ القرآني وهو يصف ثبات يوسف عليه السلام، يصف تمسكه بعقيدته وقيمه وأخلاقه وفضيلته، تمسكه بمروءته وإنسانيته، لا هِزة داخلية، لا تردد، لا خوف، بل (فَٱسۡتَعۡصَمَ) استعصم كله، القلب والجوارح، ظاهرًا وباطنًا، والمرء قد تصيبه بعض الهَنَات ، بعض لحظات الضعف في حياته، في حينها عليه أن يلجأ إلى ركن الله، أن يردد بكل قوة (معاذ الله) أن يعبر عنها بالفعل مع القول .

﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ليس تمنعًا عاديًّا إنما بالغ في إظهاره بكل صورة، فحين تقرأ اللفظ بهذه القوة ﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ يقع في قلبك إحساس بشدة التمنع، شدة الرفض، شدة الإنكار ، ليس إنكارًا عاديًّا ، ليس رفضًا عاديًا إنما استعصام كامل بالله ليحول بينه وبين مقدمات المعصية .

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ استعصم قلبًا وقالبًا، إلى من يبحثون عن النصر ويتشدقون بشعارات التمكين، إلى من يتساءلون في كل حديث لم لا تنتصر هذه الأمة؟ إلى المتعجلين بلا أسباب، إلى المتعجبين من تأخرنا في كل مجال، الذي تهزمه الشهوة لا يمكن أن ينتصر في الحياة، الذي يريد أن يحرر أرضًا عليه أن يحرر نفسه أولًا، الذي ينتصر في ميدان النفس ينتصر في ميادين الحياة كافة

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ أول السلامة صدق النية، فمن جعل الله وجهته سلمت نيته، من جعل وجهته لله وجه الله له الخير في كل طريق يسلكه وفي كل نية يقصدها.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ محال أن تترك شيئًا لأجل الله ويأتيك عوضٌ عاديٌّ، بل يأتي العوض عظيمًا ليشعرك بعطاء الله.

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾ ما كان تلميحًا غدا تصريحًا، وما كانت تُسرُّه غدت تعلنه، هكذا تفعل الشهوة بالنفس، تسلب منها كل عفة، كل حياء، كل فضيلة، من تأسره شهوة يصبح بلا عقل، حتى منطق اللسان غدا سُبة لها .

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ﴾ هكـذا مباشرة، بـلا أي جريمـة ارتكبهـا إلا أنـه قـال (معـاذ الله) وحـين يكـون مـن يلي الأمر بـلا ضمير فـلا تنتظر أي صـورة للعدل، ابتـزاز دنيء، اسـتغلال للسـلطة، إلصاق التهـم جزافًا بلا بينـة ولا دليل، ثـم يتوج كل هذا الفسـاد بإصدار الحكـم ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ هكـذا مؤكـدة بنـون التوكيـد لعلمهـا يقينًـا بسـلطانها وقـوة كلمتهـا، لعلمهـا أن بإمكانهـا أن تلقـي بـه في غيابات السـجون بأمـر منها.

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ بعدمـا رأت مـن نسـوة المدينـة مـا رأت لم تعـد بحاجـة إلى تلميـح لـذا جـاء كلامهـا تهديـدًا مبـاشرًا صريحًـا قويًّـا حافـلًا بالمؤكـدات بـاللام ونـون التوكيـد الثقيلـة في ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾، لتؤكـد مـا هـي قـادرة عـلى فعلـه، والـلام ونـون التوكيـد الخفيفـة في ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ أمـا إذلالـه فخـارج عـن قدرتهـا.

﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ تنطـق هـذه الكلـمات وهـي لا تـزال عالقـة بأمـل تخويفه، بكـسر ثوابتـه، بهزيمتـه في تمنعـه، في عفتـه، في طُهـره ونقائـه، هكـذا كل ظالم لا يُحسـن إلا أن يهـدد ويتوعـد، ويظـن أن البقيـة كحالـه لا ثوابـت عندهـم يدافعـون عنهـا.

قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: ٣٣-٣٥]

نهايـة طبيعيـة لهـذا المشـهد، يلجـأ إلى ربـه داعيًـا، راجيًـا، مقـرًّا بضعـف حولـه وقوتـه، يلجـأ إلى الله مسـلمًا مستسـلمًا، يلجـأ إلى الله بقلبـه وعقلـه وجوارحـه، يختـار تقييـد حريتـه عـلى معصيـة ربـه، هـذه هـي الصـورة المشرقـة في حيـاة يوسـف الشـاب قبـل أن يكـون نبيًـا مرسـلًا، وكل أحـداث السـورة إنـما تظهـر لنـا بعـض الجوانـب مـن إحسـانه، نجدهـا خاتمـة كل مشـهد مـن مشـاهد القصـة، نجدهـا حـاضرة قويـة في منطقـه وفي تصرفـه.

﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ما أروع اللفظ النبوي وهو يقر بقلة حيلته، بانعدام بدائله، فلما لم يعد أمامه إلا السجن اختاره ليس كرهًا بل رضًا، فما دام السجن خطوة يحفظ بها عقيدته ومروءته وأخلاقه لم ينظر لها نظرة غاضب مكره، إنما نظرة راض بقضاء الله مستسلم له .

﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾من ينتصر في حربه مع نفسه ينتصر في كل الميادين ، قال علي بن أبي طالب «ميدانكم الأول أنفسكم، فإن انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن خُذِلتم فيها كنتم على غيرها أعجز، فجربوا معها الكفاح أولاً»

﴿يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾انتهى وقت قوة الألفاظ ، فالآن لا حاجة للتصريح، فاقتصر على التلميح عفة وطهرًا وحياءً، حتى في اللفظ العادي كان عفيفًا.

﴿تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾نبي كريم يُعلن بكل وضوح أنه إنما يستمد قوته من إيمانه بخالقه، أنه بدون عون الله ومعيته فلا قوة تبقى، ولا ثبات يبقى ، ولا تمنُّع يبقى.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾ليس هناك كثير وقت بين الدعاء والإجابة، يأتي العون بقدر الصدق في الدعاء.﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [١]

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾لا يُضام من كان ربه الله، لا يفتقر من كان ربه الله، لا يخيب رجاء من أحسن ظنه بالله، الذين يتركون حياتهم في يد الله سيرتب الله لهم حياتهم في أدق تفاصيلها حتى يروا يد الله في أبسط الأشياء قبل أعظمها.

في الحديث أن النبي ﷺ قال« لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ » [٢] حتى أبسط الأمور إن لم يُيسرها الله فلن تتيسر .

﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾ أتدري كيف كانت الاستجابة؟ كانت بدخوله السجن . ليس كل مصيبة بلاء ، فقد يكون اللطف في قلب الابتلاء .

١ [النمل : ٦٢]
٢ سنن الترمذي (٣٩٦٣)

المشهد الثالث «من ظلمات السجن إلى قصر المُلك »

قال تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف:٣٦-٣٨]

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ أيا كان البلاء الذي نزل بك فإنك قد تجد من يشاركك فيه، دخل يوسف عليه السلام السجن فدخل معه فتيان، أحداث في ظاهرها عابرة لكنها كانت نقاطًا فاصلة في حياته، أما صاحبا السجن فلم يدر بخلدهما أنهما سيكونان ركيزة في تفاصيل حياة نبي مرسل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ معه لا قبله، لا بعده، رافقاه منذ بداية المحنة، يبعث الله بوادر الفرج، صاحِباه في السجن، ثم كان أحدهما سبب خروجه منه، فحتى إن بدت بعض الأقدار مؤلمة فبداخلها رحمة قد لا نعرفها في حينها .

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ هكذا مباشرة دون أي تفاصيل سابقة لأحاديث جانبية، يعرض لنا القرآن الجانب الأساسي في الحوار، بعض الأحاديث لا جدوى منها، وهذا يعلمنا أن نترفع عن الخوض في أحاديث لا طائل منها .

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾حديث جديد عن الإحسان الذي لازمنا منذ بداية القصة، حديث يمتد في أوصال السورة منذ بدايتها، يشهدون له بالإحسان وهو سجين، والسجن كالمرض يُشعر المرء بضعفه وقلة حيلته، إن يوسف عليه السلام لم يحتج إلى عقد مناظرات أو أن يخوض جدالًا أو نزالًا فكريًا، إنما قدم عقيدته نقية شفافة في أخلاقه وتعامله، لذا رآها كل من تعامل معه، رآها رؤية لا تشوبها أي شائبة .

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إحسان رأوه في قسمات وجهه، في ألفاظه، في أخلاقه، في تعامله، في ملامحه، فكان إحسانه مفتاح دعوته، فَأَسَرَ به أفئدة كل من تعامل معه، وكذا دأب صادق الإيمان يرزقه الله القبول في قلوب عباده، يأنسه كل من تعامل معه، ويألفه كل من رأى وجهه.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الإحسان مصدر الفعل «أحسن»، أي جاء بفعلٍ حَسن و يعني مراقبة الله في القول والعمل ، وهو مقابل الإساءة﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [1].

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾عودة أخرى لروعة الألفاظ، للطف العبارة، للإعراض عن حديث لا جدوى منه، إنه يوسف عليه السلام الذي يعلمنا أن نترفع عن الدناءات، عن الكلام الذي لا يخدم قضيتنا الأولى والأساسية، رغم كل ما مر به لكنه لم يتحدث مع صاحبي السجن عما فعله إخوته، عمن ساقه إلى السجن معهما ، لم يتحدث عن فواجع الأيام، رسالة إلى كل من ضاقت عليه الدنيا بهمومها وغلبته، تحدث عن الله لا عن همومك، تحدث عن نعمه وفضائله لا عن الابتلاءات وأسبابها، تحدث عن الفرج لا الضيق، عن الخير لا الشر، عن رحمات الله لا نكبات الأيام .

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ الفضل دائمًا لله، لا للذكاء ولا الموهبة، لا تنسب الفضل لكفاحك وتعبك واجتهادك، إنما هو من عطاء الله، من فضل الله، من كرم الله، والذي لا يرى ما بين يديه من النعم فقد جحد بها .

﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ يسألانه عن تفسير رؤياهما فيجيبهما عن وحدانية الله المستحق للعبادة دون سواه مما يعبد البشر، والذي يحمل هَمَّ دعوة ، و هَمَّ قضية، و هَمَّ رسالة يريد إبلاغها سيجد مدخلًا لرسالته في كل حديث،﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ فالطعام الذي يُساق إليكما هو رزق يسوقه الله إليكما.

---

١ [سورة فصلت: ٣٤]

﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾ليس أمرًا جديدًا أبتدعُهُ إنما هو هدي إلهي أتبعهُ، ولست في هذا الدرب مستحدثًا إنما أنا تابع لمن سبقني بالسير فيه.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾لا تزال تلك الخاطرة تتكرر معنا، يمتد التذكير بأفضال الله في أوصال السورة، دائمًا ما تجده يُرجع لله كل فضل، عطاء الله في توفيقِه له، في الربط على قلبه مع أمواج الفتن والمِحن التي لازمته، في هدايتِه فلا يركن ولا يلجأ إلا لله، في نصرِه وتأييدِه ، في اللطف به إذ آواه وقد هجره إخوته، أمَّنه في خوفه، ثبَّته في ابتلائه.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾حتى العبادة التي تؤديها إنها توفيق من الله لك، وحين نعبد الله لا يجب أن تكون عبادتنا حركات تؤدى، فلن تجد أثر العبادة إلا إذا ارتبطت بها كل جوارحك وتفاعلت معها كل مشاعرك، فلا ترى فيها مشقة بل تجد في كل عبادة تؤديها روحًا تتعافى وقلبًا يطمئن وقلقًا ينهزم.

﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾يجيب المضطر وإن كان كافرًا بوجوده، يرزق المؤمن والكافر، يوفر مقومات الحياة للبر والفاجر، فالمؤمن يتنفس والكافر يتنفس، أما أعظم فضل يجود الله به على عبد من عباده هو الإيمان به، العبودية له، ربما لأننا ورثنا الإسلام أبًا عن جد لم يلفت انتباهنا يومًا هذا الفضل، لكني أخبرك أن هذا الفضل –فضل العبودية لله– قد سأله نوح عليه السلام لابنه، وإبراهيم عليه السلام لأبيه، ومحمد ﷺ لعمه ولم ينله أي منهم، فأي فضل بعد الإيمان بالله؟ وأي عطاء يعطيه الله لعبده أكثر من أن يعرف الله ربه ؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾في عشرين آية من القرآن جاءت (أكثر الناس) ثم جاء بعدها (لا يشكرون، لا يعلمون، لا يؤمنون...) بعض القضايا لا يهم فيها العدد، لا يهم أن تكون مثل البقية، الذي يصنع الفارق أن تكون على الدرب الصحيح ولو كنت وحدك .

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف:٣٩-٤٢]

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ لا تمييز ولا تفاضل، إنما جمعتنا فواجع الزمان بهذا المكان فكان اللطف والتودد وسعة الصدر وجمال اللفظ عنوان الحديث.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ما شعورهما وهما يستمعان لهذه الكلمات من يوسف عليه السلام ؟ يتخذهما صاحبين، الذي يحمل هَمَّ دعوة لا تشغله تصنيفات البشر الطبقية، لا يتلفت لقضايا جانبية، لا يسرف في الحديث عن نعي الحظوظ ، عن إخوته وما فعلوه، عن امرأة العزيز وكيدها به، لقد طرح كل هذا جانبًا وانشغل بقضيته الأولى﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾هذه هي قضيته التي من أجلها يصارع الشرك بكل قواه .

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾صاحب القضية لا يمل من عرضها كلما أتيحت له الفرصة، وصاحب الدعوة يجد دائمًا متسعًا لها، هكذا وجدنا يوسف عليه السلام وهو مملوك في القصر، وهو سجين خلف القضبان، وهو عزيز على كرسي الحكم .

﴿ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾واحد لا شيء يماثله، قهار قهر كل الخلق بالموت، قال السعدي: " كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده " [1] .

١ «تفسير السعدي» (ص ٤١٥)

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾دعوات الرسل في كل الأزمنة إنما تسعى لتحرير عقول البشر من القيود التي تُكبِّل حريتها وحقها في التفكير، إنها تسعى لقيام تغيير فكري ومعنوي يحرر الأفراد والأمم من الموروثات الفاسدة بغية قيام حضارة جديدة على تصور حقيقي لحرية الإنسان ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [1]

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾قال أبو العالية في تفسيرها« أُسِّسَ الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له » [2] الحكم بما أنزل الله ، بما فرض الله، بما اختار من عبادات ومن أحكام تُنظم حركة الخلق، هذا معنى العبودية الحقة، وبهذه العبودية تُكْتَسب الحرية، وبهذا الذل تُرتَقى درجات العز، وبمقدار الخضوع تكون الرفعة، إذا أحسن المرء العبادة وأخلصها ترقَّى في درجات الكمال الإنساني، وأصبح لحياته قيمة، وصار لعمله لذَّة، ولئن كان الغنى غنى النفس فإن الحرية حرية القلب كما أن الرق رق القلب، أما الاحتكام لغير ما اختار الله من أحكام فهو تنحية للعبودية لله، وإن لبس فاعله لباس الوعظ والتجديد.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾نبي كريم يؤول الرؤيا ولم يقطع بحدوث تأويله، خاطرة إلى الذين يتصدرون لتفسير الرؤيا، لا تجزم بصحة ما تعتقد إنما هو ظن قد يَصدُق .

ذكر الطبري في تفسيره أن قتادة كان يُفسِّر الظن هنا الذي هو خلاف اليقين ، قال قتادة : إنما عبارة الرؤيا بالظن ، فيحقُّ الله ما يشاءُ ويُبْطِل ما يشاء، وقال أبو جعفر: وهذا الذي قاله قتادة، من أن عبارة الرؤيا ظن ، فإن ذلك كذلك من غير الأنبياء . فأما الأنبياء فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائنٌ ثم لا يكون.

﴿أَذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يوصي صاحبه في السجن الذي كان تفسير رؤياه أنه سيكون ساقي الملك ألا ينسى ذكره عند الملك، لكن أي ذكر يُريد من صاحبه أن يذكره؟ دخوله السجن ظلمًا؟ أم صدق تأويل رؤياه؟ كلاهما يقبله المعنى .

---

١ [المائدة: ١٠٤]

٢ تفسير الطبري -سورة يوسف -آية ٤٠

عن ابن إسحاق أن يوسف عليه السلام قال له « اذكر للملك الأعظم مظلمتي، وحبسي في غير شيء. قال: أفعل» (1)

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾الاستفادة من الفرص بالقدر المتاح درس يعلمنا إياه يوسف عليه السلام، فسَّر الرؤيا ثم همس لصاحبه أن تحدث عني بخير إن أُتيحت لك فرصة. الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، فالتوكل عمل القلب، والأخذ بالأسباب عمل الجوارح، فمن عطّل الأخذ بالأسباب كان هناك لبس في توكّله، ومن ترك التوكّل واعتمد على الأسباب كان هناك لبس في إيمانه.

﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾خرج صاحبه، عاش حياته ، نسي أو تناسى أيام محنته، بعض النفوس تغلبها الدنيا ، تندفع كلها فلا تلتفت لما مضى، لا تلتفت لأشخاص كان لهم عليهم فضل، فكان ثمن النسيان سنين من حياة يوسف عليه السلامفي ظلمات السجن، قصة تُعلمنا كيف هو لطف الله وتدبيره ، لم يذكر الرجل شيئًا عن يوسف عليه السلامبعدما خرج من السجن، وربما لو ذكر في غير حاجة الملك له ما كان ليهتم بالأمر ، فساق الله الرؤيا للملك ليحتاج إلى من يؤلها .

﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾بعض الأمنيات نظل متمسكين بها تعجز يد اليأس أن تعبث بها حتى نراها رأي العين وإن طال انتظارنا، صاحبا السجن خرجا أولًا، واحد ليُقتل والثاني ليخدم الملك وتأخر يوسف عليه السلامفي السجن سنين ثم خرج عزيزًا.

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾نأخذ بالأسباب لكننا لا نتعلق بها، إذا نزل بنا أمرٌ نفزع إلى الله لا إلى الناس .

﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾المؤمن يجتاز الصعاب بلطف الله لا بقوة تحمله، ففي كل مرة تتسع لنا الحياة إنما تتسع بحُسن الظن بالله، تخذلنا المواقف والأشخاص ويساندنا لطف الله.

---

١ تفسير الطبري (١٣/ ١٦٩)

﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ يكفيك من نعيم الحياة أن يملأ اليقين قلبك بأن أقدار الله أصلح لك من أمنياتك، وأن عطاياه على قدر حُسن ظنك به، وأن الأمنيات العالقة في خبايا النفس يُدبِّر الله أمرها بحكمة ، فإذا ما ارتوى القلب بهذا اليقين رأى أحداث حياته كلها خير.

قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾ [يوسف:٤٣-٤٥]

مشهد جديد في القصة، مشهد مختلف تمامًا ينتقل بيوسف عليه السلام الفرد العادي إلى المصلح الداعية، مشهد يرتقي بالأحداث لذروتها، من مِحن فردية إلى ابتلاء جماعي، من شخص مضى كل ما فات من عمره في جهاد وصبر على صنوف شتى من الابتلاءات ، إلى جهاد جديد وهو يحمل مصير أمة من الأمم، الداعية النبي الوزير الذي يحمل همَّ أمة بكاملها، يحمل مسئوليتها ومستقبلها، يحمل أمنها وأمانها الذي يرتبط مباشرة ببقائها أو بفنائها.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ مفاتيح الفرج لا تنقطع، نَجَّى الله موسى عليه السلام بعاطفة ألقاها في قلب زوجة فرعون فقالت ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾[1] ونَجَّى الله يوسف عليه السلام برؤيا ساقها للملك في نومه ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، من آوى إلى ركن الله آواه، ومن سوى الله نأوي إليه؟

﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ حاشية الملك وصفوة المجتمع، ومع ذلك يستوثق من فهمهم للأمر ، العِلم ليس بالمكانة ولا الوجاهة إنما هو فضل يَمنُّ الله به على من يشاء ، فرؤيا الملك عجز الصفوة عن تأويلها، وأوَّلها مظلوم في غياهب سجن .

---

١ [القصص : ٩]

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ جانب آخر من القصة جاء ليُعلمنا كيف تكون القيادة، ليس وقت الرخاء فحسب إنما في وقت الشدة، كيف يكون دأب القائد على أمة من الأمم في وقت جدبها ومحنها؟ وكيف يكون الثبات وقت النوازل؟ ففي الرخاء كل الناس قادة، كل الناس يُحسنون التخطيط والإدارة، كل الناس في الرخاء عظماء وسادة. قال الحسن البصري :استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ حال الله بينهم وبين مجرد التخمين، أغلق عليهم منافذ البصر والبصيرة، رغم أنهم مع جهلهم بتأويلها إن أولوا أي قول كان سيقبله الملك، هكذا هي معية الله لعباده، يُرسل الرؤيا في ظلمات الليل للملك ويحول دون تأويلها عن أبصار الحاشية في وضح النهار.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ كل من يتصدر لأمر لا يُحسنه أول ما يخطر بباله هو التقليل منه، هذه ليست رؤيا بل أضغاث أحلام، إنها شيء لا قيمة له لتنشغل حتى بتفسيره.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ حين يتصدر الأمر من ليس له أهلًا تكون الهلكة، وحين نعترف بالعجز يأتي للشدة من هو لها أهل.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ تذكَّر بعد نسيانه، تذكَّر حين استدعت الحاجة، تذكر مضطرًّا ولو بعد حين، نسي حينما لم يكن في تذكُّره فائدة ليوسف عليه السلام، وتذكَّر حينما كان في تذكُّره له عِزة وتقدير، هكذا يكون تدبير الله (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ) فإذا ما استوعب القلب دلالات تدبير الله لأمره عاش ما بقي من حياته آمنًا مطمئنًا.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ليس في حينها، ولم يُعلِّق يوسف عليه السلام خطط حياته على أمل أن يذكر أمره عند الملك، بل أمضى حياته داعيًا، مفوضًا أمره لله، فالأحداث التي لا دخل للمرء بها من الإيمان أن يفوض المرء أمرها لله، لا يُجهد فكره في البحث عن الأسباب، قد تكشف الأيام بعض أحكام تدبير الله لها. إذا تغير مسار حياتك بأسباب لا دخل لك فيها فاعلم أنه تغيير يحمل خيرًا، قد يتأخر لكنه آت.

﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾فأرسلون، قالها بكل ثقة لما يعلم من شأن يوسف عليه السلام، هكذا يصنع الثبات على القيم والمبادئ ، حتى الحديث عنه بظهر الغيب تملؤه الثقة. قال ابن كثير: "وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدْق الحديث، وحُسْن السمت، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم"

قال تعالى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٦-٤٩]

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾أيها الصديق لا أيها السجين، لا أيها المتهم، لا أيها الرجل، بل الصدِّيق، صفة لم ينتزعها منهم أو يفرضها عليهم، إنما جسَّدها فعلًا لا قولًا، لذا لا عجب أن ينطق بها ساقي خمر، إنه الصدق.

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾يعلم ساقي الملك في أي قضية قد سُجن، ليس بحاجة إلى أن يستمع إلى قرائن براءة من يوسف عليه السلام ، فمن كانت هذه خصاله فليس بحاجة إلى إلقاء قرائن براءته على كل عابر ، إنما نطقت طيب خِصاله ببراءته، فرآه ساقي الخمر صدِّيقًا لأنه يعلم في أي قضية قد زُجَّ به في غيابات السجون

﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ ﴾ لم يُغير شيئًا في ألفاظ الرؤيا، لم يضف لها بصمة إبداع خاصة، إنما أخذها من لسان الملك أوصلها إلى أُذن يوسف عليه السلام كما هي. في بعض الحرص خير.

﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ يعلمون تفسيرك للرؤيا، ويعلمون فضلك ومكانتك، كلاهما يستحق أن يعلمه الناس، وصاحب السجن يحكي بثقة لأنه جَرَّب يوسف عليه السلام، جربه في التعامل وفي تأويل الرؤى .

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ مباشرة يُعبِّر الرؤيا، لم يدخل في تفاصيل جانبية، لم يعاتبه على السنوات التي مضت ونسي أمره فيها، إنه استسلام القلب والقالب لقضاء الله، فما جدوى اللوم والعتاب. الذي يرضى قلبه بقضاء ربه يؤنس الله وحشته، في بعض العتاب هدر للطاقات واستنزاف للمشاعر وفي التغاضي خير كثير .

قد تمر بالمرء مواقف تجعله يخبئ في داخله كثيرًا من كلمات العتاب، ثم إذا ما جاءت له فرصة إخراجها لم يجدها، تترفع النفس عن حديث لا جدوى منه، عن عتاب لا حاجة لنظرات الاستعطاف بعده.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ تزرعون كعادتكم، لن يتغير شيء في البداية، إنما التغيير يأتي لاحقًا، والابتلاءات التي تأتي لأمة من الأمم لا تداهمها بغتة إنما تكون لها بعض الأمارات، ففي نزول البلاء بغتة إفساد للحياة، وما خلق الله الخلق ليفنيهم إنما كان استبقاء النفس ركنًا أصيلًا في كل شرائع الله.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ حين تكون النازلة عامة فإن الاحتراز قبلها والتدبير وقتها مسئولية الدولة، الفرد إنما هو تابع لما يراه من يلي أمره، لذا كان تطبيق ما أوّله يوسف عليه السلام يعتمد بالأساس على تطبيق الملك له، تقليل الاستهلاك العام رغم أن عامة الشعب لم يروا أي بادرة للقحط إنما يزرعون كعادتهم، خاطرة إلى كل مسئول عن رعية أن يأخذ بالاحتياط دائمًا واستبقاء ما يحفظ للناس بقاءهم وقت النوازل إن داهمتهم.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في الأزمات ليس على المرء أن يتصرف كما يتصرف في الرخاء، لابد من قيود للاستهلاك، للإنفاق ، للتنقل والحركة، وعلى المرء أن يفهم أن الخير وقت الأزمة في الاتباع لا الابتداع .

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ تنازلوا عن غرائز حُب الإنفاق والاستمتاع بكل ما بين أيديكم، اتركوا شيئًا تستقوون به على قادم الأيام، حين تُبسَط لك الدنيا لا تنجرف خلف شهوة الإنفاق.

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾يخبرهم بهذا وهو الذي نشأ أيامه الأولى في البادية ولا معرفة له بالزرع وشئونه، ثم في بيت العزيز ولا معرفة لصفوة المجتمع وأهل الحُكم بتفاصيل الزراعة وأن بقاء البذور في سنبلها يُبقيها صالحة فترة أطول من استخراجها منها، لقد ذكره يوسفعليه السلام مبكرًا جدًا في تفاصيل الأحداث قبل أن يخرج وقبل أن يلي أمر الناس، وهل ما قاله لا يعرفه أهل مصر وهم أهل زراعة؟

لقد جاء تأويل الرؤيا بتفاصيل تُخبر مستمعها (الملك) أن من قالها ليس شخصًا عاديًّا، ليس متمرسًا في أمور الزراعة فحسب، إنما أمور الإدارة والتخطيط والقيادة أيضًا، لذا سوف نرى ثمار هذه التفاصيل حين يطلب يوسف عليه السلامأن يكون عزيز مصر فيقابله الملك بقبول لا تردد فيه، بثقة لا شك فيها .

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾هكذا مباشرة، يريدهم أن يستشعروا خطر الأمر وشدته، إنهم شركاء فيه، نعم أنتم الآن في رخاء إنما بعدها سنون شدة، الذي يريد الصلاح العام لا يعرف المجاملة ولا النفاق إنما يعتمد على الصراحة والصدق كي يصبح الكل في المسئولية شركاء .

﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴾ الذي ستقدمونه في الرخاء ستجنون ثماره في الشدة. إن الشدائد لن تخطئ أحدًا، وإنّ خير ما تلقى به الشدائد معرفة الله في الرخاء، ليس فيما ينصلح به أمر دنياك فحسب بل حتى في صلاح أمر دينك، قال رسول الله ﷺ (مَن سرَّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء)[1] .

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ سبع شداد لكنها مشمولة بلطف الله، فما جاءت الشِّدة إلا وقد سبقتها سنوات خير ورزق وفير، وما جاءت الشِّدة إلا وجاءتهم رؤيا الملك وتأويل يوسف عليه السلام .

(١) صحيح الجامع (٦٢٩٠) ورواه الترمذي والحاكم، وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ﴾عام واحد يمحو الله به قسوة سبع سنين، هكذا هو عطاء الله.

﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾تأتي المنح بعد المحن، ويأتي اليسر بعد العُسر، ويأتي الفرج بعد بلوغ الشدة أقصى درجاتها، أيًّا كان الضيق الذي يحيط بأسوار حياتك ستجد رحمات الله تتسلل إليك لتربط على قلبك فلا يجزع، تربط على قلبك فلا يقنط.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٠-٥٥]

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ربما جذب انتباهه دقة التأويل وغرابته، وربما أراد أن يستوثق من التأويل بنفسه فيسمعه مباشرة، وفي كلا الأمرين نرى انبهار الملك ولهفة اللقاء بصاحب التأويل، العلم دائمًا يرفع من شأن صاحبه، العلم دائمًا يضع صاحبه في المكان والمكانة التي تليق به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ﴾قالها يوسف عليه السلام لرسول الملك حين جاءه ليُخرجه، وقد قال أول الأمر لصاحبه بالسجن﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾لم يعد يتعجل الخروج فالشدائد تبدأ قوية الأثر في النفس لكنها تلين مع الوقت، حتى نظرتنا للأمور يُغيرها الزمان.

﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دعاه الملك إلى مجلسه فأبى قبل أن تَثبُت براءته، ليست كل الدعوات تُقبل ويستأنس بها، فالشدة مع الثبات خير من الرخاء مع التنازلات.

﴿ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يقولها سجين لرسول ملك يحكم الدولة، لم يتعجل الخروج من السجن قبل أن تظهر براءته مما رُمي به، يريد أن يخرج بلا شائبة تنال منه، بلا نظرة لنفس ضعيفة تنتقص منه، يريد أن يخرج حرًّا عزيزًا، لذا أبى الخروج حتى تُقِرَّ النسوة بما سمعن من امرأة العزيز، إنه يعفو ويسامح لكنه عزيز النفس يأبى خروجًا به نقيصة إنما يريد خروجًا كله عزة ورِفعة .

﴿ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أثنى النبي ﷺ على شدة صبر يوسف ﵇ وعدم تعجله الخروج من السجن بعدما جاءه رسول الملك فقال ﷺ « رَحِمَ اللهُ أخي يُوسُفَ لو أنَا أتاني الرسولُ بعدَ طُولِ الحَبْسِ لَأسرعتُ الإجابةَ حِينَ قال : ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ»[1]

﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ ﴾عِفة الألفاظ لم تغب عن منطقه، لم يذكر تفاصيل كيد امرأة العزيز له، لم يذكر كيد نسوة المدينة له، إنما ذكر ما يدفع الملك لتقصي الأمر برمته حين يسمع أن نسوة قطعن أيديهن، أتى بغريب الخبر ليحرك الفضول لديه في البحث والتقصي .

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ أخذ تفسير الرؤيا من نفس الملك كل مأخذ، لذا تابع أمر تقصي الحقيقة بنفسه، ولم يَكلها لأي من أتباعه، ونرى هذا في لغة الحوار والحديث عن يوسف ﵇ وهو لا يزال سجينًا﴿مَا خَطۡبُكُنَّ ﴾ ماذا صنعتن بهذا الكريم العفيف؟﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾هكذا يقولها الملك مباشرة، ليس تلميحًا بل تصريحًا ، وما كان ليقولها هكذا مباشرة إلا وقد استوثق قبلها من صِدق براءته، من كيدهن به، من سوء استغلال للسطلة من العزيز الذي ألقاه في السجن ظلمًا ليرُضي زوجته .

---

١ صحيح الجامع ٣٤٩١ وقال الألباني حديث صحيح

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ نسوة المدينة يتحدثن الآن عن عفته وطهره وبراءته، بعض النفوس لا يردعها سيف العقل والعدل، إنما يردعها سيف القوة والسلطان ، ففي حضور الملك كل الأحاديث تغيرت، أصبحن يدافعن عمن مُكر به وأُلقي ظلمًا في السجن بضع سنين.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ حتى من بدأت بإشعال نار المكيدة تخلت عن كيدها ومكرها، تخلت ربما بوازع الضمير وربما بوازع السلطان وهيبة الحضور وأن لا جدوى لمزيد من الإنكار، كلاهما وارد، لذا لم تجد بدًّا من الاعتراف بخطئها، بظلمها له، ولا أدري إن كان بوازع الضمير فأين كان طوال سنوات سجنه؟ بعض الحقائق يأبى الله إلا أن تظهر على أعين الناس لينصف بها مظلومًا قد دعا في ظلمات ليل طويل أمضاه في سجنه ظلمًا .

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يا لروعة الوصف، ويا لثمار العفة، إنه من الصادقين تُعلنها بكل وضوح، بلا تلميح أو تورية، تُعلنها على مسامع الملك وحاشية الملك ونسوة المدينة، إنه من الصادقين ، وكأني بالملك قد هاله ما يسمعه، أي شخص هذا الذي تحمّل كل هذا الكيد والظلم وهو مَن هو في العلم والفضل؟

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ لابد للحقيقة أن تنكشف وإن طال زمان كتمانها، لقد استسلمت امرأة العزيز لذا لم تجد بدًّا من الاسترسال بالحديث عن الإقرار بالخطأ والتقصير، لقد استسلمت لّما رأت علو شأن يوسف عليه السلام حتى وهو في ظلمات السجن ينتفض لنصرته ملك الدولة وحاشيته ، أيقنت أنها لم تتهم شخصًا عاديًا إنما رجل جنّد الله لنصرته حتى الملك .

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ من الذي يَعلم ؟ زوجها أم يوسف عليه السلام ؟ كلاهما يقبله المعنى، قد تقصد زوجها الذي بحكم منصبه اطلع على تفاصيل تقصي الملك للحقيقة، وقد تقصد يوسف عليه السلام وقد غلبها صدق مشاعرها تجاهه فدفعها لأن تنصفه وتخطّئ نفسها أمام الملك.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال ابن تيمية: " فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف عليه السلام إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته - كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته - فحينئذ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إقرار تام بالخطأ، لا ادعاء بسلامة النفس من حظوظ الهوى والشهوة، فالنفوس التي تغلبها الشهوة لا تستقيم معها الحياة، سلطان الشهوة يأخذ بلجام عقل صاحبه إلى مزيد من الانحطاط في الخُلق.

بهذه الكلمات انتهى مشهد امرأة العزيز في أحداث القصة التي رُويت، أما قصتها فكأنما تستنطقنا لنخبر كل ظالم أن الله ليس بغافل عنه، ولنخبر كل عاص أن هناك دائمًا فرصة للرجوع، للتغيير، للتطهر .

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ في البداية بعدما سمع تأويله للرؤيا قال ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾ وبعدما عرف تفاصيل القصة وعَلِم فضله زاد عليها ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أستخلصه ليس لعلمه فقط، إنما لسمو أخلاقه، فسنوات العمر التي ضاعت في غيابات السجن لم تغير في رقي أخلاقه شيئًا، لا مكان لرغبة في انتقام، لا مكان لثأر ولا سخط ولا تذمر، بل فوق كل ذلك يُقدم الرأي والمشورة لإنقاذ المجتمع بكامله، حين يكون البناء النفسي سليمًا من الحقائد تأتي الأفعال دائمًا منزهة عن كل صور النقائص.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ من غيابات الجُب في صحراء قاحلة إلى قصر الملك في دولة ضاربة في أعماق التاريخ قوة وحضارة، مهما فقدت في الحياة فلا تفقد حُسن الظن بالله. فمما يُعين المرء على تجاوز صعاب الحياة هو التفكير في أنها إرادة الله، واختيار الله، وأقدار الله التي دائمًا ما تأتي مشمولة باللطف، وأن الله إذا كلّفك كفلك، وإذا ابتلاك أعانك، ولن يُكلفك إلا قدر طاقتك.

﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾إنـك مـن اليـوم لدينـا مكـين ذو مكانـة ومنزلـة ، وأمـين عـلى خزائـن الأرض تكـون تحـت تصرفـك .

﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾قـال الزمخـشري في تفسـيره: « وإنـما قـال ذلـك ليتوصـل إلى إمضـاء أحـكام الله تعـالى وإقامـة الحـق وبسـط العـدل ، والتمكـن ممـا لأجلـه تُبعـث الأنبيـاء إلى العبـاد ، ولعلمـه أنّ أحـداً غـيره لا يقـوم مقامـه في ذلـك ، فطلـب التوليـة ابتغـاء وجـه الله لا لحـب المُلـك والدنيـا» [1]

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾حفيـظ عـلى المـال، عليـم بوجـوه مصالحـه، حفيـظ أحفـظ الحقـوق وأرعاهـا، عليـم أُحسـن التـصرف فيـما تقتضيـه المصلحـة، ليـس الأمانة فحسـب، إنـما أيضًا معرفـة ودرايـة وخـبرة في التـصرف، خاطـرة إلى كل صاحـب عمـل، الاختيـار بالأمانـة دون الخـبرة ضيـاع للعمـل، والاختيـار بالخـبرة دون الأمانـة ضيـاع للحقـوق، فالتوجيـه القـرآني هنـا يقـوم عـلى ضابطـين (الأمانـة) كضابـط أخلاقـي، و(العلـم) كضابـط معـرفي.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ليـس بالنسـب وهـو سـليل بيـت النبـوة، ولا بالجـمال وقـد أوتي شـطره، إنـما بالأمانـة والمعرفـة، مسـاكين هـم مـن يعتقـدون أن المجـد يرثـه المـرء كـما يـرث ثيـاب أبيـه ، أو أنـه قـد ينالـه بالمظاهـر الخادعـة .

قال تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾[يوسف:٥٦-٥٧]

﴿ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾انظـر أيـن مكانهـا في تتابـع الأحـداث، في المنتصـف بـين الابتـلاءات والعطـاءات، وإن كانـت عطـاءات الله لم تنقطـع، لكنهـا هنـا مبـاشرة قويـة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾مكنـا لـه بعـد السـجن أن يصـير عزيـز مـصر، وحـين نتابـع العـرض القـرآني لتتابـع الأحـداث نجـد أن القـرآن يريـد مـن الفـرد المؤمـن أن يرتقـي إلى مسـتوى تحقيـق العبوديـة الحقـة لله، أن يرتقـي إلى مسـتوى حُسـن الظـن بـالله، أن يرتقـي إلى مستوى تطويـع أقوالـه وأفعالـه إلى مـراد الله. إلى ذاك المسـتوى الـذي يكـون مقياسـك للأمـور ثابتًـا لا تغـيره النـوازل سـواء اِتَّفَقَـتْ مـع مـرادك أم لا .

---

١ الكشاف: ١٨٤/٣

المشهد الرابع «مع إخوته من جديد »

قـال تعـالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾

[يوسف:٥٨-٦٢]

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ إخوته من جديد، بدأت القصة معهم وتُخْتَمُ أحداثها معهم، قد يَسْلم المرء من مخاطر كبيرة يقابلها، وتقصِمه يدٌ كان من الأجدر أن يتقوى بها.

﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ عرفهم بمجرد أن رآهم، إنهم إخوته وهو الغريب عن أهله، فالغريب يتمسك برصيده من الذكريات كما لو أن فيها بقاءه، وهؤلاء إخوته الذين أساءوا إليه في صغره، بعض المواقف لا تمحى من الذاكرة ولا تمحى صورة صانعيها .

﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لم يُظهِر معرفته بهم، من سلامة الصدر أن يتصرف المرء بتجاهل ليبقي ودًّا، ليفتح بابًا للصلح ، ليطوي صفحة الماضي، ليبقي على أواصر الأخوة رغم كل ما صنعوه، هكذا هي أخلاق الأنبياء لا مكان لحقد أو كراهية في قلوبهم .

﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ بعض العلاقات لا يضعفها الزمان، ولا يئدها الخذلان، عزيز مصر يرق قلبه، يحن للماضي، لإخوته، لأبيه، لموطنه ، من أراد القُرب لم يعدم الحيلة ، ومن أراد البُعد لن يعدم السبب.

﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ يتودد بلطف العبارة، يأتيهم من حيث يعلم أنه سيصلح معهم، بلادهم في ضيق من العيش، في زمان مجاعة، يُرغِّبُهم في العودة إليه من جديد ﴿أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ يعلم جيدًا ما يشغلهم ، ما يستميلهم .

﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ يريد يوسف عليه السلام أن يأنس بأخيه، رغم أن في فراقه لأبيه لوعة جديدة ليعقوب عليه السلام، وكأن الابتلاء قد وصل إلى ذروته في حياة نبي الله يعقوب عليه السلام ليأتي بعده الفرج من كل صوب .

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾شيء من الحزم بعد اللين، ومن الشدة بعد اللطف ، يستخدم كل وسيلة يضمن بها عودتهم، إن أردتم كيلًا وفيرًا فأقبلوا علي بأخيكم من أبيكم، أما إن تمنَّعتم فلا تقربوا؛ فلن تجدوا ما يَسُر كم عند قدومكم.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾الحاجة تكسر النفس وتُفقِد المرء عزة نفسه ، ليس في الأشخاص وحسب إنما حتى في الأمم، من فقد قوته فقد قراره وسيادته. إذا أردت السلامة فاستغنِ عمّا في أيدي الناس.

قال حاتم الأصم ـ لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ قال: «أن يكون شيئك لهم مبذولاً وتكون من شيئهم آيسًا» .

إن تعادلت حاجتك للناس وحاجتهم لك تساويتم كالمتبايعين(البائع والمشتري) ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك والعكس.

﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أحسَنَ إليهم ورغبهم كثيرًا فجاء الرد ممتلئًا بالحماس، ووعْد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم رغم علمهم بصعُوبة ذلك؛ لذا قالوا﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ يعلمون صعوبة هذا الطلب على أبيهم ، ثم أظهروا حرصهم فقالوا﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لفاعلون ما قلنا لك إننا سنفعله من مراودة أبينا عن أخينا ولنجتهدنَّ في ذلك.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ اجعلوا أثمان الطعام التي أخذتموها منهم في رحالهم، وربما قصد بفعله هذا ضمان عودتهم، لعلمه أنها كانت سنة جَدْب وقَحْط فخشي ألا يكون لديهم مال يعودون به إليه لطلب الطعام ، أو لعلمه أنهم إذا وجدوا في رحالهم ثمن طعام قد أخذوه تحرّجوا من إمساكه فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة إليه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف:٦٣-٦٥]

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾يُقدِّمون الضرر الذي لم يقع بعد ليستعطفوا قلبه على طلبهم قبل أن يطلبوه .

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾الحديث الآن عن ابنه الثاني، قد سمع يعقوب عليه السلام هذا الطلب من قبل في حق يوسف عليه السلام ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾فأرسله ولم يعد ، وكأن السنوات قد طويت في ذاكرته حينما سمعه مرة ثانية، لذا كان الرد مباشرًا قويًا مليئًا بالذكريات مصحوبًا برائحة يوسف عليه السلام.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾صعب هو الفراق، يأبى العقل والقلب نسيانه ، كأنما يستجدي المواقف والكلمات ليعيد تذكُّرَه من جديد .

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾الغاية من اصطحاب أخيهم هي طلب الكيل، أحسن يوسف عليه السلام فهم غايتهم لذا رغبهم فيها مباشرة ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾الثقة لا تُمنَح هباءً ولا تُسلب هباءً، إنما تمنح بالمواقف وتُسلب بالخذلان؛ لذا حين يفقد المرء الثقة في شخص فإنها لا تعود أبدًا كما كانت وإن اجتهد

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾يذكر من كان عزيزًا في أهله فضيعوه بظنونهم، والآن يطلبون الأخ الثاني، أبقي في العُمر بقية لبكاء على فقد جديد ؟ إنه يعاتب عتاب الأب الذي لا حيلة له، قد نرى في الحياة أبًا يوصي ابنًا له بأخيه، لكن إن كان الخطر من الإخوة فكيف يكون حال الأب ؟

﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾إذا تتابعت المصائب بالحياة ليكن بث الشكوى إلى الله، ليكن اليقين في معية الله، في أمان الله .

في المرة الأولى﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾استعرض مخاوفه على أسماعهم.

وفي الثانية﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾ الله من يحفظ، لن يحفظك المنصب ولا المال، لن يحفظك الاحتياط ولا الحرص ولا التدبير، نأخذ بالأسباب ويبقى في القلب يقين ألا حفظ يعادل حفظ الله.

﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾حين نتعامل مع المواقف بنظراتنا الضيقة المحدودة نحصر رحمة الله في مرض برئنا منه، في عمل حصلنا عليه، في غائب عاد إلينا، نراها في صور مقيدة محدودة، لكن كل محاولاتنا لحصر صورها دائمًا ما تبوء بالفشل حين يأتي لطف الله من بعيد ليغمرنا بعدما انقطعت كل الأسباب. قد تضيق بنا سُبل الحياة وتتحول طموحاتنا إلى أمنيات يصعب تحقيقها فإذا برحمة الله تنتشلنا من أعماق المصائب إلى سعة الفرج.

﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ما حدث ليوسف عليه السلام قد مضى بلطف الله، ولو تكرر مع واحد من عامة الناس لكان حكمه الأول عنه أنه ضيق وشدة وبلاء لا مخرج منه، ولو استعرض حياته بعدما نجّاه الله من كل هذا حينها فقط سيعلم أن رحمة الله لا تُرى من زاوية محدودة ضيقة بل عندما نستعرض الصورة كاملة لنفهم حقيقة رحمة الله ولطفه الذي يشملنا .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾ فتحوا متاعهم الذي حملوه من مصر فوجدوا ثمن الطعام الذي اكتالوه منه ، قد رُدّ إليهم.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ ﴾ماذا نطلب أكثر من هذا؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ! تطييبًا منهم لنفسه بما صُنع بهم في ردِّ بضاعتهم إليهم، في محاولة لإقناعه إرسال أخيهم معهم.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾نطلب لأهلنا طعامًا فنشتريه لهم، ونحفظ أخانا مما نخاف عليه . يعملون سبب رفضه فيحاولون جاهدين في إقناعه ألا يخشى عليه الفقد.

﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ كان لكل رجل منهم حمل بعير فقالوا: أرسل معنا أخانا نزداد حمل بعير زيادة على أحمالنا، فهي زيادة لا مؤنة فيها ولا مشقة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ يوسف [٦٦-٦٩]

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾يطلب العهد والميثاق منهم بأن يحفظوا أخاهم، لعل العهد يردعهم إن حدَّثتهم أنفسهم من جديد، ومع كل مواقفهم يلتمس لهم العذر من جديد ، ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾إلا أن يحدث أمر خارج عن إرادتكم ففي حينها لن يكون التقصير منكم .

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ حينما نجرب على امرئ خيانة فإن من الفطنة ألا نأمن له إلا بشيء من الحرص، هكذا هي تجارب الحياة تُعلمنا ألا نكرر نفس أخطائنا ونعود لنلوم أنفسنا .

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾لم يضمروا الشر لذا أعطوه العهود والمواثيق، فأخبرهم أن الله هو الشاهد المطلع على عهدهم ، ألا تكيدوا لأخيكم بعد العهد والميثاق﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ تكفينا شهادته علينا وحفظه لنا.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾عاطفة الأب تغلب مواقفهم النكراء، عاطفة الأب نراها في كل مشهد أقوى من تأثير خذلانهم ، لا تدخلوا من باب واحد، يأخذ بالأسباب حتى المنتهى، قد يكون خشية عليهم من الحسد، وقد يكون خوفًا من أن يتعطل أحدهم فيعلق البقية بجواره ويتأخرون في قضاء ما هم بشأنه ، وقد يكون حرصًا عليهم من الرصد، فلم يمر أمر اجتماعهم بالعزيز على يعقوب عليه السلام مرور الكرام؟ أيقابل عزيز مصر كل وافد عليه؟ أيلتقي بكل من يأتي ليطلب الكيل؟ ربما استشعر بغموض في الأمر لذا نصحهم باتخاذ الحيطة والمبالغة في الحرص .

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أقدار الله لا يمنعها شيء، فالمُقدّر كائن والحذر لا يمنع القدر، والناس قد انقسموا في فهمهم للتوكل بين طرفين ووسط، فأحد الطرفين عطّل الأسباب محافظة على التوكل، والطرف الثاني عطّل التوكل محافظة على الأسباب، والوسط عَلِمَ أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بالأسباب فأخذ بها لكنه لم يعلق نجاحه أو فشله عليها.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ فهو ينصح ويوجه ويعلم أن نصحه لهم من صِدق التوكل على الله، إنه لن يمنع بنصحه شيئًا هو في قدر الله كائن، لكنه يعلم أن التوكل الصادق قلب يتعلق بالله وجوارح تأخذ بالأسباب، إننا بشر وما أكثر مخاوفنا رغم يقيننا القلبي أنه لا شيء كائن في مُلك الله إلا بمراد الله، ومع ذلك نجزع بطبيعتنا البشرية ونلتمس الأمان ولو بكلمة تُسكن في قلوبنا راحة نفسية ولو مؤقتة.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ بعض الصعاب نتوقف عندها حيارى ، تغلق أمامنا كل الأبواب ، نفقد كل أسباب النجاة، لكننا ننجو، ننجو بلطف من الله ليستقر في القلب يقين أن تفويض أمرك لله لا يمكن أن يضيع هباءً.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جماعة من الناس لا عمل لهم فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. فقال: "بل أنتم المتَّكلون، إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض، ويتوكل على الله". المتَّكلون أي من يتكلون على أموال الناس وعطائهم .

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ جميل هو البر، لا أحد سيئ بالجملة، الخير بداخل كل نفس، الخطأ وارد، التقصير وارد، فالإنسان محل الجهل والضعف والنسيان.

في الحديث أن النبي ﷺ قال « إنَّ المؤمنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا ، توَّابًا ، نَسِيًّا ، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ »[1] قال المناوي: (مفتَّنا) أي ممتحنًا يمتحنه الله بالبلاء والذنوب مرة بعد أخرى، (توَّابًا نَسِيًّا ، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ) أي: يتوب ثم ينسى، فيعود ، ثم يتذكر فيتوب، هكذا يُقال فَتَنَه يَفتِنُه إذا امتحنه.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ للوالدين نظرة للأمور قد لا يفهمها الأبناء، وقد يصعب على الأب شرحها كما يراها، فمن جميل البر أن تقضي حاجة والديك إن كانت في استطاعتك حتى لو لم تفهم العِلة منها .

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ بعاطفة الأب ينصح، رغم كبر أعمارهم رغم أخطائهم المتكررة ، رغم القسوة التي بدرت منهم، لكنه لم يكف عن النصح، لا يزال يسبق باللطف والكلمة الطيبة لعلها ترقق القلوب، خاطرة لكل أب أن لوقع الكلمة في قلب الابن أثرًا كبيرًا، حتى لو كان طاعِنًا في السن.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ أوى أخاه دونهم ،أوى أصغرهم، من لم يشترك في كيدهم، رسالة إلى كل حاسد، إلى كل حاقد، تُخطط وتدبر ويُذهِب الله تدبيرك بتدبيره، يُذهب الله كيدك بلطفه .

---

١) صحيح الجامع (٥٧٣٥) وقال الألباني صحيح

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فلا تبتئس بسوء معاملتهم لك، ولا بمكرهم، باعتقادهم أن كل ما فعلوه ويفعلونه هو من البر بأبيهم. لا تبتئس بأوهام من يعتقد أنه على الصواب دائمًا وكل من دونه على خطأ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾

يوسف [٧٠-٧٦]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ كلهم إخوته، لكنه جعلها في رحل بنْيامين، وهو الأخ الشقيق الوحيد ليوسف عليه السلام، وأمَّا بقيَّة إخوته فهم إخوةٌ لأب؛ أي إنَّهم إخوته من أبيه فقط. ولم يكن بنْيامين معهم في تخطيطهم للكيد بيوسف عليه السلام في صغره، لذا جعل السقاية في رحله يريد أن يبقيه معه .

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ اتهام مباشر قبل أن يتحروا ويثبتوا صدقه، لذا جاء الجواب متأدبًا ليس من صنف السؤال، لم يجيبوا (ماذا سرقنا) إنما أجابوا ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾.

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ غاية أي حوار هو تحقيق التفاهم بين الطرفين، فإذا غاب هذا التفاهم كان على أحد الطرفين أن يطلب توضيحًا أكثر، فالسؤال عادة من شأنه أن يزيل الغموض، ويسلط الضوء على الجانب الغامض في الحوار.

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾الصواع هو ما يكال به عمومًا، وهو إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، كان الملك يشرب به وكان يُستعمل صواعًا للكيل ، فقد كانوا يكيلون للناس به من قلة الطعام إذ ذاك. ثم نسبه إلى الملك لبيان أهميته﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾فهو ليس مجرد صواع عادي ولو كان عاديًا لأتينا بغيره .

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ زعيم أي كفيل، أكفل لكم تحقيق هذا الوعد إنه من جاءنا بصواع الملك فله حمل بعير من الطعام، وأنا كفيل بذلك حتى أؤديه إليه. والقائل هنا هو المؤذن وليس يوسف ﴿ع﴾، لكنه يتحدث نيابة عنه .

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾كيف كان علمهم؟ قيل أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأَكِمَّة لئلا تعيث في زروع الناس. وقيل أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم؛ أي فمن ردَّ ما وجد فكيف يكون سارقًا؟!

﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾كل معصية هي إفساد في الأرض، وبقدر انتشار المعاصي يكون انتشار الفساد ، وقد ارتبط مصطلح الفساد بكلمة الأرض في معظم الآيات، فقد وردت كلمة الفساد بمشتقاتها خمسين مرة في القرآن، جاءت بمعنى الكفر واختلال العلاقة مع الله سبحانه في عشر آيات، بينما ورد الفساد في الأرض في أربعين آية كلها تحذر من سفك الدماء ونهب الأموال وإيذاء الغير بأي طريقة كانت.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ رغم النفسية المشحونة بالحسد والكراهية التي رأيناها في تصرفاتهم إلا أن شيئًا من تربية النبوة قد بقي بداخلهم، إنهم يترفعون عن السرقة كمعصية.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾رتَّب يوسف ﴿ع﴾الأمر ولم يبق إلا الحُكم، إن وجدوا صواع الملك فإلى أي حكم يحتكمون؟ هنا كان تدبير الله للأمور أن ألهم يوسف ﴿ع﴾أن يستنطقهم بالحكم قبل أن يبدأ بالتفتيش في رحالهم

فقيل لهم على شكل تساؤل ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾والقوم على ثقة من أمرهم أنهم ليسوا ممن يسرق، فقالوا إن الحكم عندنا أن جزاء السارق الاسترقاق ، وهذا معناه أن يحتفظ يوسف عليه السلام بأخيه حينما يجد الصاع في رحله وهذا الذي أسماه الله كيدًا فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي دبرنا له الأمر ليجري وفق ما كان يتمنى، فقد كان يتمنى بقاء أخيه معه دون بقية إخوته.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بعض الأمور لا يحسن معها أسلوب المفاجأة والصدمة وإنما يحسن معها التمهيد، يعلم مسبقًا أن الصواع في رحل أخيه لكنه أرجأه وبدأ بأمتعتهم هم أولًا قبل متاع أخيه ، ولعل هذا هو الذي قادهم للقول فيما بعد ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾أخ له، على الرغم من أنه أخوهم فهم يرون أنفسهم عُصبة دونه، وتفتيش متاع عصبتهم لم يفض إلى شيء، لم يجدوا الصواع في متاعهم فعادت نظرتهم لأنفسهم أنهم الأتقى والأصلح، وهذا الذي وجدتم متاعكم عنده خارج عصبتنا لا ينتمي لها لذا قالوا ﴿ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ﴾

﴿ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ دين الملك أي طاعته، فإنما أخذ أخاه على حكمهم في السرقة أن من سرق يصير عبدًا ، فالاسترقاق جزاء السارق في دينهم، أما في دين ملك مصر فكان أن يَغْرَمَ مِثْلَيْ ما أخَذَ، فأخذ أخاه في طاعة الملك وفقًا لحكمهم هم على أنفسهم قبل أن يُفتش أمتعتهم إذ إنه ليس في شريعة الملك أن يؤخذ السارق بسرقته.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ هكذا هو تدبير الله لعبده ، فلم يتمكن يوسف عليه السلام من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كدنا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك فكان أخذه لأخيه من بينهم ليس في ظاهره ظلم لهم إذ إنهم قالوا أولًا ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ يرفـع درجـات مـن يشـاء بالعلـم كـما رفـع درجـة يوسـف عليه السلام عـلى إخوتـه.

دخـل الحسـن بـن الفضـل عـلى أحـد الخلفـاء، وعنـده كثـيرٌ مـن أهـل العلـم، فأحـبَّ الحسـن أن يتكلَّـم، فزجـره، وقـال: يـا صبـي تتكلَّـم في هـذا المقـام؟ فقـال: يـا أمـير المؤمنـين، إن كنـت صبيًّـا، فلسـت بأصغـر مـن هدهـد سـليمان عليه السلام، ولا أنـت بأكـبر مـن سـليمان عليه السلام حـين قـال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ (١) ثـمَّ قـال: ألم تـر أنَّ الله فهَّـم الحُكْـم سـليمان عليه السلام، ولـو كان الأمـر بالكِـبَر لـكان داود عليه السلام أولى. ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ (٢)

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ آيـة تكـسر غـرور البـشر، تكـسر كل زهـو بالعلـم، كل اجـتراء قـاد عالمًـا في مجـال مـن مجـالات المعرفـة أنـه قـد ألمّ بـكل سـوابره، وإننـي أكتـب هـذه الكلـمات وقـد انتـشر فـيروس لا يُـرى بالعـين المجـردة فعطَّـل كل أوجـه الحيـاة عـلى وجـه الأرض، وأيقـن علماؤهـا في كل صنـوف المعرفـة أنهـم لم ينالـوا مـن العلـم شـيئًا يذكـر لتسـتحضر القلـوب والعقـول معنـى قـول الله تعـالى ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ فـوق كل عـالم هنـاك مـن هـو أعلـم منـه، حتـى ينتهـي ذلـك إلى الله العليـم فعلمـه فـوق كل أحـد.

قـال تعـالى ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ يوسـف [٧٧-٨٠]

---

١ النمل [٢٢]

٢ الأنبياء [٧٦]

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ بعض المشاعر لا تُنسى، إنهم حتى هذه اللحظة يتذكرون يوسف عليه السلام ويحملون مشاعر الحقد نفسها التي قادتهم لحماقتهم وهو صغير، السنون لم تنسهم بغضهم له، لذا ما إن وجدوا فرصة يعبرون فيها عن كرههم له لم يترددوا في انتهازها، ما ليوسف عليه السلام ولهذا المشهد؟

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ قالوها ولم يعلموا أنهم في حضرة يوسف عليه السلام، بعض الابتلاءات تأتي على شكل كلمات من أشخاص كنت تظن أن الأيام قومت اعوجاجهم وردتهم إلى رشدهم فإذا بك تُفاجأ أنها لم تزدهم إلا حِدة وغِلظة.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ أطلقوا الحُكم سريعًا، لم يمنح أحدهم نفسه فرصة للتفكير، لإنصاف أخيه، لم يكلف أحد منهم نفسه تذكُّر كيف رُدت إليهم بضاعتهم أول مرة ولم يكونوا هم واضعيها؟ حين يكون سوء الظن غالبًا يأبى العقل الإنصاف ولو بفكرة تجول في الخاطر.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ ربما عالجت الأيام صنيعهم به، لكن ها هي كلماتهم تدمي القلب فأبى يوسف عليه السلام حتى مجرد الرد، لذا اختار أن يكتمها ويردد: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ أسرها في وقتها ثم أراد الله لصنيعه الخُلد فذكرها في كتابه لنعلم أن صنائع المعروف ــ وإن كانت بكتمان وجع ــ عند الله لا تضيع.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ أسرها في نفسه ولم يرد عليهم، اختار التغاضي لحفظ شيء من المودة في القلب ليرى ثماره بعد اللقاء، لم يقطع الود رغم كل القسوة التي عاملوه بها.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ تغاضى نبي الله عن كلامهم ولم يرد عليه وهو يخصه، وأحدنا يأبى التغاضي عن حديث قد لا يخصه، يعتقد أن عليه أن يكون له رد على كل قول، رأي في كل مسألة، مكان في كل معضلة خلافية، بينما نبي الله يُعلمنا أن قيمة المرء قد تكون فيما يترك لا فيما يأخذ، فيما يصمت عنه لا فيما يقوله.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾تغاضى عن العتاب لأنه لن يغير من واقع الأمر شيئًا، ولو كان في العتاب خير ما أسرها في نفسه .

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ إذا آذتك ظنون الخلق فلا تنشغل بالرد عليها، الله مُطلع على قلبك ، يعلم سرائر نفسك، ردد في أعماق قلبك﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وامض في حياتك غير آبه بما يقولون.

﴿ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ الآن تذكرون وجع قلب الشيخ الكبير! همسة في أذن كل قاسٍ، ارفق فالقلوب تئن، حتى قلوب الأنبياء قد آلمها الفراق، آلمتها الكلمة الجارحة، فكيف بقلوب من دونهم؟

﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إنه وقار الإيمان يستأنس به كل من يراه أو يتعامل معه، فالقلوب قد جُبلت على الميل إلى من يرفق بها ويحسن إليها، فهؤلاء مع كل القسوة التي في قلوبهم ناحية أخيهم لم يروا منه إلا اللطف الذي أطمعهم في أن يطلبوا منه أن يتجاوز عن أخيهم فلا يأخذه .

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لم يقل من سرق صواع الملك، إنما تعفف وتأدب في اختيار الألفاظ حتى لا يؤذي سماع أخيه أن يُقال عنه سارق على رؤوس الخلائق وهو ليس بسارق، ما أروع الأدب النبوي الذي يحفظ الكرامة حتى في اللفظ العابر.

﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ يُحدثهم بالألفاظ التي من المفترض أنهم يفهمون دلالاتها، إنهم أبناء نبي كريم ويعلمون الظلم وعاقبته، لقد فعل كل شيء يخبرهم أنه يوسف دون أن ينطق بها، رغم ذلك لم يفكروا للحظة في أنه يوسف إلا حينما نطقها مباشرة.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ ليس يأسًا، إنما استيآس، مبالغة في انقطاع الأسباب التي تنجي أخاهم من مصير محتوم في نظرهم.

﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ خلصوا أي انفردوا عن غيرهم واعتزلوا الناس واجتمعوا في جلسة خاصة، نجيًّا أي متناجين متشاورين فيما يقولونه لأبيهم في شأن أخيهم.

﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ اجتمعت عصبتهم مرة أخرى، ليروا ماذا يصنعون ؟ليس لنجاة أخيهم لكونه أخاهم، إنما فيما سيقولونه لأبيهم عن فقده، شيء يحار منه العقل، هذا البر المتناهي لأبيهم لم يشمل يوسف عليه السلام وأخاه ولو باللفظ ؟ أيمكن أن ترق القلوب في جانب وتقسو في آخر ؟

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا ما كان يشغلهم في المقام الأول، ماذا سيقولون لأبيهم ؟

﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ﴾ الآن جاء ذكر يوسف عليه السلام في حديثهم لما تشابهت الأحداث، أحداث فقد الإخوة لا أسباب الفقد، وربما هذا ما أوجع الأخ الكبير، المرة الأولى كنا صغارًا ، استسلمنا لشهوة النفس باستئثار وجه أبينا دون يوسف وأخيه، أما الآن فبأي وجه سنقابل أبانا وقد فرطنا في أخ آخر؟

﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ حَكَمَ الأخ الأكبر على نفسه، أن ارجعوا لأبيكم فقصوا عليه ما حدث، أما أنا فلا أقوى على العودة للنظر في وجهه حين يعرف هذا الخبر، لعل هذه الرقة بأبيه وصدق البر به هي التي خلدت مقولته في هذا الموقف دون بقية الأخوة، فمثل هذه الأمور بالطبع كان لكل منهم قول ورأي، لكن القرآن قد خلَّد قول هذا دون غيره لنعلم أن ما عند الله لا يضيع وإن كانت جملة عابرة تقصد بها وجه الله فسوف تُجزى عليها.

قال تعالى :﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ يوسف [٨١-٨٤]

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ ارجعوا فأخبروه بما حدث دون زيادة أو نقصان.

﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ من السلامة ألا يخوض المرء فيما لا يعرف أسبابه، أن ينقل ما رأى حين يُطلب منه لا يتفضل به، ألا يترك العنان للسانه ليُحمِّل الكلمات فوق معانيها، والمواقف فوق مدلولاتها .

﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ لله دَرُّ قلب يعقوب عليه السلام! نبي كريم ويسمع هذا الاتهام في ابنه الذي يحبه ويأنس به.

﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ لا تزال ألفاظهم تحمل غلظة لا تفارقها في أغلب أحاديثهم، فحين كانت لهم حاجة في إرساله معهم قالوا: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ وحين وجدوا فرصة النيل منه لمكانته في قلب أبيه قالوا ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ أفي الخير أخونا وفي الشر ابنك؟ حين تجد مراتب الناس تختلف في التصنيف وفقًا للمصلحة فاعلم أنها أحكام ليست عادلة، صادرة من قلوب تتلون .

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ مزيد من الأدلة على صدقهم، لأنهم يعلمون أنه لن يصدقهم ثانية، الثقة التي تهتز يصعب بناؤها من جديد.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ الآن صادقون ، بعدما عادوا بدون أخيهم الآخر بنيامين سردوا قرائن صدقهم وختموها بقولهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ لكن حين عادوا دون يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ الكذب يخون صاحبه في تعبيرات وجهه، في ألفاظه، الكاذب تكشفه جوارحه مهما حاول إخفاء الحقيقة .

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ نحكم على الناس من مواقفهم السابقة، لذا يصعب علينا تصديق من جربنا كذبه، كيف للمرء أن يثق فيمن جرَّب خذلانه؟

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ليس كل ما تميل إليه أنفسنا حقيقة، ففي هذه المرة قد صدقوا لكن تجاربهم مع أبيهم حالت دون أن يُصدِّقهم فأرجع غياب ابنه لمكيدة جديدة كادوها له، رصيد الذكريات يغلبنا أحيانا ، تجاربنا السابقة تقود بعض أحكامنا.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يقولها ثانية ، يفقد ابنه الثاني ويقولها بصبر المؤمن المحتسب، (فصبر جميل) صبر دون قلق، صبر بلا جزع ، فالجزع لن يغير من الواقع شيئًا لكنه يزيد المرء همًّا في دنياه .

كان رجل يطوف حول الكعبة وهو يقول: يا رب هل أنت راض عني؟ وكان يطوف وراءه الإمام الشافعي، فقال له: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ فقال له الرجل: يا سبحان الله! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟
قال الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ من علامات الصبر الجميل أن تسعى فتنجح فتحمد الله، تُبتلى فتصبر فتحمد الله، تغلبك الأيام تارة وتغلبها أخرى ولا يخرج منك إلا طيب القول وجميل الذكر ، حين يستسلم القلب والقالب لمن بيده مآلات الأمر تطيب لك الحياة. حياتنا ليست بحاجة إلى معجزة لتستقيم، إذا استقام القلب استقامت الحياة.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ كثير من الناس لا يفهم من الرزق إلا المال ولكن الرزق أوسع من ذلك، قال ابن الجوزي :«ورزق الله قد يكون بتيسير الصبر على البلاء».

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾يقولها بقلب المؤمن الذي يحسن الظن بالله، حتى وإن انقطعت الأسباب، وإن دار الزمان دورته، وإن ضعف الرجاء ، لا زال متعلقًا بأمل العودة بعد الغياب، اللقاء بعد الفراق، يوسف الذي فارقه منذ طفولته وأخوه الذي فارقه في شبابه .

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾منهج راسخ في عقيدة كل مؤمن، كل أحلامك العالقة، كل طموحاتك التي تسعى نحوها، كل أمانيك التي تراود مخيلتك، إلى كل ما يحتاج منك سعيًا ، ابذل ما في وسعك ثم ردد في يقين﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ إذا اشتد البلاء اقترب الفرج، وإذا ازداد الألم ازداد اليقين في عطاء الله وفضله

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ أدعية الأنبياء تجدها دائمًا لا سقف لها، يُحسنون الظن بعطاء الله فلا ينظرون للواقع ولا يتعلقون بالأسباب، إنما يطلبون ما هو في عُرف الناس مستحيل ولا يبالون بظنون الناس ، فنجد سليمان عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[1] و زكريا عليه السلام ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾[2]

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ بعض المشاعر تحتاج منا أن نتولى ، أن نبتعد قليلًا، أن تفيض دموعنا في انكسار بين يدي الله لا على أعين الخلائق.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ تولى بوجهه وقلبه وكل جوارحه، تولى بعدما تجددت جراح قلبه، الفقد القديم (يوسف) والفقد الجديد (بنيامين).

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ تولى لئلا يروا دموع عينه، لئلا يسمعوا أنين قلبه، لئلا يروا لحظة انكسار النفس ، صعب هو الفراق، إنه أوجاع لا تنتهي، جراح لا تبرأ، إنه شرخ في جدار القلب كلما جدَّ جديد سال الدم من الجرح القديم.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ عن أبنائه وأحفاده، فكيف بالغريب والعابر، إذا صادفت في حياتك من يتولى فلا تلمه، فقد يكون مثقلًا يؤثر الخلوة على نشر أوجاعه !

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يوسف من جديد، عِطر قلب أبيه، تجدد الحزن فتذكره من جديد، أحد عشر ابنًا غيره لم يعوضوا غيابه، يا للآباء وعطفهم، ويا للأبناء وقسوتهم .

---

١ ص [٣٥]
٢ مريم [٥]

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ما أرحم الله، يصف لنا حال يعقوب عليه السلام بعد فقد ابنيه لنعلم أن أحزاننا، همومنا، مصاعب الحياة التي تعتصرنا يعلمها الله، لنعلم أن عطاء الله قد يتأخر ليصطفي من قلوب العباد أنقاها فيقربها ويختارها.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ إذا ضاقت بك سُبل الحياة فتذكر يعقوب عليه السلام وبكاءه، كيف كان رجاؤه ودعاؤه، كيف كان حُسن ظنه الذي لم يشك في عودة يوسف عليه السلام بعد سنين لا تُعد.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم أي مهموم من شدة الحزن، اجتهد في إخفائه لكن أبت عيناه إلا أن تخبر بحاله، ليست كل الأوجاع تُكتم فبعضها يئن منها الجسد كله حتى تظهر أعراضها على الجوارح.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ابيضت عينا الأب، أما الأبناء فالأمور عندهم قد تختلف، فراق الأبناء قد لا تقوى عليه قلوب الآباء، فرفقًا بقلوبهم، فما تستره القلوب قد تكشفه العيون.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الأوجاع الدفينة بالقلوب لها الله وحده، لذا هتف يعقوب عليه السلام بما يُعبِّر عن أوجاع قلبه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ففي بعض البَوْح راحة للقلوب، إذا اشتد كرب فلا تكتمه، بل تولَّ عن الناس ثم عَبِّر عنه، فراحة القلب معقودة بنطق اللسان.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أتدري لمن حدث هذا؟ لرسول ابن رسول ابن رسول، حَزَن القلب رغم الإيمان الذي يسكنه، رغم اليقين وحُسن الظن بالله، إننا بشر ومهما تحلينا بالقوة والصلابة فإن عاصفة الألم تُدمِّر جدران قلوبنا، ولا سبيل إلا أن نتقوى عليها بما تقوّى به يعقوب عليه السلام على فراق أحبته ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ الحزن لا يُجيد الاختباء، قد يلمحه الأعمى في نبرات صوتك .

قال تعالى ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ يوسف [٨٥-٨٧]

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ هل ظل يوسف عليه السلام عالقًا في أذهانهم كما ظل في قلب أبيه؟ كانوا سبب ألمه وها هم الآن يلومونه على وجعه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ سمعوا أنين أوجاعه رغم أنه قد تولى عنهم، بعض الأوجاع تغلب كل محاولاتنا لكتمانها .

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ منذ بداية القصة وكلما جاء الحديث عن إخوة يوسف عليه السلام تقابلنا حدة الألفاظ في كل مرة، لك أن تتخيل أن هذه ألفاظ أبناء يعيبون على أبيهم تَذكُّرَه فقد أبنائه، كيف يكون شعور أب يسمع هذا الكلام من أبنائه؟ أهذا عتاب؟ أيعاتب المرء بألفاظ فيها حدة وغلظة؟ أما كان الأجدر بهم ألا ينطقوا؟ أن يتركوا الشيخ المكلوم في حزنه ونجواه، أهو بحاجة إلى ألفاظ مثل هذه؟ إن لم تكن ألفاظك سندًا لمبتلى فلا تنطقها، فالسكوت خير من حديث يؤلم .

لا تَنْهَرَنَّ غَريباً حَالَ غُربتهِ ... الدَّهْرُ يَنْهَرُهُ بالذُّلِ و المِحَنِ

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أشكو حاجتي وحزني وهمي إلى الله وحده، يا الله، أي لطف هذا الذي هَدَّأ من حِدَّة الأوجاع؟ أي يقين هذا الذي سكن القلب فبرَّد حرارة الشوق ولهفة اللقاء من جديد؟ أشكو لله لا للخلائق، ألجأ لله لا للخلائق، أبث آلامي لله لا للخلائق، الله هو الجهة والقصد.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بثي وحزني، ليست أوجاعًا عادية، إنما هي شديدة قد تمكنت من القلب فآلمته، فالحزن ما يقوى المرء على تحمله وكتمانه لكنه إذا زاد ولم يقو على كتمانه صار بثًّا، فيعقوب عليه السلام يخبرهم أنه يشكو الحزن الخفيف والهم الثقيل لله وحده لا لغيره .

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كم في البلايا من عطايا تردنا إلى الله، تأخذ بمجامع قلوبنا لمعرفة الطريق إليه، لا تزال تلك الخاطرة تقتحم حديثنا منذ بداية القصة.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يطرق الهم أبواب قلبك لأمر ضاقت به نفسك، يهتف قلبك سائلًا الله الفرج، فيُرسل الله لك لطفًا خفيًّا فتسمع آية بالصدفة كأنها تُربِّت على كتفيك، تسمع خاطرة كأنها تتحدث عنك، تقرأ عبارة كأنها تُرشدك للطريق، ترى مهمومًا لا يُعادل همك فيه شيئًا فتستصغر ما أهمك، يسوق الله لك لطفًا خفيًّا يُعالج ضيق قلبك فتحل عليه سكينة لتُكمل يومك وقد بدل الله الحال غير الحال، فقط لأن القلب هتف في صمت يسأل الله النجاة .

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مما يبث الطمأنينة في القلب اليقين بعلم الله بحالنا، بهمومنا التي نواريها عن الناس ونبثها لله ثقة ويقينًا، الأفعال والأقوال والنوايا التي أُسيء فهمنا فيها يطّلع الله على حقيقتها في قلوبنا.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الله لا إلى الخلائق، فهو العليم بما نُخفي، بما نحمل بداخلنا من أوجاع، القدير على ما نعجز، المُدَبِّر حين تتملكنا الحيرة، فإذا ما تولاك الله سخّر لك كل شيء ، ويسر لك كل أمر حتى ذاك الذي كنت تعتقد أنه مستحيل.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾كل ملجأ غير الله واهن، فلا شيء يطمئن القلب بقدر التعلق بالله، واستشعار وجوده ، وأنه يهب لك من الأرزاق ما يليق بك، ويمنع عنك من الأرزاق ما في وجوده ضرر لك، يعلم صدق نواياك فيكافئك عليها ، لا شيء يعينك على فواجع الحياة إلا يقين في قلبك بلطف الله وعوضه.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ آية تُربِّت على كتف كل مُبتلى أن الله ليس بغافل عنك، أن الله يعلم كم تتحمل من مشاق، أن الله يعلم أمنياتك التي ترجو، وعثراتك التي تحول ، وأحزانك التي تؤرق يومك، وحده يعلم مخاوفك ويدبر لك الخير ، فإذا ما آنس قلبك معية الله غدا مع أولئك الذين إذا ما أُعطوا شكروا، وإذا ما أُبتلوا صبروا صبرًا جميلًا حتى يظن من يراهم أنهم بلا ابتلاء فاستوى حالهم في السراء والضراء، لا يتأففون ولا يعيبون على الأيام والدهر، يكفيهم أن الله يعلم حالهم فيغنيهم عمن سواه.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾قد تراودك الأفكار أنك لن تدرك شيئًا مما تتمنى ، تضيق عليك الدنيا بوسعها، ثم ينزل الفرج وتُفتح أبواب ما كنت تظن يومًا أنها ستفتح ، تتوالى البشارات بعد سنوات من الضيق والشدة، وذلك لأن الله لن يُضيع جهدك، لن ينسى تعبك، لن يترك تلك الليالي القاسية بلا أجر، يُعوض صبرك، اركن إلى الله ، فلا أحد غير الله يجبر كسر القلوب في فواجع الأيام.

لا تَشْكُ للناس جُرْحًا أَنْتَ صَاحِبُهُ ... لا يُؤْلِمُ الجُرْحُ إلا مَن بِهِ أَلَمُ
شَكْوَاكَ لِلنَّاسِ يا ابنَ النَّاس منْقصَةٌ ... ومَن مِنَ النَّاسِ صَاحِ مَا بِهِ سَقَمُ؟
فالهمُّ كالسَّيْلِ والأحزان زاخِرَةٌ ... حُمْرُ الدَّلائلِ مَهْمَا أهْلُها كَتمُوا
فَإنْ شَكَوْتَ لِمَنْ طَابَ الزَّمَانُ لَهُ ... عَيْنَاكَ تَغْلِي وَمَنْ تَشْكُو لَهُ صَنَمُ
وَإِذَا شَكَوْتَ لِمَنْ شَكْوَاكَ تُسْعِدُهُ ... أَضَفْتَ جُرْحًا لِجُرْحِكَ اِسْمُهُ النَّدَمُ[1]

١ من قصيدة (لا تشك للناس) للشاعر كريم العراقي

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾الأحزان التي تُصيب القلب لم تكن يومًا شيئا يدعو للتباهي فتملأ كل أحاديثنا، ننشر أحزاننا أمام كل عين تقابلنا، فالناس لن تهتم لشأنك ، لأحزانك، فقط بث أحزانك لله وحده؛ فهو الكفيل برفعها، أما آذان الناس فيصيبها الملل من كثرة الشكوى والتأفف.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كأنما يتذكر رؤيا يوسف عليه السلام العالقة في قلب الزمان ولم يرها حقيقة بعد، فلا يزال للقصة بقية لتُحكى وهكذا هي قلوب المؤمنين لا تطرقها يد اليأس ولا تُدنِّسها رائحة القنوط .

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس أخوه فقط الذي سُجن منذ قريب، بل من يوسف عليه السلام أيضًا الذي فُقد منذ سنوات طويلة، يبث فيهم الأمل، يزرع فيهم حُسن الظن ، يعالج ما أفسدته الأيام في قلوبهم، حتى يوسف اطلبوه في بحثكم مع أخيه.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ سمعوا الجملة ولم يُعقِّبوا عليها، ألم يقولوا من قبل (أكله الذئب)؟ كيف لهم أن يتحسسوا وجوده إن كانوا صادقين ؟ بعض الكذب ييأس صاحبه من الدفاع عنه فيستسلم للإقرار به .

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لم يذكر شيئًا عن الابن الأكبر الذي حكم على نفسه بالبقاء﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ وذلك لأن بقاءه كان اختياريًّا يستطيع العودة في أي وقت شاء، أما يوسف عليه السلام وأخوه ففراقهما كان اجباريًّا.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لا يزال يذكر يوسف عليه السلام على مسامع مَن ضيعوه، هل من ضيعه منذ زمن بعيد سيبحث عنه الآن؟ لم يفقد الأمل في إصلاح قلوبهم، فوضعهم على درب اليقين بحسن الظن بالله، وعلى درب التوبة لتجاوز أخطاء الماضي.

﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ في كل ضائقة تصيبك الجأ إلى الله بكل قواك، بقلبك وجوارحك، أعلن ضعفك وعجزك بين يديه ، لا تلتفت لقلة حيلتك، لضعف إمكاناتك، لعجز الأسباب، بل التفت لله الذي ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]

﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ حين تضع أهدافًا في حياتك لا تنظر لها بقدرتك المحدودة بل بقدرة الله على تحقيقها، فهذا يعقوب عليه السلام حتى مع توفر أسبابِ القنوط من طول غياب ابنه واستحالة الفرج ـ في مقادير البشر ـ ظل بالقلب يقين بالله لا تزعزعه الظنون ولا يُلوثه القنوط.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ يُلقيها على مسامعهم في وقت تبدو كل أسباب النجاة مستحيلة، فيوسف عليه السلام قد غاب منذ زمن ومع ذلك يُحدثهم بيقين المؤمن الواثق في عطاء الله أن اطلبوه مع أخيه ولا تفقدوا الأمل. بعض الأوجاع بداخلنا تظل مشتعلة لا يُهدِّئ من حرارتها إلا حُسن الظن بالله.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ مهما اشتدت بك الصعاب إياك أن تقنط، كلما غلبتك أوجاعك ضع يدك فوق قلبك وردد (اللهم إني أحاول فلا تفلت يدي) فما دمت تحاول لن يضيع الله جهدك، لن يتركك لنفسك.

أتى البردُ على زرعِ عجوزٍ في البادية فأخرجتْ رأسها من الخباء ونظرتْ إلى الزَّرعِ وقد احترقَ فرفعتْ رأسها إلى السَّماءِ وقالتْ : «اصنعْ ما شئتَ فإنَّ رزقي عليك».

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ ما يسكن في قلبك من يقين بمعية الله ولطفه هو أقوى عون على نوائب الدهر وتقلبات الأيام ، فالقلب الذي يُحسن الظن بربه لا تهزمه الشدائد ولا يسكنه القلق ولا تعرف الحيرة له طريقًا.

---

[1] سورة السجدة الآية ٥

قال تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ يوسف [٨٨-٩٠]

بلغت المحنة ذروتها، على الأب، على الإخوة، على الأهل، فيأذن الله لها بالزوال بعدما فوَّض يعقوب عليه السلام الأمر كله لله ، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ما هي إلا أيام وجاءت بشريات الفرج .

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت، كما ضاق عليهم صدر أبيهم من أفعالهم، هكذا هو شؤم المعصية، شؤم يظل يطارد فاعلها ما لم يتب.

﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بضاعة كاسدة لا تستحق أن تُقبل، لكنهم توسموا فيه الخير فصارحوه أن يتصدق عليهم لأنهم يعلمون أن ما بين أيديهم أقل مما سوف يأخذونه .

﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ جاءوا ببضاعة، تحدثوا عن البيع والشراء، رغبوه في التصدق عليهم، فماذا بشأن أخيهم الذي أُخذ؟ لم يتحدثوا عنه، إنما استعطفوه بما آل إليه حالهم من الجوع والقحط ليضمنوا الكيل، أما أخوهم فلا حاجة لهم في الحديث عنه .

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ الصدقة هي ما يُعطى للفقير على وجه التقرّب إلى الله ، وليس على سبيل المكرُمة ، فهم يعلنون على مسامع يوسف عليه السلام بؤس الحال وضيق العيش، يطلبون منه الإحسان إليهم ، الأنفس إذا ما عاندت الحق أذلها الباطل، وإذا ما عاندت الخير كسرها الشر، قال ابن الجوزي واصفًا حالهم " من تأمّل ذلَّ إخوة يوسف؛ عرف شؤم الزلل " .

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هكذا مباشرة، يخبرهم بالحقيقة، يحدّثون عزيز مصر، ويحدثهم عن يوسف، حقًّا للمشاعر أن تضطرب، إنهم في حضرة عزيز مصر، كأني بأحاديث النفس تخالجهم، أهو يوسف؟ كأني بمشاعر الندم تعلو وجوههم، لست أدري ما الذي قاد يوسف ﷺ لأن يُعلنها هكذا مباشرة صريحة، أرقَّ لحالهم؟ ربما لم يحتمل طلبهم أن يتصدق عليهم، ربما أحس أن ضيق العيش قد طال أباه الشيخ الكبير فلم يزده عليهم، يا لقلوب الأنبياء، مهما عصرتهم الهموم لا نجد في أفعالهم إلا ما يُقتدى به، في جملة واحدة أخبرهم بنهاية القصة، بالفصل الأخير من تفاصيلها، الذي أخفيتموه في ماضي الزمان حفظه الله عنده وجعل من تفاصيله عبرة، الذي أخفيتموه لم يَخْفَ على الله، ألقيتم صغيرًا في بئر عميق في صحراء قاحلة فوضعه الله فوق رءوسكم.

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس يوسف ﷺ وحده من طالته يد الأذى منكم، بل طالت أخاه الأصغر كذلك، ربما قصَّ عليه سوءًا أصابه منهم، وربما عزاه إلى تصديقهم في حقه السرقة وقولتهم عن يوسف ﷺ آنذاك ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ ما أجملها أخلاق الأنبياء، يعاتب بلطف، ثم يُقدم لهم العذر لئلا تضيق عليهم الأرض التي يقفون عليها في حضرته.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ من وقع المفاجأة يسألون، أأنت حقًّا يوسف؟ إنه يوسف الذي تركوه صغيرًا في ظلمات البئر، نجاه الله وأعزه حتى صار عزيز مصر، نعم يوسف الذي ادَّعيتم ظلمًا أن الذئب قد أكله ها أنتم في حضرته، كيف السبيل إلى خروج يحفظ لهم شيئًا من ماء الوجه أمام يوسف ﷺ، أمام أبيهم، ثم أمام أنفسهم؟

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ أنا يوسف، هكذا بكل تواضع، بكل هدوء، ينطق اسمه بلا لقب يسبقه، بلا صوت يعلو، إنما أدب الأنبياء في التعبير، لا حظوظ للنفس، لا حظوظ للدنيا، إنما يجتهد في كل مقام أن يؤدب النفس فوق أدبها.

﴿قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ وهـذا أخـي، يخصـه بالذكـر رغـم أنهـم كلهـم إخـوة، إنـه شريـك لـه في حظـه مـن معاملتهـم السـيئة، مكرهـم السـيىء، والأخـوة ليسـت مجـرد كلمة تنطـق إنـما هـي أفعـال تبرهنهـا ، مـن بـين كل إخوتـه يخصـه بهـا أمـا البقيـة فقـد أسـاءوا إلى معانيهـا، إلى حقوقهـا .

﴿قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾وهـذا أخـي، سـألوه عـن نفسـه فألصـق أخـاه بـه، لم تـزده سـنوات البُعـد إلا رقـة ، ولم يـزده المنصـب إلا تواضعًـا .

﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ ﴾في كل حديـث نـراه يـرد الفضـل لله، لا فضـل السـعي، لا فضـل الـذكاء، لا فضـل الاجتهـاد، لا فضـل الصـبر، إنـما فضـل الله، وعطـاء الله.

﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ ﴾مضـت كل الصعـاب، طـوى يوسـف عليه السلام صفحـة المـاضي، عفـا وصفـح، إننـا في الحيـاة ننجـو بلطـف الله لنـا لا بتدبيرنـا وتخطيطنـا، فـلا أحـد منـا يعـرف طريقـة مثاليـة يتجـاوز بهـا صعـاب الحيـاة. إنهـا تمـضي بلطـف الله .

﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ ﴾ألقـوه في البئـر وظنـوا أنهـم قـد أنهـوا مسـتقبله ، فاسـتخدمهم الله لبنائـه. تدبـير البـشر يعجـز عـن منـع شيء قـدَّره الله لـك، لـذا حـين تمـر بابتـلاء لا تظـن نفسـك تحـت وطـأة الظـروف، أو تحـت تدبـير البـشر، إنـما علّـق قلبـك بـالله يدبـر لـك كل أمـرك، ويبنـي لـك مسـتقبلك عـلى أنقـاض أوجاعـك الحاليـة.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾يعـرض لهـم قضيـة التقـوى ليـس بكلـمات مجـردة إنـما يصحبهـا واقـع قـد عـاش تفاصيلـه وكانـوا هـم جـزءًا منـه، لـيروا عاقبـة التقـوى ، لـيروا عاقبـة اللطـف ، لـيروا صـورة حيـة مـن معيـة الله لعبـد مـن عبـاده ألقـوه في غيابـات الجـب طفـلًا صغـيرًا فاجتبـاه الله حتـى صـار نبيًـا مرسـلًا وعزيـزًا آمـرًا.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ليس تقوى فحسب إنما تقوى يُجمِّلُها الصبر، يُجملها يقين القلب أن ماكان مقدرًا لك سيأتيك ولو كان بين جبلين، وما لم يكن مقدرًا لك لن يأتيك ولو كان بين جنبيك، وما كان مقسومًا لك سيأتيك رغم ضعفك، ومالم يكن لك لن تناله رغم قوتك، وما من خير قد كُتب لك إلا ويعرف طريقه إليك. في الحديث أن النبي ﷺ قال «لو أنَّ ابنَ آدمَ هرَبَ من رزقِهِ كما يهرَبُ من الموتِ، لأدْرَكَهُ رزْقُهُ كما يُدْرِكُهُ الموتُ» [1].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾التقوى هاهنا قبل الصبر ، وفي آيات أخرى جاء الصبر قبل التقوى ، لأن صنوف الابتلاءات التي مرت بيوسف عليه السلام كانت متعددة، بعضها قد يمر بأي أحد كصنيع إخوته به، وبعضها لا يتعرض لها كل امرئ كابتلاء غواية امرأة العزيز، فصبره هاهنا لم يكن مما يألفه الناس إنما هو صبر تجمَّل بالتقوى حين اختار السجن مظلومًا على الحرية التي قد تلقي المعصية في طريقه كل آن، لذا جاءت التقوى قبل الصبر لأنها هي التي جمَّلت الصبر، هي التي طيبت الصبر على نفسه فلا تجد سخطا ولا تذمرًا إنما تجد رضًا وتوكلًا واستسلامًا لقضاء الله حتى قضى الله أمره وخرج من سجنه عزيزًا.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾العاقبة هنا، كل ما ورد في السورة نجده هاهنا، من يتق يجد ثمار تقواه، من يصبر ينل ثمار صبره، يعلنها على أسماعهم، ذاك الصغير الذي ألقيتموه في البئر ولم تلتفتوا له قد صبر فكان عاقبة الصبر أن تفضل الله عليه بوافر العطاء.

فلتعش حياتك قرير العين ، مطمئن القلب، مُحسن الظن بالله، واثقًا أن كل أقدار الله لك خير، وأنه لا أحد يستطيع أن يغلق بابًا فتحه الله لك.

---

١ صحيح الجامع حديث ٥٢٤٠ وحسنه الألباني

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ يوسف [٩١-٩٣]

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ لا زالت لديهم طاقة للجدال، لكنه جدال قد اعتلاه شيء من خزي النفس، وأي خزي بعدما رأوا مَنْ ألقوه بأيديهم في غيابات بئر في صحراء قاحلة قد صار عزيزًا مُمَكَّنًا مُطاعًا جاءوا يتوسلون إليه أن يتصدق عليهم بالطعام.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعد سنوات طويلة فهموا أن عطايا الله لن يمنعها كيد كائد ولا حسد حاسد، لذا أعلنوا باستسلام تام إقرارهم بفضله عليهم، وأنه فضل الله الذي اختاره دونهم فأعطاه النبوة والحُكم.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ عفو مطلق وصفح جميل، لا تأجيل ولا تسويف، لا لوم ولا عتاب، لا توبيخ ولا تعريض، عفو شامل يطلقه يوسف على أسماعهم، عفا عن كيدهم به وهو طفل، عفا عن سنوات بُعده عن أبيه، عفا عن سنوات الغربة التي لاقى فيها ما لاقى من ظلم في غيابات السجون، عفا ولم يعقب على سوء صنيعهم، لذا استحضر النبي ﷺ موقفه هذا يوم فتح مكة وقد اجتمع كفار قريش الذين لطالما آذوه وحاربوه فقال لهم" فَإِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.[1]

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ليس كل غضب يستحق أن نجعله خصامًا، الخصام يرهقنا، يكلفنا كثيرًا من الجهد، من الطاقة المبذولة في غير مكانها، من أوقات تضيع في التفكير بلا جدوى، التسامح يجعلنا نمضي بقية الطريق بقلب خفيف. سامح حتى وإن لم تُرِدْ أن تكمل معهم بقية الطريق.

---

١ السنن الكبرى - النسائي - ط الرسالة (١٠/١٥٥) حديث ١١٢٣٤

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ كأني بنبي الله يستعرض القصة من بدايتها وكل ما مر به، وقد هان في نظره كل ابتلاء، فمن وجد طريقه إلى الله وجد كل شيء، من وجد طريقه إلى الله لا يرى في الحياة ما يُقلقه. لا خسارة تعدل خسارة عبد تركه الله لنفسه ورفع عنه ستره .

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ لن تجد شيئًا في شخصية المرء يعدل كونه شخصا رحيمًا، ليس رحيمًا مع من يُحب غليظًا مع الآخرين إنما رحيمًا مع الكل بلا استثناءات ، امنح الود في أوانه لكل طارق فربما من قصدك معلق على كلمة منك ترمم ضعفًا قد اجتاحه ، ليكن لك مكيال واحد تدير به تعاملك مع الآخرين ، مكيال الحق والوضوح أما التلون فإنه ينتقص منك لا يُكملك.

﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لم يتجاوز فحسب بل عاجلًا يدعو الله أن يتجاوز عنهم، هكذا جملة واحدة قالها فنزلت على قلوبهم بردًا، رفعت عنهم الاحساس الذي ملأ قلوبهم في لحظتها بالذل والانكسار، بالشعور بالخزي، بوخز الضمير ، بالعجز عن الرد حينما دارت دائرة الزمان ، جملة واحدة كانت كافية لإذابة كل إحساس بالخزي قد ارتسم على وجوههم في حينها، جملة واحدة قد يدخرونها لكل أوقاتهم السيئة إذا ما تذكروا ما فعلوا وما آلت إليه الأحداث ، قد تكسرنا المواقف وتُجبرنا كلمة طيبة .

﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لم يتجاوز فحسب بل أتمها بالدعاء لهم، مع مرور العمر أيقنت أن جزءًا كبيرًا من السعادة مختزن في العطاء ، عطاء الإنفاق بالمال وعطاء المشاعر بكلمة طيبة، بابتسامة، بحفظ ود ، بعرفان بجميل ، فلا شيء يعدل لحظة طمأنينة تُسعِد بها قلبك، وقد قيل « إن العطاءَ ليسَ مالًا فقط، وإنّما نحفظُ ماءَ الوجوه، ونُطيبُ الخواطر، ونُراعي الكرامات، فإن إراقة ماء وجه إنسان كإراقة دَمه» .

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ حينما أرادوا أن يقنعوا أباهم أن الذئب قد أكله جاءوا بقميصه، وحينما أراد يوسف عليه السلام أن يُبشر أباه اختار القميص أيضًا، ليكون القميص الذي أدخل عليه الهمَّ سببًا في إدخال السرور عليه .

﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ الله قادر على شفائه بلا سبب، بلا قميص، بلا إلقاء ، لكن حتى مع المعجزات يرافقها شيء من البذل، من السعي، لن يتحقق شيء في حياتك ما لم تبذل جهدًا في تحقيقه.

﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ سوف يأتي لكنه أَبى أن يأتي إليه بظُلمة العين وإن أشرق القلب، فاختار أن يخطو خطواته مبصر العينين مع بصيرة القلب .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ **يوسف** [٩٤-٩٨]

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾نور النبوة يفوح عبقًا من قميص يوسف عليه السلام في مصر لتستقبله جوارح يعقوب عليه السلام في الشام، حين يُحدثك أحد عما يستحيل حدوثه عقلًا حدثه عن قدرة الله وتدبيره .

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾لأجد ليس مجرد خاطرة طرأت، ليس مجرد رائحة عابرة حملتها الرياح ، ليس مجرد عِطر قد فاح فشمّه دونهم ، إنما بكل يقين يخبرهم أنه قد أدرك رائحة يوسف عليه السلام لا غيره .

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾في كل خَطْب يهزمك استنشق ريح الفرج من بعيد، فالذي رد غائبًا لأبيه بعد سنوات وسنوات سيرد عليك ضالتك وإن كانت نفسك التي بين جنبيك.

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾يسوق الله قبل البشائر علامات تطمئن بها القلوب من بعد حيرتها، وتأنس بها من بعد قلقها .لو أن بينك وبين أمانيك قدر شعرة، لن تبلغها مادامت حكمة الله في كفك عنها، ولو أن بينك وبين أمانيك بُعد السماء عن الأرض وشاء الله أن تبلغها لبلغتها رغم استحالة نيلها.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ إن كان الإخـوة في مـصر لم يأتـوا بعـد فمـن قـال لـه ذلـك؟ ربـما بعـض الإخـوة قـد بقـي وبعضهـم قـد سـافر، ربـما بعـض أبنائهـم وربـما بعـض أهـل بلدتـه ، وأيًّـا كان القائـل فإنـه يمثـل صنفًـا مـن البشر يحكـم عـلى أمـور الحيـاة بنظـرة ماديـة ، فيوسـف عليه السلام الـذي فُقـد مـن زمـان أنّـى لـه أن يعـود!

أمـا يعقـوب عليه السلام فقلبـه مطمئـن بلطـف الله فـلا حظـوظ للحسـابات الماديـة ولا حظـوظ للعقـل والمنطـق ، إرادة الله دائـمًا غالبـة، يُهيـئ الأسـباب لعبـاده ليرزقهـم، وقـد يرزقهـم بـلا أسـباب .

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ حـين تسـمع كلمـة تؤلمـك وتغضـب لنفسـك تذكـر أن هـذا نبـي كريـم وشـيخ كبـير وهـا هـو ذا يسـمع ألفاظًـا غايـة في الحـدة فيأبـى أن يـرد عليهـم، أن يجادلهـم، أن يـرد الكلمـة بالكلمـة ويسـتنزف طاقتـه في أحاديـث لا جـدوى منهـا. بعـض الصمـت خـير .

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ حتـى القريبـون منـك قـد يُسـيئون إليـك، قـد لا يفهمـون ألمـك، قـد تُتعِبُـك نظراتهـم السـاخرة، أو كلماتهـم الحـادة الغليظـة، ويبقـى الله وحـده مـن يؤنـس وِحـدة قلبـك ، مـن يلطـف بـك حـين ترهقـك المتاعـب ، فـأودع همومـك ربًّـا كفيـلًا بهـا.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ البشـير من أولاده، من كانوا سـبب فقدانه، جاءوا يحملون البُشرى لأبيهـم أن يوسـف عليه السلام هـو عزيـز مـصر، لا شر بالكليـة، فالـذي كـذب أولًا بـأن الذئب قد أكل أخـاه هـا هـو ذا يحمـل قميصـه ليبـشر أبـاه أنـه لا يـزال حيًّـا وقد غـدا عزيز مـصر، جاء بقميـص البـشرى مَـنْ حمـل قميـص الـدم الكذب، ففـي الأثـر أن يهوذا بـن يعقوب قـال : أنا ذهبـتُ بالقميـص، ملطخًـا بالـدم إلى يعقـوب فأخبرته أن يوسـف أكلـه الذئب، وأنـا أذهب اليـوم بالقميـص وأخـبره أنه حـيٌّ فأفرحه كـما أحزنتـه . فهو كان البشـير.[1]

---

١ تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٩)حديث ١٩٨٦٧

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ جاءت بشريات الفرج لتتوج رحلة الصبر، ويسعد القلب، فلا حزن يدوم، ولا ابتلاء يدوم، ولا معاناة تستمر.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يخاطبهم خطاب الواثق بعطاء الله الموقن بلطف الله، في كل مقام كان يُذكّرهم بيوسف عليه السلام، لأنه يعلم أن رؤياه لم تتحقق بعد، فكان على يقين أن الله سيردّ له ابنه، ويجمع بينهما بعد فُرقة.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ إقرار بالذنب، وطلب للمغفرة، لم يأتوا بها صريحة حياءً من أبيهم فأعرضوا عن طلب المغفرة عما أجرموا في حقه مباشرة وعمموا الطلب باستغفاره لهم من كل ذنوبهم.

﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ إقرار آخر بالخطأ الذي لم يصدر عن جهل إنما بعمد وقصد، فالخاطئ هو الذي يتعمد الخطأ ويقترف الذنب متعمدًا ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ أما المخطئ هو الذي لا يتعمد فعل الخطأ ويفعل الذنب جهلًا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ (١)

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾ حين طلبوها من يوسف عليه السلام سمعوها مباشرة ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وحين طلبوها من أبيهم أرجأها ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾ قال ابن عباس: أَخَّر دعاءه إلى السحر، أي وقت السَحَر وهو وقت يُجاب فيه الدعاء.

والذي يبدو لي ـ والعلم عند الله ـ أنه إرجاء عتاب، عتاب الأب الذي من المفترض أن يتقوى على مصاعب الحياة بأبنائه بعدما كبروا فإذا بهم سبب شقائه ومصدر أوجاعه، إنه عتاب الأب الذي سامح حتى النهاية، لم يعب، لم يوبخ، لم ينهر، بل رضي وصبر، ألا يحق لهذا الأب أن يعاتبهم على شيء مما صنعوه به؟

أما يوسف عليه السلام فقد عفا في وقتها فنظرة الأخ لأخيه غير الأب الذي يرى في ابنه سندًا يتكئ عليه في شيخوخته.

---
١ البقرة [٢٨٦]

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ ﴾يـا للطـف الله بإخـوة يوسـف‌عليه السلام، اسـتغفر لهـم نبيـان، أبوهـم وأخوهـم.

قـال تعـالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ يوسـف [٩٩-١٠٠]

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾تُـرى كيـف كان اللقـاء بعـد الفـراق؟ الوصـل بعـد الغيـاب، كيـف كانـت النظـرات؟ كيـف كانـت نظـرات الابـن لأبيـه بعـد سـنوات غيـاب لاقـى فيهـا مـا لاقـى مـن ابتـلاءات عصفـت بسـكينة الحيـاة؟ كيـف كانـت نظـرات يعقـوب عليه السلام ليوسـف؟ ذاك الـذي لم يـره مُـذ كان طفـلًا صغـيرًا، يـراه الآن رجـلًا كبـيرًا ونبيًـا كريـمًا وسـيدًا عزيـزًا متصرفًـا في شـئون دولـة، أيبكـي عـلى سـنوات الفـراق، أم يبكـي مـن لطـف الله بـه، أم يبكـي مـن فرحـه بعطايـا الله لابنـه؟

آيـات مفعمـة بالمشـاعر، آيـات بحاجـة إلى أن تـترك مخيلتـك لترسـم تفاصيـل اللقـاء، تعابـير الوجـوه، القبـض عـلى الأيـادي، أحضـان الشـوق مـن غائـب لغائـب، آيـات تسـتنطق مشـاعرنا كـي نستشـعر معيـة الله في كل آنٍ، ألا نعيـب عـلى الأقـدار ، أن نـرضى بقلوبنـا وإن جهلنـا علـة حـدوث الأشـياء.

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾تجـاوز عـن الحديـث عـن واقعـة البئـر لئـلا يُكـدر صفـو اللقـاء عـلى أبيـه وإخوتـه فَأَبَـى أن يذكرهـم بـه، رغـم أن البئـر كان أشـد خطـرًا مـن السـجن ، ففـي البئـر انقطعـت كل أسـباب الـرزق الظاهـرة بخـلاف السـجن الـذي فيـه طعـام وإيـواء .

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ حين ينتقل المرء من ابتلاء إلى رخاء عليه ألا ينسى فضل الله عليه، إحسان الله عليه، لطف الله به ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ رغم أن دخوله السجن كان بطلب منه اتقاء الفتنة﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[1] لكن خروجه منه كان برؤيا ساقها الله للملك في ظلمات الليل لتكون سببا في خروجه طَيِّبَ الذكر بريئًا عفيفًا ثم عزيزًا لمصر، فكل هذا العطاء من إحسان الله به ، قد تخونك بعض اختياراتك في الحياة ويبقى لطف الله لا يخذلك أبدًا.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ تكملة التلطف والتودد، فَيُرْجع ما حدث من إخوته إلى نزغ الشيطان لا إلى كيد الإخوة، لم يتحدث عن ظلمهم له، عن كيدهم به، إنما جعل نفسه وهم سواء ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ والشيطان هو من أفسد بينهم، أدب نبوي ألا تحرج إنسانًا قد أقر بخطئه ، لا تُخجله، لا تتكلم كلمة تجعل أخاكَ يحمّرُ وجهه خجلاً.

في الأثر : « لا تحمّروا الوجوه» أي لا تُثقل على أحد بالكلام حتى يحمر وجهه خجلًا .

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾لعلنا نذكر حديث أبيه الأول معه عن نزغ الشيطان، لم يكن حديثًا عاديًا بل تربية غرسها في قلبه فشبَّ عليها، فما يُحفر في قلب الصغير تعجز يد الزمان عن محو آثاره .﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ قد تختار لنفسك طريقًا، ثم تتحول أحداث حياتك إلى طريق آخر رغمًا عنك، لسببٍ ما لا تعلمه، في حينها لا تسخط، لا تتوقف عن السير، سوف تعلم في نهاية الطريق أن ما اختاره الله لك خير مما اخترت لنفسك.

---

١ يوسف [٣٣]

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ تغـاضى عـما يُعكِّـر صفـو لقائـه بأبيـه وإخوتـه، تغـاضى عـما ينغـص عليهـم فرحـة اللقـاء بعـد الفرقـة، فلـم يذكـر شـيئًا مما صـدر مـن أفعالهـم معـه، إنـما ذكـر الرؤيـا الحسـنة التـي قصهـا عـلى آذان أبيـه وهـو صغـير، يحمـل الذكريـات الطيبـة وينشرهـا، ويتغـاضى عـن الذكريـات السـيئة ويكتمهـا لتمـضي الحيـاة .

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾جعلهـا، إنهـا خاضعـة لإرادة الله، لتدبـير الله، لمشـيئة الله الـذي هيـأ لهـا الأسـباب حتـى تحققـت.

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾سـاق إليـه الرؤيـا، وعلمـه تفسـيرها، وحققهـا لـه في حياتـه، هـذا هـو عطـاء الله. فالعـوض الـذي يـأتي مـن الله مهـما تأخـر يـأتي مُذهـلًا يجبر كل كـسر قبلـه .

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾كل دعـاء علـق في قلبـك وردده لسـانك لا تتعجـل إجابتـه ولا تقنـط مـن رده ، سـيأتي اليـوم الـذي تُلامـس فيـه أحلامـك واقعًـا تحيـاه فتطمئـن مبتسـمًا، تُحـدِّث نفسـك أن قـد جعلهـا ربي حقًّـا ، لتـذرف الدمـع فرحًـا بعطـاء الله، فـما منـع الله عنـك شـيئًا تـراه عظيـمًا إلا أعطـاك مـا هـو أعظـم منـه، ومـا فقـدت شـيئًا لم تتوقـع خسـارته إلا رزقـك الله مـا لم تتوقـع امتلاكـه .

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾هنـاك أشـياء نحتاجهـا وأشـياء نتمناهـا وبـين الاحتيـاج والأمنيـة يُدبـر الله لنـا ماينـاسـبنا، فـما قـذف الله في قلبـك أمنيـة لكـي يجعلـك تتحـسر إنـما يؤجلهـا إلى حـين، حتـى إذا مـا جـاءت بعـد صـبر وعنـاء ومشـقة استشـعرت قدرهـا فحافظـت عليهـا، ولـو جـاءت بـلا عنـاء لرحلـت هبـاء .

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾لطيـف في الأمـر كلـه، مـا يعلـم المـرء علتـه ومـا يجهـل، بعدمـا رأينـا نهايـة الأحـداث أيقنـا أن كيد الإخـوة والإلقـاء في البئر لطـف، وكيد النسـوة والإلقاء في السـجن لطـف، وأنـه لولا الابتـلاءات ما صـار عزيزًا، هكـذا هي أقـدار الله كلها لطـف، منها مـا نعلمـه في حينـه ومنهـا مـا نعلمـه بعد حـين ومنها ما قـد نفـارق الحيـاة ولا نعلمه.

﴿تَوَفَّنِى مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نبي كريم ذو نسب كريم ، ويدعو أن يُتوفَّى على الإسلام، حين تكثر من الطاعات أكثر من اتهام نفسك بالتقصير لئلا يسكنها العُجب فتهلك.

﴿تَوَفَّنِى مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ توفني مسلمًا بالقلب قبل القالب، إسلاما في القول و الفعل والسلوك قبل المظهر ، وألحقني بالصالحين الذين سبقوني إليك فنالوا أجر صلاحهم .

﴿تَوَفَّنِى مُسۡلِمٗا﴾ مسلمًا، ليس شرطًا كي تنال حُسن الخاتمة أن تموت ساجدًا، أو تموت وفي يديك مصحف، فالنبي ﷺ مات على فراشه، وأبو بكر مات على فراشه، وخالد بن الوليد الذي قضى حياته مجاهدًا مات على فراشه، حُسن الخاتمة أن تموت مُسلمًا مستسلمًا لأمر الله ، أن تموت بلا مظلمة يطلبك بها أحد، أن تموت ولا حاجة لك في الدنيا إلا رغبة في مزيد من الطاعة .

وإذا البشائرُ لم تَجِن أوقاتها ... فلِحكمةٍ عندَ الإله تأخرتْ

سيسُوقها في حينها فاصبر لها ... حتى وإن ضاقتْ عليكَ وأقفَرتْ

تجري دموع اليأسِ منكِ وربما ... عند الصباحِ ترى البشائرَ أنورَتْ

فغداً سيجري دمع عينكَ فرحةً ... وترى السحائبَ بالأماني أمطرَتْ

وترى ظُروفَ الأمسِ صارت بلسَما ... وهي التي أَعيَتْك حينَ تعسّرتْ

وتقولُ سبحانَ الذي رفعَ البلا ... مِن بعد أن فُقد الرجاءُ تيسرتْ



موسى عليه السلام مع الخضر



قصة موسى عليه السلام مع الخَضِر جاءت لتجيب على كثير من الأسئلة التي تتردد في عقولنا ولا نجد لها جوابًا شافيًا، أو تلك التي نعجز عن طرحها علانية كي لا نُفهم بشكل خاطئ، جاءت لتشرح لنا بأسلوب عملي كيف هي أقدار الله؟

- كيف يكون الأمر في ظاهره شرًّا محضًا وفي داخله خير كثير؟
- كيف يكون الابتلاء الذي يؤلمنا مصدر سعادتنا؟
- كيف يكون المرض الذي يعتصرنا خيرًا لنا؟
- كيف يكون الأسى والحزن الذي في ظاهره ضراء هو في حقيقته سراء ؟
- كيف نغير نظرتنا للحكم على الأشياء التي نراها، على المواقف التي نمر بها والأحداث التي نتفاعل معها ؟

هي قصة جاءت لتشرح لنا إذا ما أردنا أن نحكم على الأشياء فلا نضع حدود فهمنا لها كحد مطلق، قد يكون خلفها معرفة أكبر من أفهامنا، قد يكون فيها حكمة لم تتكشف لنا بعد، قد يكون الخير الذي تحمله لم يأت وقته بعد.

هي قصة جاءت لترسم لنا صورتين لأغلب ما نراه في حياتنا:

- الصورة الأولى :ما يظهر لنا ونتفاعل معه.
- والصورة الثانية :ما يخفى عنا وقد تكشفه لنا الأيام وقد لا نفهمه .

فالصورة الأولى ترسم لنا أقدار الله الظاهرة ، سفينة يُتلفها الخضر، غلام يقتله ، وجدار يبنيه .
أما الصورة الثانية فترسم لنا تدبير الله الخفي عنا، الجزء الذي لا يظهر لنا في حينه، التدبير الإلهي الذي يفوق قدرة تخيلنا، لنجد أن خرق السفينة كان سببًا لئلا يأخذها الملك غصبًا فبقيت لأصحابها ولو لم تُخرق لما بقيت، وقتل الغلام كان سببًا لئلا يرهق والديه المحسنين، ربما يكونا تألما في حينها كثيرا ولكن ألمها لفساده في كبره أشد، بناء الجدار في قرية أبت أن تضيفهما لئلا يضيع كنز اليتيمين، فإذا ما سقط الجدار وظهر الكنز أخذه هؤلاء اللئام الذين أبوا أن يقدموا لضيف طعامًا أو شرابًا أتراهم يراعون الله في مال يتيمين ؟!
الصورة الكاملة قد لا تتكشف لنا في أغلب المواقف التي نقابلها، نأخذ بظاهر الحال ونحكم على أساسه، فإذا كنا من ركاب السفينة لعِبنا على الخضر تصرفه، وقد تكون أم الغلام قد بكته بكاء لم ينقطع وربما ماتت وهي ناقمة على قاتل ابنها الصغير.

فـإذا مـا فهمـت دلالات هـذه القصـة فهمـت كثـيرًا ممـا تـراه في حياتـك وممـا يبـث في قلبـك حـيرة، فهمـت كثـيرًا ممـا تعرضـت لـه وآلم قلبـك في حينـه ثـم مـع الأيـام عرفـت أنهـا آلام جلبـت بعدهـا خـيرًا ولولاهـا مـا رأينـاه، فهمـت كيف يسـير قـدر الله؟ فهمـت أن كل شيء يـأتي في توقيتـه الـذي يـراه الله مناسـبًا، وأن مـا قـدَّر الله لـه البـدء سـيبدأ بأدنـى مجهـود منك، ومـا قـدَّر الله لـه الانتهـاء سـينتهي ، فهمـت أن في بعـض الأمـور التـي تعلقـت بهـا نفسـك مفسـدة ولـو حرمـك الله منهـا في مبـدأ الأمـر لظننـت أن الله قـد حرمـك خـيرًا كثـيرًا فتبقـى حتـى تتركهـا وأنـت موقـن أن الخـير كلـه في تركهـا لا في بقائهـا، فهمـت أن كل أقـدار الله خـير وإن لم تعلـم الحكمـة مـن ورائهـا، فـإذا مـا اسـتقر في نفسـك هـذا اليقـين سـلم القلـب أمـره لمـن بيـده تدبـير الأمـر، ورضي بتدبـيره فتهـدأ القلـوب مـن حيرتهـا، ليصـبر المبتـلى، ليتعلـق القلـب بآجـل وعـد الله، ليسـتعين المؤمـن بلطـف الله الخفـي فيتصـبر بـه عـلى فواجـع الأيـام، لينطـق اللسـان بظـن القلـب ﴿لَا تَدۡرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرًا ﴾[1]

والقصـة في سـورة الكهـف، وهـي سـورة مكيـة نزلـت والفئـة المؤمنـة تُبتـلى وتُفتـن في دينهـا ويطالبهـم النبـي ﷺ بالصـبر، فتـأتي الآيـات لـتربي في نفـوس المؤمنـين النظـر إلى مـآلات الأمـور، إلى آجـل الأمـر لا عاجلـه، إلى نـصر آت لكـن وقتـه لم يحـن بعـد، ولـو جـاء في ضعفهـم مـا تمسـكوا بـه ولا قامـوا بأمـره، فـلا يتعجلـون نـصر الله لهـم، ولا يسـتبطئون أخـذ الله بالعقـاب لمـن ظلمهـم، إنـما يثبتـون عـلى إيمانهـم رغـم مـا يجـدون مـن تعذيـب المشركـين لهـم، وأن يُحسـنوا الظـن بـالله، فجـاءت قصـة موسـى عليه السلام مع الخـضر لتتعلـق قلوبهـم بآجـل وعـد الله، لتعلـم قلوبهـم بـأن مـا مُنـع عنهـم الآن سـيُدرِكهم بعـد حـين، أنهـم كغلامـي المدينـة اليتيمـين لـو وجـدا الكنـز في صغرهمـا مـا انتفعـا بـه، فلـو انتـصروا في جولـة عـلى قريـش في بدايـة الدعـوة مـا كانـوا ليقومـوا بتوابعهـا، فربـما اسـتأصلتهم كلهـم قتـلًا والدعـوة في بدايتهـا لم تقـو عـلى الصمـود بعـد، لـذا قبـل أن يسـوق الله قصـة موسـى عليه السلام مـع الخَـضِر قـال سـبحانه ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾[2] فأمـر الله يحـدث بقـدر، وأمـر الله آت لا محالـة، وأمـر الله لا راد لـه، وأمـر الله لا مفـر منـه، إن الله لا يعجـل بعجلـة أحـد مـن النـاس، فـكل شيء عنـده بقـدر .

---

١ **الطلاق** [١]

٢ **الكهف** [٥٨]

وسبب تسمية الخَضِر بهذا الاسم قد ذكره النبي ﷺ فقال «إنَّما سُمِّيَ الخَضِرَ أنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هي تَهْتَزُّ مِن خَلْفِهِ خَضْرَاءَ» (١) الفروة البيضاء هي الأرض اليابسة إذا جلس على أرض قاحلة نبت فيها الزرع،وقيل أنها الهَشيمَ مِن نَباتِ الأرضِ، إذا جلس عليه اخضَرَّ بعْدَ يُبسِه، وهي مُعجزة أجْراها اللهُ على يَدَيهِ، وقد قيل أنه ولي من الأولياء وقيل أنه نبي من الأنبياء ، ولعل الأظهر أنه نبي، ففي ختام قصته مع موسى عليه السلام أخبره أن ما فعله لم يكن من رغبة شخصية أو اجتهاد منه في تأويل الأحداث التي وقعت إنما أمر من الله له بفعله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾

أما مناسبة القصة ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : قَامَ مُوسَى خَطِيبًا في بَنِي إسْرَائِيلَ فقِيلَ له: أيُّ النَّاسِ أعْلَمُ؟ قالَ: أنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْهِ، وأَوْحَى إلَيْهِ: بَلَى عَبْدٌ مِن عِبَادِي بمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هو أعْلَمُ مِنْكَ، قالَ: أيْ رَبِّ، كيفَ السَّبِيلُ إلَيْهِ؟ قالَ: تَأْخُذُ حُوتًا في مِكْتَلٍ، فَحَيْثُما فقَدْتَ الحُوتَ فَاتَّبِعْهُ.... (٢)

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ **الكهف** [٦٠- ٦٤]

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾الفتى هو يوشع بن نون نبي من أنبياء بني إسرائيل، بُعث في بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام فقام بأمرهم، وكان رفيق موسى عليه السلام في رحلته حتى لقي الخضر. في الحديث أن موسى عليه السلام قال لفتاه : لا أكلِّفُك إلَّا أن تخبِرَني بحيث يفارِقُك الحوتُ، قال: ما كَلَّفْتَ كثيرًا. (٣)

﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾أي لا أزال سائرًا في أمري هذا حتى يُقضى ولن يثنيني عنه شيء وإن طال أمره علي وإن لحقتني منه المشقة.

١ **البخاري** (٣٤٠٢)

٢ **البخاري** [٤٧٢٧]

٣ **البخاري** (٤٧٣٦)

﴿ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ أي: زَمانًا ودَهرًا، وكل متعلق بغاية ينشدها تهون عليه الصعاب التي يلقاها في طريقه حتى إن كانت الصعاب هذه تأخذ من عمره لا من طاقته فحسب، فالذي لديه غاية ينشدها لا يضيع عمره هباءً.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا ﴾ المكان الذي يلتقي فيه البحران فيصيران بحرًا واحدًا، وقد يكون هذا المكان عند مجمع خليجي العقبة والسويس بأرض سيناء، ومجمع البحرين أن يجتمعا في بحر واحد لا أن يلتقيا كما بين البحر والمحيط، فهذا التقاء لا اجتماع . (والعلم عند الله)

﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ كانت العلامة الوحيدة لمكان الالتقاء بالخضر هي أن تُرد الحياة للحوت وحتى تظهر تلك العلامة فلن يتوقف موسى عليه السلام عن السير .

﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ كان الحوت مع يوشع، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما للصحبة التي جمعتهما ، فإذا ما اجتمع قوم في سفر كان شأن أحدهما شأن الجميع

﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾ مضيا في طريقهما حتى أدركا صخرة استراح عندها نبي الله ، فأخذته سِنة من النوم، وما إن استيقظ حتى واصل رحلته، مما جعل فتاه ينسى أن يخبره بأن الحوت قد دبت فيه الحياة وخرج من المكتل إلى البحر، وكانت هذه هي الآية التي أُخبِر بها نبي الله موسى عليه السلام فكان الحوت دليلًا على موضع الخضر. في الحديث: فانطلقَ وانطلقَ معَهُ فتاهُ وَهوَ يوشَعُ بنُ نونٍ، حتى إذا أتيا الصخرةَ وَضَعا رؤوسَهما فناما، واضطرب الحوتُ في المِكتَل، فخرج منه فسَقَط في البَحرِ ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾ ، وأمسك اللهُ عن الحوتِ جريةَ الماءِ، فصار عليه مِثلَ الطَّاقِ، فلمَّا استيقظ نَسِيَ صاحِبُه أن يخبِرَه بالحوتِ، فانطلقا بقيَّةَ يَومِهما وليلَتَهما)[1]

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ نسي الفتى أن يخبر نبي الله بأمر الحوت فمضى موسى عليه السلام في طريقه لأن الآية التي يقصدها يعتقد أنها لم تحدث بعد فسارا نهارهما وليلهما حتى أصبحا .

١ رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠). مِكتَل: أي: قفَّة كبيرة / الطاق: أي: النَّفَق

﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ من شدة تعلقه بالأمر سار يومًا بليلة متصلين ثم تذكَّر الطعام بعدما مسه التعب. في الحديث: «وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.» لم يصبه التعب إلا بعدما جاوز المكان الذي يقصده. دائما انتبه لرسائل الله إليك في كل موقف.

﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ بالجمع لا الإفراد، هكذا هو أدب النبوة، فالمشقة لم تقع عليه وحده إنما أصابت غلامه معه، هكذا يكون تقدير جهد الآخرين، لا انتقاص أعمالهم، فقد يكون لوقع الكلمة الطيبة على النفس ما يزول به كل تعب وجده.

﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ تلطف لا حدود له، يشاركه في كل شيء حتى في التعبير عما بداخله، قد يخجل الفتى في التعبير عن تعبه فإذ بنبي الله يشاركه الإحساس، كما يشاركه الطعام، القيادة لم تكن يومًا زجرًا وأمرًا ونهيا وحياة جافة معدومة الإحساس، القيادة مشاركة ، القيادة إنسانية ، القيادة أخلاق.

﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ليس التوكل أن يخوض المرء غمار طريق لا يعرف مسالكه ولا يحمل معه زادًا يكفيه، ظنًّا منه أنه يُحسن التوكل على ربه، إنما اتخاذ الزاد في الأسفار هو عين التوكل، فهذا موسى عليه السلام نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ جميل هو أدب الأنبياء، جميلة هي بساطتهم، عبَّر عما شعر به من تعب بألفاظ غاية في البساطة والرقة، لا ضجر ، لا تأفف، لا إرهاقًا للنفس فوق طاقتها، نبي من أولي العزم ويُعبر عن تَعَبِه حينما أصابه التعب، يعبر عن شعوره بالجوع حينما شعر به ، التكلف يُغيِّر من طبع المرء، لذا في كل قصص الأنبياء نجد البساطة عنوان معاملاتهم، رأيناها في قصة يوسف عليه السلام حاضرة ظاهرة قوية، ونراها في أغلب مواقف قصة موسى عليه السلام النبي القوي، لا يرى حرجًا أن يُعبِّر عما بداخله ولو كان رغبة بسيطة في الراحة بعد التعب أو الطعام بعد الجوع .

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ لقد لقينا من سفرنا هذا عناءً وتعبًا، عبّر عما شعر به، إخبار بالحال لا شكوى، ولم يجد النَّصب في جميع سفره حتى جاوز الموضع الذي يريده؛ ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ القائل هنا الفتى يوشع بن نون، يقصد الصخرة التي نام تحتها موسى عليه السلام وتحرك الحوت واتخذ له طريقًا في البحر، وقد كان ينوي إخبار نبي الله بعدما يستيقظ لكنه نسي ، ومضيا يكملان الطريق، فلما أراد نبي الله الراحة تذكَّر الفتى أمر الحوت فأخبره أنه علينا أن نقصد الصخرة التي كنا عندها فهناك كانت الآية التي تُريدها .

﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ في رحلتهما هذه كانت ركيزتها الأساسية هي الحوت، فالمكان الذي يقصدانه علامته أن يفقدا الحوت، ومع ذلك لما فقد الفتى الحوت نسي أن يخبر نبي الله فذكر الخطأ وأعقبه بتقديم العذر.

إذا ما أخبرك أحد يومًا أنه نسي أمرًا لا تلمه، فقد يكون في نسيانه حكمة لا تعلمها وتكشفها لك الأيام، وإذا ما اعتذر لك أحد عن تقصير فاصفح واعف فها هو ذا نبي الله يعلم أنه فقد العلامة التي يريدها وسوف يعود إلى الخلف مسيرة يوم كامل، ولم يلمه أو يعاتبه إنما عفا وصفح وتجاوز، ومضيا في طريقهما نحو الغاية التي يقصدانها، فليس هذا مقام عتاب .

﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ في ظاهره مشقة وفي باطنه رحمة،﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾هكذا يتعامل المؤمن مع أقدار الله، قد يبتليك الله بأمر ويسوق لك بعده خيرًا لا تتوقعه .

﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قد يكون من قول الفتى وهو يقص الخبر لموسى عليه السلام، فيصف له ما حدث للحوت حينما دبت فيه الروح وسلك طريقه نحو البحر بشيء فيه دهشة وتعجب، وقد يكون إخبارًا من الله ـ تعالى ـ لتعجب موسى عليه السلام حينما سمع وصف الفتى للحوت حينما دبت فيه الحياة ، أو تعجب موسى عليه السلام من نسيان الفتى إخباره بما رأى رغم ما فيه من الإعجاز الذي يظل عالقًا بالذهن لا يُنسى.

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ ﴾ القائـل هنـا موسـى عليه السلام يخبر فتاه أن ذلك ما كنـا نريده منذ البداية، أن نفقـد الحـوت حتى نعـرف المكان الـذي نجد فيه العبـد الصالح الـذي أقصـده برحلتي هذه .

﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ رجَعـا يتتبَّعـانِ آثـارَ مَشـيِهما حتـى انتهَيـا إلى الصَّخـرةِ التـي فقـدا الحـوتَ عندهـا، لم يُفكـر في طريـق مختـصر ، لم يُفكـر في وسـيلة أسرع ، بـل تتبـع آثـار مشـيه ليصـل إلى نفـس المـكان الـذي فقـده فيـه، بعـض الأمـور لا تعالجهـا إلا البسـاطة، فقـد يكـون في التفكـير الزائـد تعقيـد زائـد .

قـال تعـالى ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ ﴾ الكهـف [٦٥-٧٠]

﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ﴾ في الحديـث : فَلَـمَّا انْتَهَيـا إلى الصَّخْـرَةِ، إذْ هُمـا برَجُـلٍ مُسَـجًّى بثَـوْبٍ، فَسَـلَّمَ عليـه مُوسَـى، قـالَ: وأنَّـى بأَرْضِكَ السَّـلَامُ! فَقـالَ: أنَا مُوسَـى، قالَ: مُوسَـى بَنِـي إسْرَائِيـلَ؟ قـالَ: نَعَـمْ، قـالَ: هـلْ أتَّبِعُـكَ عـلَى أنْ تُعَلِّمَنِي ممَّـا عُلِّمْتَ رَشَـدًا؟[1]

عـاد موسـى عليه السلام يتتبـع آثار مشـيه حتـى وصـل إلى الصخـرة التي فقـد عندها الحـوت فوجد رجـلًا مُغَطَّـى بثـوب فألقـى موسـى عليه السلام فتعجَّـب الخضر حينـما سـمع التحية وهـو في بلد لا تعـرف هـذه التحيـة، ولم يكـن يعرف أنه نبـي الله بعد، هـذا الذي عَلِم بشـأن السـفينة والغلام والجـدار لم يعلـم بشـأن نبـي الله قبـل أن يُخبره، إنـه لا يعلم الغيـب إنما عَلِـم ما آتـاه الله علمه، فمعرفتـه مقيـدة بـما آتاه الله مـن علم.

﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ الرحمـة أولًا وبعدهـا العلـم، وكأن العلـم لا يـؤتي ثمرتـه إذا جـاء مـن قلـب قـاسٍ، الرحمـة هـي التـي تيسر للعـالم التعامـل مـع النـاس، هـي التـي تكـسر الحواجـز ليقبلـوا عليـه ، قـد يحـوي عقـل العـالِم علـمًا هائـلاً لكنـه لا يسـتطيع أن يُفيـد بـه الخلـق؛ لأنَّـه وضـع أسـوارًا مـن الغِلظـة بينـه وبيـن النـاس.

---

١ البخاري (٤٧٢٧) و مُسَجًّى بثَوْبٍ أي تَغَطَّى به

﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ ﴾ ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ ﴾إذا ما أنعم الله عليك بموهبة فلا تستخدمها في معصية فإنك لم تؤتها بفطنتك إنما هي من عطاء الله، إذا ما تميزت في مجال ما فلا تنسب الفضل لاجتهادك وحده، لتعبك وحده، لذكائك وموهبتك وإبداعك وحده، فإنك لم تؤت كل هذا بكفاحك إنما بعطاء الله لك وإنما أنت مُستخدم له قائم عليه، وإن لم تحسن القيام به فإن سلبه منك أمر يسير ، وكم من قصة قرأنا عنها وسمعنا بها عن تحول النعم إلى نقم حينما تمادى المرء واغتر بما في يديه من نعم الله ، من عطاء الله، من لطف الله فاعتقد واهمًا أنه أهل لها وغدا كقارون في إنكار فضل الله عليه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾[1]

﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ آية تخاطب النفس ألَّا تغتر، أن تكتسي بالتواضع، أن يتنعم المرء بما آتاه الله مِن نِعم تنعمًا لا تجبُّر فيه، لا تكبر فيه، لا غرور فيه، لا ظلم فيه، فمن أعطى قادر على السلب .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ابتدأ موسى عليه السلام الطلب لأنه الذي يحتاج أن يتعلم، ولتطيب نفس الخضر ليقبل، ولن تجد طالب علم تحلى بالتواضع إلا ويسَّر الله له من يُعلمه أكثر مما كان يأمل .

﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ ﴾الذي يطلب أن يصير تابعًا هو نبي من أولي العزم، لم يأت للخضر سائلًا، لم يأت للخضر ممتحنًا له في علمه، بل خلع ثوب الدنيا كله، وجاءه طالب علم يرجو أن يصير له تابعًا، وهو مَنْ هو في الإمامة والفضل والمنزلة ، وهو مَنْ هو في العلم والفهم والمعرفة .

﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ ﴾الذي يريد العلم لن يناله من ساعة قضاها ممسكًا بكتاب، لن يناله من جلسة أمام عالم، لن يناله من نقاش عابر مع مختص في مجال ما، الذي يريد العلم يناله بالجهد والتعب والسعي ، يناله بالالتزام والصحبة والوقت الذي يبذله في سبيل طلب العلم .

---

١ القصص [٧٨]

﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾هو علم اختصه الله به، فالعلم الذي أوتيه الخضر ليس كعلم النبوة الذي أوتيه موسى عليه السلام ، إنما هو علم خصه الله به كعلمه بشأن الملك الذي ينتظر السفينة فإن كانت صالحة أخذها، وبشأن الغلام إن كبر صار عاقًّا أرهق والديه، وبشأن الجدار الذي تحته كنز ليتيمين، فكل ذلك علم غيبي لا يطلع عليه الناس ولم يعلمه موسى عليه السلام وهو نبي من أولي العزم.

﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾في الحديث (قال له الخَضِر: يا موسى، إنَّك على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكَه اللهُ لا أعلَمُه، وأنا على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه اللهُ لا تَعلَمُه)[1]

﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾قال السعدي في تفسيره :كان قد أُعطِيَ من العلمِ ما لم يُعطَ موسى عليه السلام ، وإن كان موسى عليه السلام أعلَمَ منه بأكثَرِ الأشياء، وخصوصًا في العلومِ الإيمانيَّة والأصوليَّة؛ لأنَّه مِن أولي العَزمِ مِن المُرسَلينَ، الذين فضَّلَهم اللهُ على سائرِ الخَلقِ بالعِلمِ والعَمَلِ.

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قبل أن يرى شيئًا من طبيعة هذا العلم يُخبره أنه فوق طاقة تحمله، فوق طاقة صبره حتى يفهم أسبابه .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾أخبره أولًا أنه لن يصبر، وأتبعها ثانيًا بالتماس العذر له ، فقد ترى أمرًا لا تفهم دوافعه فتتصرف على نحو ما تفهم في حدود معرفتك .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾قد يتصدر المرء لأمر لا طاقة له به وحينما تغلبه أمواج الحدث لا يلجأ للمشورة وطلب الرأي إنما يتصرف وفق فهمه وحده، في حينها تكون الهلكة، وقد يتصدر المرء لطلب العلم فتجده يدب بقدميه خطوة في كل وادٍ ولا يمكث في مجال ويعتقد أن هذا أجمع للمعرفة.

---

١ رواه البخاري (٤٧٢٧) واللفظ له، ورواه مسلم (٢٣٨٠).

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾يخبر العبد الصالح نبيًا من أولي العزم أنه يخشى ألا تكون له طاقة على تحمل ما لم يعرفه، ورغم ذلك مضى نبي الله في الأمر وتعلَّم ممن هو أقل منه في الفضل والمكانة، فلا أحد أكبر من أن يتعلم ، ولا أحد أقل من أن يكون لديه شيء يُعلِّمه .إذا ما سعى المرء لحصد قشور المعرفة لن يدرك التميز، فالتميز يأتي بالصبر على مشقة طلب العلم وذلك بالتخصص أولًا ليعرف به أسرار العلم وضوابطه .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ خص الصبر بالذكر وكأن العلم قرين الصبر، وذلك لأن المتعجل لا يحصل على معرفة، يريد جني الثمار قبل أوان الحصاد، فتكون ثماره أقل نضجًا، وأقل فائدة.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾تعددت المشاهد التي قصها الله علينا من حياة نبي الله موسى عليه السلام ، وفي كل مشهد فيها نرى جانبًا جديدًا من شخصيته، حتى لا يظن ظان أن الشدة دأبه الدائم ، رأيناه في حديث المرأتين عند البئر شخصًا محبًا للخير أيًا كان الحال الذي هو عليه، ورأيناه القوي في الحق في جانب آخر من شخصيته كما في حديثه مع فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[1] ونراه هنا شغوفًا بطلب العلم لأقصى درجة، يعرض على الخضر كل ما يُرغِّبه في قبول صحبته، يتمسك بهذه الصحبة حتى أبعد حد، يعزم على التحلي بالصبر والطاعة فإذا ما استحضرت شخصية موسى عليه السلام في كل موقف وجدت جانبًا جديدًا أكثر إشراقًا، ففي أمور الدنيا حليم رحيم، وفي الحق قوي شديد، وفي طلب العلم حريص متواضع ، فسبحان الذي اختص موسى عليه السلام بفضله ووهبه كل هذه الصفات .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾مبدأ الأمر يستعين بالله على تحمل ما لم يقو على فهمه ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾وثانيًا يخبره أنه سيجتهد قدر استطاعته

1 الإسراء [١٠٢]

أن يكـون خـير صاحـب يُطيـع ولا يَعـصي، يُقبِـل ولا يُدبـر، ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾يبذل المرء السـعي قاصـدًا رضا الله ويسـأله القوة في التحمـل والتوفيـق في النتائج .

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ يسـتعين بـالله في أمـره كلـه، يُقـدِّم حسـن الظـن، يتفـاءل، يثـق في معيـة الله، يسـتبشر خـيرًا بهـذه الصحبـة، يفعـل كل هـذا وهـو النبـي المؤيـد بوحـي السـماء، ويجتهـد في إرضـاء عبـد صالـح دونـه في المنزلـة. هكـذا هـم صادقـو النوايـا يترفعـون عـن طلـب الدنيـا ويلتمسـون النجـاة في كل آن .

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ قَبِـلَ الخـضر صحبـة موسـى عليه السلام لكنـه اشـترط عليـه ألَّا يتعجـل السـؤال عـن أي شيء حتـى يخـبره بنفسـه .

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ رسـالة إلى كل مـن دأبـه الاعـتراض عـلى كل أمـر لم يحـط بـه خُـبرًا، إلى مـن يحمـل رأيـا في كل قضيـة تُعـرض عليـه، إلى مـن يحمـل حـلًا لـكل مشـكلة وإن لم يكـن مُلـمًّا بتفاصيلهـا، لا تتعجلـوا مصـادرة كل رأي يخالـف رأيكـم، لا تتعجلـوا الحكـم عـلى أمـر لم تسـتوثقوا مـن خـبره، فقـد تَسـألون وتُجابـون بـما يكشـف لكـم مـا جهلتـم، وقـد يخفـى عليكـم أمـر يعلمـه مـن هـو دونكـم منزلـة وفضـلًا ومكانـة .

قـال تعـالى ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣﴾ **الكهـف** [٧١-٧٣]

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾انطلقـا سـويا يمشـيان عـلى السـاحل فمـرت سـفينة فأشـار إليهـا الخـضر فعرفـه ركاب السـفينة فحملاهـما معهـم بـلا أجـر .

في الحديـث : فَانْطَلَقَـا يَمْشِـيَانِ عَـلَى سَـاحِلِ الْبَحْـرِ لَيْـسَ لَهُـمَا سَـفِينَةٌ ، فَمَـرَّتْ بِهِـمَا سَـفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُـمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَـا ، فَعُـرِفَ الْخَضِرُ ، فَحَمَلُوهُمَـا بِغَـيْرِ نَـوْلٍ (١)

---

١ البخاري (١٢٢)-بغير نول أي بغير أجر

وقبل أن يبدأ الخضر في أول موقف مع موسى عليه السلام أراد أن يلفت انتباهه إلى أنَّ ما سيراه ليس من قبيل علمه، إنما هو فيض من عطاء الله له .

في الحديث : فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ . فَقَالَ الْخَضِرُ يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ . (1)

وهذا مثال لتقريب الأذهان أي أن علم كل الخلائق بالنسبة لعلم الله مثل ما أخذ هذا العصفور من البحر.

﴿ خَرَقَهَا ﴾عَمَدَ إلى لوح من ألواح السفينة فاقتلعه منها وألقى به في البحر، لم يخبر موسى عليه السلام مسبقا أنه سيفعل ذلك، وكان قد اشترط عليه ألا يُعقِّب على ما سوف يراه حتى يخبره بخبره، لكن موسى عليه السلام ما إن رأى ضررًا وقع على أناس لا ذنب لهم، بل إنهم من نبل أخلاقهم قد حملوهما معهم في سفينتهم بلا أجر إكرامًا للخضر أيكون هذا هو الجزاء؟! فلم يحتمل الصبر .

في الحديث:فقال له موسى: قومٌ حَملونا بغيرِ نَولٍ، عَمَدتَ إلى سفينتِهم فخَرَقتها لتُغرِقَ أهلَها؟!(2)

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾نفس دائمة التفكير في غيرها، تغضب للحق، كان على السفينة مثلهم ولم يشُر إلى نفسه مطلقًا، لم يقل لتغرقنا بل ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ غَيرَتُه على الحق كانت أقوى من التزامه بشرطه الذي اشترط على نفسه .

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ لقد أتيتَ أمرًا عظيمًا، وهكذا كل نفس مؤمنة تأبى أي شكل من أشكال المنكر ولا ترضى به.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ذكَّره بالشرط الذي بينهما، ألم أخبرك أن لا طاقة لك على اتباعي؟ وأنك لن تصبر على السؤال لما سترى من أفعال في ظاهرها منكر لأنك لا تعلم ما وراءها وهذا مما اختصني الله به؟

1 البخاري (122)
2 مسلم (2380)

وأعجب ما في دروس الخضر هذه أنها كلها عملية، لم يجلس به في مكان ويُخبره بعضًا مما اختصه الله بعلمه، بل اعتمد على الواقع الحي ليكون أبلغ أثرًا في نفس نبي الله. كما اعتمد دائمًا على المفاجأة لم يُمهد للأمر، بل يقوم بالفعل ونشاهد ردة فعل نبي الله في كل مرة أشد من التي تسبقها، ولم يندفع الخضر لشرح مبررات فعله إلا حينما اشترط موسى عليه السلام على نفسه بعد المرة الثانية إن كررها ألا يصحبه ثانية .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالنسبة لظاهر الأمر فنبي الله يدافع عن حق وينكر منكرًا واضحًا أمامه، لكنه تذكَّر ما أخبره به أولًا أن ما سوف يراه قد لا يطيق الصبر عليه ، فقدَّم اعتذاره أولًا قبل أن يكملا الطريق سويًا .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، في الحديث أن النبي ﷺ قال « كانَتِ الأُولَى مِن مُوسَى نِسْيانًا" (١).

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ لم يجد حرجًا في الاعتراف بخطئه إذ أخلَّ بالشرط الذي بينهما وهو ألا يسأل، والاعتذار لم يكن يومًا مجرد كلمة تُقال إنما إقرار بتقصير ما وأن على المرء معالجته .

﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أرهقه أي حمله على ما لا يطيق، يريد منه ألا يضيق عليه الأمر في صحبته إياه، وألا يؤاخذه بنسيان شرطه عليه، وألا يكلفه مشقةً في تعلمه منه، وأن يعامله باليسر لا بالعسر .

قال تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝٧٦ ﴾ الكهف [٧٤-٧٦]

﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ تجاوز نبي الله الموقف الأول ومضيا سويًا في طريقهما ولم ير نبي الله الجزء الباقي من القصة الذي يشرح له تبعات تصرف الخضر، ذاك الذي أخبر به آخرًا، لقد رأى نبي الله وجهًا واحدًا من الموقف ولم ير الوجه الآخر فكان

١ البخاري (٦٦٧٢)

حُكمُـه الأول عـلى مقـدار مـا رأى، ولـو رأى الصـورة كاملـة لتغـيرت نظرتـه للأمـور في وقتهـا ، ولمـا عقَّـب عـلى تـصرف الخـضر في باقـي المواقـف، وهـذا الـذي أشرنـا إليـه في بدايـة القصـة حينـما تسـتعرض مشـاهدها الثلاثـة تأمـل حكـم نبـي الله عـلى كل مشـهد حينـما رأى جـزءًا مـن الموقـف، وتخيـل حكمـه وردَّة فعلـه بعدمـا عـرف الجـزء الغيبـي مـن القصـة في كل مشـهد ! وهكـذا علينـا أن ننظـر لأكثـر مـا نعجـز عـن فهمـه ممـا يحـدث مـن ابتـلاءات في حياتنـا، فقـد يكـون الجـزء الغيبـي الـذي يكملهـا كلـه خـير، ولـو علمنـاه في وقتـه مـا جزعـت قلوبنـا في أول القصـة .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ هكـذا بـلا مقدمـات، بـلا أي تمهيـد لموسـى عليه السلام، رأى غلامـا فقـام بقتلـه.

﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ رد الفعـل الـذي يملـؤه الحميـة للحـق، دائـمًا مـا يكـون حـاضرًا في كل موقـف لكنـه في المـرة الثانيـة أشـد، أتقتـل نفسـا بريئـة بغـير مـا اقترفـت مـن إثـم تسـتحق بـه القتـل؟ فلْـم يَقتُـل الغُـلام أحـدًا حتـى تَقتُلَـه.

وهـذا الموقـف تحديـدًا قـد نـال مـن نبـي الله أشـد مـن الموقـف الأول، فإنـه ردَّ ولم يعتـذر بالنسـيان لأنـه لم يكـن قـد نـسي إنـما رد إنـكارًا للفعـل ذاتـه، وكأنـما اسـتحضر قصتـه الأولى مـع القبطـي الـذي لم يقصـد بـه الأذى وظـل بقيـة حياتـه نادمًـا مسـتغفرًا عليهـا حتـى في حديـث الشـفاعة أنـه قـال: (وإِنِّي قتلْـتُ نَفْسًـا لَمْ أومَـرْ بقتْلِهـا ، نَفْـسِي نَفْـسِي)[1].

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي جئـت بعمـل منكـر ظاهـر النكـران. في الموقـف الأول عقـب بأنـه ﴿ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ وفي قتـل الغـلام عقـب بأنـه ﴿ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ فـالأول إفسـاد لكنـه لا يعـادل القتـل، فإنـما أتلـف جـزءًا مـن السـفينة بالقـدر الـذي يُحـدِث فيهـا عيبًـا يُزهِّدهـا في عـين الملـك، فهـو في ظاهـره إفسـاد لكنـه لم يترتـب عليـه إهـلاك فعـلي بأهلهـا، فهـو ذريعـة إفسـاد، أمـا في الموقـف الثـاني فهـو إفسـاد قـد وقـع، فهـو قـد رأى طفـلًا يُقتـل بـلا ذنـب فعقَّـب أن هـذا فعـل منكـر، فالسـفينة لم تغـرق وإن حـدث لهـا الإفسـاد أمـا هنـا فالقتـل قـد وقـع بالفعـل؛ فالإنـكار فيـه أشـد .

---

١ البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)

﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ ذكَّـره ثانيـة بالـشرط الـذي بينهـما وزاد ﴿ لَّكَ ﴾ ففـي الأولى ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ ﴾ وفي الثانيـة ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ ﴾ ففـي الأولى كان التقصـير الأول فذكَّـره بالاتفـاق، فلـما تكـرر رد الفعـل ثانيـة ذكـره ثانيـة تذكـير المعاتـب عـلى تـرك مـا اتفقـا عليـه للمـرة الثانيـة، وقـد فهـم نبـي الله هـذا فأعـذره إن هـو عقـب عليـه ثالثـة ألا يُصاحبـه .

﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ علم أنه أخلَّ بوصية الخـضر حينما عقَّب على أفعالـه مرة بعد مرة، ورغم الحرص على الصحبـة إلا أن للمروءة دورًا يجـب ألا يغيـب ، فلـما أحسَّ أنـه أثقل عليه أعطـاه العذر بالفـراق إن كرر تعقيبه عـلى ما يراه. في الحديث أن النبي ﷺ عقبَّ على قول موسى عليه السلام فقال :(رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو لا أنَّه عَجَّلَ لرأى العَجَب، ولكِنَّه أخذَتْه مِن صاحِبِه ذِمامةٌ، قَالَ :﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ ولو صبرَ لرأى العَجَب!!))[1]

﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ لم يطلـب الخـضر الفـراق لكـن حيـاء موسـى عليه السلام منعـه مـن أن يكـون ثقيـلًا عليـه فوضـع بنـدًا جديـدًا في الاتفـاق بينهـما إن هـو عقَّـب عـلى مـا يفعلـه الخـضر أن يفترقـا.

قـال تعـالى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ ﴾ الكهف [٧٧، ٧٨]

﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ كلـما قـرأت هـذا اللفـظ استشـعرت كأنـما أنتظـر حدثًـا جديـدًا، لفظًـا تشـعر بالحماسـة كلـما نطقتـه.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ أتيـا بلـدة طلبـا مـن أهلهـا طعامًـا عـلى سَـبيل الضِّيافـةِ، فامتَنَعـوا عـن ضيافتِهـما، ويبـدو أن توجههـما إليهـا كان عـن قصـد﴿ أَتَيَآ ﴾ أتياهـا لا غيرهـا، ليـس مـرًّا بقريـة أو وصـلا قريـة إنـما أتياهـا فكانـت هـي وجهتهـما ومقصدهمـا.

[1] رواه مسلم (٢٣٨٠). ذِمامة أي: حَياء وإشفاق

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ غالب طباع أهل القرى الجود خاصة مع الضيف، لكن هذه القرية على غير العادة خالفت طباع أهل القرى ، فإذا ما كانت قرية بكاملها بهذا الحال من اللؤم فإن انكشاف أمر الكنز لا يمكن أن يُبقِي للغلامين اليتيمين شيئًا.
فكان تدبير الله أن يسوق إليها موسى عليه السلام والخضر ليقيما الجدار فيطول به الزمان حتى يكبر الغلامان ويستخرجا كنزهما .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ ذكر ربنا أولا أنها قرية، وفي الخاتمة ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾[1] ذكر أن الغلامين في المدينة، والحديث عن الفرق بين لفظ القرية والمدينة في القرآن طويل واجتهد فيه خلق كثير، وربما كانا يعيشان في مدينة مجاورة للقرية وبقي بيت أبيهما في القرية ليعودا إليه بعدما يكبران.
وقد ذكر ابن عثيمين: " أن القرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القَرَى ، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها. فإذا كانت بلدة كبيرة سميت في عُرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سميت في عُرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عرفي فقط "[2]
﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ﴾ طلبا طعامًا لهما، والطلب لم يكن من بعض أهل القرية بل من كل أهلها، فلم يجدا سوى الإعراض عنهما، قال أبو حيان في تفسيره: «وجيء بلفظ ﴿ أَهۡلَهَا ﴾ ليعُمَّ جَميعَهم، وأنَّهم يتبعونهم واحِدًا واحدًا بالاستِطْعامِ، ولو كان التَّركيبُ (استَطْعَماهم) لكان عائِدًا على البعضِ».

﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ نبي من أولي العزم، ورجل من أهل الصلاح والتقوى، ولم يُقدِّرهما الناس، ليس كل الناس أهل فضل، فتقدير الناس أو انتقاصهم لا يُغير حقيقة معدنك شيئًا، مدح الناس وذمهم لا يُغير في حقيقة جوهرك شيئًا، افعل ما تؤمن بصوابه ولا عليك بمن يقبل ومن يرفض، افعل ما تراه صحيحًا ولا عليك بمن يمدح ومن يقدح، الناس لم يجتمعوا على عبودية الله أتراهم يجتمعون على أمر من أمور دنياهم ؟!

١ الكهف [٨٢]
٢ تفسير سورة يس لابن عثيمين (ص ٧٢).

﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ فـماذا كان بعدهــا؟﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ الذيـن يدَّعـون أن الأصـل في المعامـلات المعاملـة بالمثـل هـم واهمون، الـكل يعامـل بمعدنه، بحقيقتـه هـو، بأخلاقـه هـو، بمبادئـه هـو، لا عليـه بمـن أسـاء ومـن أحسـن، لا عليـه بمـن ذم ومـن مـدح، إن هـو عامـل كل قبيـح بمثلـه جمـع مـن القبـح مـا تفـرق فيهـم .

﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ حينـما تقـرأ﴿ فَأَبَوۡاْ ﴾ تشـعر أنـه لم يكـن رفضًـا عارضًـا إنـما رفـض اللئيـم إذا مـا طُلـب منـه جـود فيتمنـع كأنـما روحـه التـي ستخرُج لا طعـام يُقدمـه لغريـب.

﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ لا يبحـث الإنسـان عـن قيمتـه في أعـين النـاس، فقـد تكـون أعينهم كأهـل هـذه القريـة، فـإذا مـا صادفـت سـوء خلـق فـلا تجـزع نفسـك، ولا تتأفـف؛ فنبـي كريـم وعبـد صالـح طلبـا طعامًـا فلـم يجـدا في قريـة بأكملهـا رجـلًا كريـمًا، وإن سـألت أمثالهـم أغرقـوك بعـشرات الأسـباب التـي يوهمـون أنفسـهم بصحتهـا لراحـة ضمائرهـم إن كانـت لديهـم .

﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أي قـرب ودنـا مـن السـقوط، كـما تقـول العـرب: داري تنظـر إلى دار فـلان إذا كانـت تقابلهـا.

﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ هَدَمَـه وبنـاه مـن جديـد ليبقـى زمنًـا أطـول للغايـة التـي يعلمهـا الخـضر ولم يعلمهـا موسـى عليه السلام بعـد.

﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾رأى نبـي الله مـا فعلـه أهـل القريـة بهـما، ومـع ذلـك وجـد الخـضر يبنـي جـدارًا كاد أن يسـقط، فعلَّـق بصيغـة اللـوم التـي تتضمـن سـؤالًا عـلى فعلـه هـذا دون أن يطلـب أجـرًا يشـتريان بـه طعامًـا .

﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ ﴾ أسـلوب رقيـق يحمـل عرضًـا لطيفًـا كان أقـل حـدة مـن التعقيـب عـلى المواقـف التـي سـبقت، لكنـه لم يسـتطع أن يمنـع نفسـه مـن السـؤال ولـو بشـكل ضمنـي كـما في هـذا التعقيـب.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ حين وضعا اتفاقا بينهما التزما به سويًا، حتى في الفراق، لم يقل الخضر هذا نبي الله وأبقي صحبته وكأنما أدرك ألا طاقة لموسى عليه السلام بتحمل ما لم يُحط به خبرًا، فالتزم بما اشترط موسى عليه السلام على نفسه فلما اعترض للمرة الثالثة حدث الفراق وانتهت الصحبة .

﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ حين جاء وقت الفراق لم يتركه للظنون والتخمينات، لم يتركه بلا إيضاح، بل اختار أن يعلل له كل ما أَشكل عليه حتى يرحل مطمئنًا .

﴿ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ سأجيب عن كل تساؤلاتك قبل أن يمضي كل منا في طريقه.

﴿ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ إذا ما اكتنف الغموض تصرفًا ما فأنره بضوء الحقيقة، ولا تترك الأمر للظنون فإنها تأخذ الإنسان إلى أودية الشر وقَلَّما سَلِمَ مِنها بشر.

قال تعالى ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ الكهف [٧٩]

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ مساكين ويملكون سفينة، نعم يملكونها لكن عائدها لا يكفيهم، وما أكثر المساكين في زماننا ويظن الناس بهم الظنون، فقد يملك المسكين مالًا لكنه لا يبلغ كفايته، لذا رغم أنه يعمل ورغم أنه يملك سهمًا في سفينة ظل مسكينًا، فلا نغتر بالظاهر ونتقصى أحوال من ضاق بهم العيش ويتعففون عن القول أو الطلب ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (١).

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾أُحدث فيها عيبًا ظاهرًا لئلا يستحسنها الملك فيأخذها ظلمًا.

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ رغم أنه لم يفعل ذلك إلا بعلم علمه الله إياه لكنه نسب العيب لنفسه﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ .

---

١ البقرة [٢٧٣]

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾وراءهم هنا معناها (أمامهم) أي أنهم سيلاقون ملكًا ظالمًا لا يدع سفينة صالحة إلا أخذها بغير حق.

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾ أتدري من الذي يظلم؟ من الذي يأخذ المال غصبًا؟ ليس قاطع طريق، ليسوا لصوصًا يتربصون بهم، إنما من يقوم على أمرهم ، من عليه حمايتهم هو سبب شقائهم، من عليه حفظ أموالهم هو من يأخذها ظلمًا، حاكم ظالم في زمان غابر لا نعلم عنه شيئًا لكن مِن قُبح ظلمه وسوء صنعه ذكره الله في كتابه بصفة يبغضها كل مؤمن سوي ليقبِّح الظلم في أعيننا حتى ولو كان الظلم بسيطًا، ولو كان حق الغير سفينة صغيرة يعمل عليها مساكين يرتزقون منها .

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾ الآن اختلفت الصورة أمام نبي الله موسى عليه السلام، الآن حينما رأى الصورة مكتملة تغيرت نظرته، تغير حكمه، تغير تقديره للأمور، الآن نفهم أن ثورتنا الداخلية على بلاء وقع بنا قد لا تكون مبررة، قد نكون بحاجة إلى يقين يُهذبها، إلى إيمان يربطنا بتدبير الله، إلى حُسن ظن في لُطف الله .

قال تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ الكهف [٨٠، ٨١]

﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ ﴾ قال قتادة : «قد فرح به أبواه حين وُلِد ، وَحَزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب» .[1]

﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴾ هذا مما اختصه الله بعلمه، فوالدا الغلام أهل صلاح وبر وتقوى، والغلام في علم الله ليس كأبويه فمن لطف الله بالوالدين أن يحزنا على فقده صغيرًا خير من أن يحملهما على الكفر كبيرًا أو يشقيا بطغيانه.

١ تفسير ابن كثير للآية

في الحديث (أن يَحمِلَهما حُبُّه على أن يُتابِعاه على دِينِه)[1]

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ﴾ آية ترمم ضعف القلوب التي حزنت من فقد شيء، ليس كل فقد خسارة، ليس كل فقد يستحق الحُزن، فما يدريك لعل الله قد أراد أن يبدل لك ما فقدت بخير آت ولولا الفقد ما جاء .

﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ يموت الصغير الآن فيحزنان، ثم يعوضهما الله بخير منه صلاحًا في الدين والدنيا فتقر أعينهما به.

في الحديثِ (هما به أرحَمُ منهما بالأوَّلِ الذي قَتَل خَضِرٌ) [2]

قال تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾ الكهف [٨٢]

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ نرى هنا لطف الله، تدبير الله، غلامان يتيمان لا حول لهما ولا قوة، يرسل الله لشأنهما نبيًا كريمًا وعبدًا صالحًا ليقيما جدارًا يحفظ لهما كنزهما حتى يكبرا، عطاء الله قد لا تدركه في حينه، لكنه حينما يأتي يغمر القلب بالرضا، فالغلامان قد يكونان يلهوان كما يلهو الاطفال والخضر يقيم لهما الجدار ليحفظ لهما مالهما .

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يروي لنا ربنا قصة من غابر الزمان، يسجل في كتابه خبر يتيمين مات عائلهما فسخر الله موسى عليه السلام والخضر ليحفظا أمر كنزهما، أتراه يخفى عليه حالك، يعجزه تدبير أمرك ! النفوس المطمئنة تأنس لتدبير الله، لا يشغلها استحالة الأسباب حينما تعلم أن من أوجدها قادر على تغييرها .

﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ قيل أنه كنز من ذهب وفضة، وقيل أنه كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه علم ووصايا ، والمعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يكنز من مال.

١ رواه البخاري (٤٧٢٦).
٢ رواه البخاري (٤٧٢٦)

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ كان صالحًا لكنه مات،فحفظ الله أبناءه بصلاحه، الصلاح نجاة في الدينا والآخرة، نجاة للنفس والذرية، نجاة في الحياة وبعد المات .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ حُفِظ المال بصلاح أبيهما، وأما هما فكانا يتيمين لم يبلغا بعد، فُحفِظا وحُفِظَ مالهما بصلاح أبيهما، وهذا من الثواب المعجل للمؤمن، فالمؤمن يثاب عاجلاً وآجلاً، فمن الثواب المعجل أن يحفظ الله تعالى ذريته به، ومن الثواب المعجل الثناء الحسن، والرؤيا الصادقة يراها المؤمن أو تُرى له.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ كان صالحًا وكان له كنز قد خبأه لأبنائه، الصلاح لا يتعارض وحُسن التدبير في المعيشة، الصلاح لا يتعارض وادخار بعض المال للأبناء، الصلاح لا يتعارض والتفكير في تأمين مستقبل الأبناء بالقدر الذي تيسر ولو كان قليلًا، الذي يتعارض مع كل هذا أن يؤمِّن المرء حياة أبنائه من سعي بلا صلاح، من مال قد اختلط بحرام، فالله لا يحفظ الأبناء بكسب الآباء إنما بصلاحهم .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ كان صالحًا في بلدة شاع فيها البخل واكتسى أهلها باللؤم لكنه حافظ على صلاحه في بيئة خصبة للانحطاط الخُلقي، ليعلم كل معتذر بفساد من حوله أن البيئة مهما بلغت من فساد فإنها تعجز عن صرفك عن الهداية إن اتخذتها سبيلًا، فمن يرد الصلاح يعنه الله عليه ولو كان في بيئة متشبعة بالفساد .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ يحفظ الله الأبناء بصلاح الآباء لا بكسبهم، لا أن يقصروا اهتماماتهم على تأمين معيشة هانئة وحياة راغدة ولا يهتمون ببنائهم الإيماني، بسلامة عقيدتهم، بطيب كسبهم في الحياة. التربية المبتورة تضر لا تفيد، اصنعوا لأبنائكم همًا يليق بهم ، علموهم أن الخير في أن يكون الشخص سويًا في أخلاقه وفي عقيدته قبل أن تفكروا في بناء منزل له أو وظيفة يعمل بها ، فلا حاجة للمجتمع بمنصب مرموق يجلس فيه شخص غير سوي ، ولا حاجة لابنتك في زوج سيئ الخُلق يفسد عليها حياتها فتجني ثمار فقر والديها في الفقه والعقيدة.

سرق شاب فأمر القاضي بقطع يده فصرخ الشاب وقال: اقطعوا يدَ أمي لأنني وأنا صغير سرقت بيضة فتهلل وجهها وضحكت لي.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ في فترة من الفترات كلما خرجت من المسجد في صلاة الفجر رأيت امرأة ملتحفة بالسواد تجلس بالقرب من المسجد بعد صلاة الفجر كل يوم، وفي يوم رأيتها تستقبل ابنها الصغير وهو خارج من المسجد وباهتمام بالغ تسأله (هل حمدت الله أن وفقك لحضور الجماعة ؟) تُحضِر ابنها الصغير كل يوم لصلاة الفجر لئلا تثقل عليه في الكِبر فيرى في النوم عنها خيرًا ، عدت أفكر كيف لأم في زماننا هذا أن تصنع هذه الهمة في قلب صغيرها ولم يقطعني عن التفكير إلا كلمات قرأتها في نفس اليوم كأنها رسالة تؤصل الفكرة وترد على تساؤلي فقرأت « النساء مصانع الرجال، البخاري ربته أمه، الشافعي ربته أمه، أحمد بن حنبل ربته أمه، محمد الفاتح ربته أمه، الحافظ بن حجر ربته أخته، وابن تيمية كانت أمه تُسمى تيمية وكانت واعظة فنُسب إليها وعُرِف بها».

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ أن يكبرا ويعرفا قيمة المال فيحسنان التصرف فيه، فإن سقط الجدار وهما صغيرين هلك المال في قرية أبت أن تُطعم ضيفين أتراهم يتعففون عن أكل مال يتيمين؟!

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ لم يأت العطاء في صغرهما لأنه إن أتى أضر ولم ينفع، وهكذا بعض الأمور في حياتنا قد نتألم لتأخرها ثم تأتي ونحن أكثر استعدادا لها، أكثر قبولًا لها، ولو جاءت في البداية ربما إن لم تضر ما كانت لتنفع .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ ليس الآن، لأنهما ليسا مؤهَلَين للعطاء، أبقاه الله لأن في بقائه مدفونًا بباطن الأرض نفعًا عن إخراجه فوق ظهرها. قد يخبيء الله عنك خيرًا لكنه لا يمنعه، فقط يؤخره إلى حين ثم يأتي وأنت أكثر استعدادًا له .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾حين كان الفعل في ظاهره عيبًا نسبه لنفسه﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ولما كان خيرًا وفيضًا من عطاء الله رده لله ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾

﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ لم يدم الشقاء عليهما بل رزقهما الله فرجًا أزال به كل قسوة لقياها.

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ كل الابتلاء الذي مر على هؤلاء كان في حقيقته رحمة، فكم من ذنب قد غُفِرَ بصبرٍ على البلاء، كم من سِتر أنزله الله بصبر على البلاء، كم من عافية ساقها الله بعد صبر على البلاء، كم من رِزق ساقه الله بعد صبر على البلاء، لا تجزع وتنتظر العطاء فالأنفس الساخطة على كل قضاء لن تهنأ يومًا بخير الصبر بعد البلاء . الصبر هو القبول بأن الأمور يمكن أن تتحقق بترتيب يختلف عن الذي تظنه في عقلك.

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ رحمة تُطمْئن القلوب فلا تجزع بعد مصيبة ولا تغتر بعد عطاء رحمة تُلين القلوب فلا تقسو ، ما ألطف الله بعباده ! يسوق إلينا قصصًا يؤدبنا به، يُربِّي في نفوسنا كيف نأنس لركن الله ، يسوق إلينا قصصًا من واقع حياتنا ليرينا كيف يدبر أمر عباده، كيف أنه لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، كيف أن ما نجهل عِلَّته يحمل لنا خيرًا مؤجلًا لو ظهر في وقته ما حقق غايته فيؤخره إلى حين.

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ ليس تصرفًا شخصيًا بل هو من أمر الله لي، وفي هذا إشارة إلى أنه كان نبيًا .

﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿ تَسْطِع ﴾ بحذفِ التاءِ، بينما قال في الآيةِ الأُولَى ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ بإثباتِ التَّاءِ؛ فأثبت التاء في فعل ﴿ تَسْتَطِع ﴾ ليتناسب وثقل الهمّ النفسي عند موسى عليه السلام بعدما شاهد ثلاثة أفعال مثيرة للحيرة ، وحذف التاء في ﴿ تَسْطِع ﴾ في المرة الثانية أدّى إلى تخفيف الفعل ، وهو يناسب التخفيف في مشاعر موسى عليه السلام ، وزوال الهمّ بعدما علم دافع كل فعل . قال ابن كثير « قابلَ الأثقلَ بالأثقلِ، والأخفَّ بالأخفِّ »[1]

---

١ تفسير ابن كثير:٥/١٨٨



قارون مع نبي الله موسى عليه السلام



رأينا في قصة موسى عليه السلام صورًا مختلفة من التجبر على الخلق الذي جاوز الحد فغدا طغيانًا ، فرأينا صورة من طغيان السلطة متمثلة في شخصية فرعون ونرى هنا طغيان المال في شخصية قارون، والأسماء لا تشكل فارقًا فما جاءت إلا كرمز يقبل الاستشهاد به لنرى كل طاغية بمال هو قارون زمانه، ولعل الدرس الأبرز في قصة قارون أن نعلم أن الله يُعطي الدنيا من يُحِب ومن يكره، يُعطي من يحب اختبارًا ويُعطي من يكره اختبارًا، فالعطاء ليس تفضيلًا، إنما ابتلاء، يرزق الله العبد ليرى ما هو صانع، فنجد من يغتر ويتجبر ونجد من يشكر ويتصدق، هنا تأتي المفاضلة، مفاضلة النتائج لا العطاء في حد ذاته، فالمال يهبه الله البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا العطاء عنوان رضا ولا المنع عنوان سخط، فقد يملك المال عفيف نفس فيؤدي حقه، وقد يملكه خبيث نفس فينسبه لنفسه، لسعيه، لكفاحه في الحياة ، ولا حق للناس فيه. في الحديث أن النبي ﷺ قال: (إن اللهَ عزَّ وجلَّ يعطِي الدنيا مَن يُحبُّ ومَن لا يحبُّ ولا يعطِي الدينَ إلا مَن أحبَّ فمن أعطاه اللهُ الدينَ فقد أحبه)[1]

وقارون لم يكن من أهل مصر إنما كان من بني إسرائيل، وقيل إن له قرابة من موسى عليه السلام وأنه عمه أو ابن عمه، وكان قد آمن به، لكنه إيمان ظاهري لا حقيقي، فحين جاء الوقت الذي عليه أن يترجم هذا الإيمان بالفعل لا بالقول اتخذ طريقًا مخالفًا، طريق الاغترار بما بين يديه من الكنوز وكل من حوله ينتظرون عطاءه. آتاه الله ثروة عظيمة فاغتر بها وأنكر فضل الله عليه فنسبها لعلمه وكسبه، وقد ساق الله إلينا بعض خبره في القرآن كما ساق إلينا بعض خبر فرعون ، ثم ساق إلينا خواتيم قصتهم، فلم ينفع فرعون جنوده ولم ينفع قارون كنوزه، ولم تشفع له قرابته من موسى عليه السلام حين وقع عليه العذاب.

---

1 مجمع الزوائد:(١٠/٢٣١) وقال الهيثمي :رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف

قال تعالى ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾ **القصص** [٧٦، ٧٧]

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ ﴾ قال ابن عباس وغيره إنه ابن عم موسى، فهو من بني إسرائيل وقد ناصب موسى عليه السلام العداء حسدًا منه عليه، وكان من ملأ فرعون ينتصر له، فبعض المفسرين قد ذكروا أن فرعون جعل قارون رئيسًا على بني إسرائيل في مصر، فجمع ثروة عظيمة .

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ ﴾ كان من قومه ولم ينصره، لم يؤيده، لم يدعمه، واهمون من يعتقدون بانتماءات العصبية، فموسى عليه السلام خذله قارون وهو من قومه، ونصره رجل من قوم فرعون حينما جاءه ناصحًا﴿ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.
قال ابن عاشور : (في إضافة " قوم" إلى " موسى " من الإيماء إلى أن لقارون اتصالاً خاصًا بموسى فهو اتصال القرابة) .

وقد رأينا في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن عمه أبا لهب كان غنيًا، وقد اتخذ ماله وسيلة لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والدعوة، وكان قومه أشد الناس عداوة له وأيده أناس من يثرب لا تصله بهم أرحام ولا قرابات، فخذلان أقارب الرسل لدعوتهم ومحاربتها ليس بالجديد .

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبى أَشَدُّ مَضَاضَةً   عَلى المَرْءِ مِن وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

﴿ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ البغي هو مجاوزة الحد، ولم تأت صورة لهذا البغي لنفهم أنه بغي متعدد ليس بصورة واحدة فقد بغى بماله قولًا وفعلًا.

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ ﴾ آتيناه، إنه عطاء من الله، والله يعطي البر والفاجر، يختبر بالفقر ويختبر بالغنى، ليصبر الفقير ويشكر الغني، هذه هي الصورة التي يريدها الله من عباده، فإذا ما جاءوا بها فازوا، وإذا ما ناقضوها خسروا، وقد تجد فقيرًا متكبرًا ، وقد تجد غنيًا لا يشبع، تحول طلب المال عنده لنهم فلا يؤدي حقه ولا يشكر ربه ولا يشغله إلا الزيادة، فلكل زمان قارونه، وذلك لضعف النفس في التعامل مع الابتلاء، فالفقر ابتلاء والغنى أيضًا ابتلاء.

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ ﴾ في الغالب لا يكتنز الإنسان إلا ما فاض عن حاجته، فالاكتناز يأتي بعد الرفاهية، أما الذي يكتنز مع حاجته فذاك شُح يقتص من قُوتِهِ ويدخر بخلا .

﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾ ليس مفتاحًا واحدًا إنما مفاتيح لأنها خزائن متعددة، وذلك لوفرة المال وكثرته، فالمفاتيح كانت لكثرتها وثقلها يئن من حملها الجماعة من الرجال .

وحين نقرأ هذا الوصف ترتسم في مخيلتنا مفاتيح ضخمة يستعصي على الرجال حملها، لكن هذا زمان غابر لا ننقل تفاصيله المادية لواقعنا المعاصر ونقيس بها، بل نعود بها لزمانها فكان في حملها مشقة لأهل زمانه ربما لكثرتها، ربما لثقل وزنها إن كانت من معدن، المهم أن هذا المعنى يوضح لنا حجم الثروة التي أوتيها قارون ولم يحسن استغلالها إنما أساء التصرف فيها فكانت وبالًا عليه.

﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾ كان هذا الثراء في زمان فرعون ولم يتعرض له رغم أنه من بني إسرائيل الذين اتخذهم أعداءً له ، وذلك لأن الأفكار تلاقت، فغاية اكتناز المال في يد قلة من الناس تجعل البقية منشغلين بأسباب رزقهم فقط، فينصرفون عن خوض البحث عن حاجات أعلى من قوت اليوم، عن التفكير في المعتقدات والانتماءات، عن الحق والباطل، لن تجد من يهتم بقراءة كتاب وهو منغمس في البحث عن قوت يومه، فالناس لا يفكرون في حاجاتهم العليا إلا بعدما يطمئنون لتوفر حاجاتهم الأساسية من مقومات الحياة، لذا حين نقرأ قصة قارون نرى نموذجًا من طغيان السلطة متمثلًا في فرعون الذي صنع نموجًا من طغيان المال متمثلًا في قارون .

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾قال له بعض عقلاء قومه نصحًا له لا تغتر بما لديك، لا تبطر بما آتاك الله من مال، فالله لا يحب أن يؤتي عبده نعمة يتكبر بها على الخلق ولا يؤدي شكرها فتكون أداة للإفساد ، وعونًا على الإذلال، وفتنة يُضَل بها خلق كثير.

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ليس المقصود بالفرح السرور وطيب النفس، فذلك محمود غير مذموم، إنما فرح الاغترار بالنفس والزهو بها والتكبر على الخلق، فرح الثروة التي يذل بها رقاب الفقراء، التي يتجبر بها على الخلق، هذا هو المنهي عنه، أن تكون نعم الله وسيلة للإفساد لا للإصلاح.

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ كل نجاح وصلت إليه، كل إنجاز حققته، اجعل مرجعه لفضل الله، عود قلبك على التواضع لحظة الإنجاز لئلا يسكنه العُجب، اكسر غرور النفس بالسجود ، اكسر قسوة القلب بالإنفاق، اكسر شهوة حب الذات بالصبر على مخالطة الناس وتقديم العون لهم قدر استطاعتك، افعل الخير وحدِّث قلبك أنك تبتغي الدار الآخرة .

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾أن تكون عينك على الآخرة، أن يكون عملك مرتبطًا بالآخرة، أن يكون همك متجهًا للآخرة، أن تربط القول والفعل والسلوك بالآخرة ، أن تستثمر عطاء الله للفوز بالآخرة، أنعم عليك بالمال فوجه همتك للخير، تصدق وأحسن للناس ليس للناس ولا لإرضائهم إنما يكون القصد لله، أن يكون القلب متعلقًا بوعد الله.

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فالتعلق بالآخرة ليس معناه الانصراف عن الدنيا، ليس الصلاح أن تعتزل الناس إنما أن تخالطهم، وتتحمل أذاهم، وتعين ضعيفهم، وتطعم فقيرهم، وتأخذ بأيديهم للخير، لست مطالبًا أن تُنفق كل ما في يديك مساعدة للناس بل خذ حظك من الدنيا لكن لا تجعل هذا الحظ يصرف همتك عن الغاية التي تستحق، فعند الآخرة﴿ وَٱبۡتَغِ ﴾لأنها الأساس، وعند الدنيا﴿ وَلَا تَنسَ ﴾لأنها وقتية .

﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾لم يكن عندك فأعطاك الله، فكما أحسن الله إليك يريد منك أن تُحسن إلى الناس، ولا تزول نعمة عن عبد يؤدي حقها بالشكر والإحسان. من أعطاه الله نعمة ولم يسعد بها فلأنه لم يؤدِّ شكرها .

﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾بـأن تجعـل مـا أتـاك الله إفسـادًا لا إصلاحًـا، فـلا فقـير أعنـت ولا لشـأنه تركـت، إنـما تجـبرت عليـه بسـطوة مالـك، فـلا عونـك قدمتـه لـه ولا شرَّك كفيتـه عنـه.

وهـذه النصائـح الخمسـة التـي قدموهـا لـه لخصـت أغلـب قضايانـا المعـاصرة، ففـي الأولى ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ ﴾ لا تفـرح بـما أنـت فيـه مـن النعيـم فرحًـا يطغيـك، ويجعلـك تذكـر النعمـة وتنسـى المنعـم.

وفي الثانيـة ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ توجيـه إلى الراكنـين إلى الدنيـا المتعلقـة قلوبهـم بهـا أنهـا ليسـت الغايـة والقصـد، إنـما هـي فـترة عابـرة ثـم إلى حيـاة أخـرى تجنـي فيهـا ثـمار مـا زرعـت فـازرع خـيرًا تحصـد خـيرًا.

والثالثـة ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ تخاطـب الذيـن يعرضـون عـن الدنيـا أن القصـد ليـس الإعـراض وليـس التمتـع بطيبـات الحيـاة إنـما القصـد ألا يتعلـق القلـب بهـا، ألا تكـون مبلـغ غايتـه ولا مـصرف همتـه، تمتـع بالطيـب الحـلال ولتكـن عينـك عـلى الغايـة التـي تسـتحق، لـذا كان مـن دعـاء عمـر «اللَّهـم إنـا لا نسـتطيع إلا أن نفـرح بـما زينتـه لنـا، اللَّهـم إني أسـألك أن أنفقـه في حقـه»

والرابعـة ﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ تخاطـب كل ذي نعمـة أنهـا مـن عطـاء الله، فـلا تجعـل عطـاء الله عونًـا عـلى حرمـان حـق العبـاد فيـه .

والخامسـة ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ألا يكـون المـال عونـا عـلى الإفسـاد في الأرض والإسـاءة إلى الخلـق .

قـال تعـالى ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ القصـص [٧٨-٨٠]

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾كل ما لدي مِن نِعم هي من كسب يدي، هي من ثمار عملي، هي نتيجة كفاحي، هي من جهد السنوات، هكذا نسمع حتى الآن، فلسان قارون قد امتد عبر الزمان، هذا المنطق الذي يردده كل قارون، إذا ما سمع نصيحة استكبر أن ينصحه من هو أقل منه مالًا ومكانة، وكأن لسماع النصيحة شرطًا أن تتساوى الرؤوس، ورد قارون يُعبِّر عن منطق مادي متأصل في نفوس كثير من الناس، الذي أوتي من بعد منع، الذي اغتنى من بعد فقر، تجد تأففه من العطاء تأففًا داخليًا ليس خارجيًا فحسب، تجده يتأفف من المساعدة، يتأفف من سماع شكوى فقير، يتأفف من نصيحة تُرَغِّبه في الإنفاق، إنه تأفف القلب عن الخير لأن للمال سطوة على القلب إذا ما تمكنت منه قَسَّته .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ حين يحمد المرء ربه ينبغي ألا يكون لفظًا مجردًا إنما إيمان قلبي بأن العطاء من الله، نتباهي بالمال ويغفل القلب أن الرزاق هو الله، نتباهي بما تملكه أيدينا وننسبه إلى أنفسنا وننسى أنه من عطاء الله، ننكر صنيع قارون وتخوننا ألفاظنا كل يوم بمثل صنائعه ، نبغض كل قارون وقد تخوننا بعض أفعالنا باستعلائه وغروره.

المؤمن حين يكسر غرور نفسه فهو لا يتواضع ، بل يُقر بصنع الله والشكر له.

حَمَلَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قِربة على عنقه، فقيل له في ذلك فقال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ الإنسان بطبعه يُحب الحديث عن نفسه، عن نجاحاته، عن إخفاقاته كيف تجاوزها، عن المِحن كيف صنعت منه شخصًا أكثر نضجًا وأقوى تحملًا وأشد صبرًا، كل هذا ليس مذمومًا إنما المذموم أن يغتر الإنسان بذاته، بنجاحاته، أن ينسى أن كل هذا من فضل الله عليه، من عطاء الله له الذي لولا عونه ما تجاوز كل هذا وما حقق شيئًا مما كان يصبو إليه، لا تعتقد أنك تنجو بفضل ذكاء ولا حُسن تدبير منك، بل إنه تيسير الله لك ولو تركك لنفسك لأهلكتك .

دخل أعرابيٌ على هارون الرشيد فقال: «يا أمير المؤمنين! ثبَّت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقَّق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرَّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها».
فأعجب الرشيد كلامه وقال: ما أحسن تقسيمه.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ وقارون إنما يمثل منهجًا قد أصّله فرعون من قبل ، منهج الاغترار بالذات ، ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [1]

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ ولا يُعلَم مصدر هذا الثراء الفاحش لقارون، أهو من انتفاعه بجوار فرعون ، أم هو رزق سيق له كابتلاء واختبار.
قال ابن كثير " وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم، فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصبغة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافرًا في الباطن، منافقًا في الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم». [2].

﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ ﴾ يخاطبنا الله لنربط العبرة بواقعنا، يخاطبنا الله لننتبه أن الغاية ليست سردًا عابرًا لقصة مضى زمانها إنما تأصيل لمنهج الله في التعامل مع كل متكبر أيًّا كان زمانه، أيًّا كانت قوته، أيًّا كان سلطانه، إنها لنا ، لكل نفس مالت للدنيا شيئًا، لكل قلب كاد أن يعوج، لكل عقل أُعجب بفطنته. الذي أهلك الأولين بظلمهم قادر على أخذ الآخرين ببغيهم ، والذي خسف بقارون قادر على سلب النعم بعد عطائها .

---

١ الزخرف [٥١]
٢ قصص الأنبياء ٣٣٦

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾من هنا تأتي الضغائن، من هنا تُزرع الأحقاد في النفوس، حُب التفاخر ، حُب التباهي، أعطاه الله المال فلم يُحسن إلى الناس به، ثم لم يكف أذاه عن الناس فجعل ماله إذلالًا لهم، ثم هاهو ذا يتفاخر به على فقرائهم، فإذا اجتمعوا خرج عليهم بكامل زينته، كأنما يستعرض ما لديه على أعينهم ، وهو أعلم الناس بفقرهم واحتياجهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾بعض الناس يأسرها التباهي، تضع أقدامها في كل وادٍ يزيدهم في أعين الناس إجلالًا، قضيتهم تقدير الناس وغايتهم ثناء الناس ، أخرجوا الله من كل حساباتهم .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله يستنكر صنيعه وأفعاله قائلاً: «غرني مجالستك العلماء وعمامتك السوداء وإرخاؤها من وراء ظهرك».

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾
هذا جواب الصنف الأول من الناس، الذين تخدعهم المظاهر، الذين تأخذهم النفس لكل وادٍ فيه هلاكها، يرون ما هو فيه من الثراء وما هو عليه من التجبر والطغيان ويمنون أنفسهم بمثل حاله، المظاهر تخدع، العيون التي تنبهر بما عند الغير تعجز عن التدقيق فيما لديها من نعم .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ إذا ما رأيت صاحب نعمة فلا تدقق فيما عنده فإنك لا تدري أهي خير يُجزَى عليه أم شر يُؤخَذ به .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ أهل الدنيا يُفتَنون بكل بريق يأخذ بأعينهم، لا تعنيهم القيم، لا ينشغلون بالمبادئ، لا يعتقدن بصلاحها وجدواها، إذا ما حَدَّثتهم عنها أعرضوا وربما سخروا، فإذا ما تعرضنا لمثل هذا المشهد في زماننا هذا ستجد أنصار هذا الجواب هم أكثر الناس، وسوف تجد مبررات قد لا تجد الوقت لسماعها من كثرتها، إنهم مبدعون في إقناع أنفسهم بصواب نظرتهم المادية ، إنهم مقتنعون بأن الحياة مع المبدأ لا تجدي نفعًا، والفريق الثاني الذي زكى الله جوابه دائمًا ما تجدهم القلة، التي تنتصر للقيم على المادة، تنتصر للجوهر على المظهر .

﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾طالبو الدنيا يلهثون خلف أي بريق ولو كان خدّاعًا، والمرء لا يأمن الحُكم على نفسه إلا حينما تُبتلى ، ففي الرخاء كل الناس أئمة وقدوات، فإذا ما نزل البلاء تمايزوا .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾الفريق الآخر الذي لم يفتنه ما رأى من زينة وتفاخر ، الذي رأى قارون على حقيقته أنه طاغية طغى بماله وتجبر على الخلق، قاموا ناصحين لقارون أولًا ثم هم أولاء ناصحون لأصحاب الدنيا ، لمن أخذتهم المظاهر ، قاموا في ميدان الحياة يصححون إعوجاجه، لم يركنوا إلى صوامعهم، لم يتأففوا من مخالطة فقراء الرأي والعلم، بل قاموا يوجهون، ينصحون، يُصححون المفاهيم، يُظهرون الحقائق.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ ﴾لم يخبرنا ربنا بحديث من نبي الله لقارون، إنما ساق لنا أحاديث بعض ممن نصحوه، ولما جاءت نصيحتهم من قلب يملؤه الإيمان خلدها الله في كتابه، وربما يكونون قد قالوها في مشهد بسيط في حديث جانبي بجوار المشهد الأبرز الذي خرج فيه قارون بكامل زينته يستعرض ثروته على أعينهم تباهيًا وتفاخرًا عليهم، لكن الله قد خلَّد الحديث الجانبي بكل تفاصيله وأعرض عن المشهد الأساسي فلم يشر لأي من تفاصيله، وكذا كل موقف صادق، كل كلمة صادقة، كل نصيحة صادقة، كل أمر بمعروف صادق، كل نهي عن منكر صادق، قد يصدر من قائله وتمضي به الحياة وينساه لا يذكره لكنه عند الله موقف ذو شأن يحفظه الله ويجازي به.

وقد حدث مثل هذا مع بعض الصحابة في موقف كان في نظرهم عابرًا بسيطًا لكنه كان صادقًا فشاء الله أن يخبر نبيه به. خَرج النبي ﷺ عَلَى حَلْقة مِن أَصحَابِه، فقال: مَا أجلَسَكُم ؟ قَالُوا: جَلَسنا نَذكرُ اللهَّ وَنَحمَدُهُ على ما هَدَانا لِلإِسلام ، وَمَنَّ بِهِ عَلَينا ، قال: آللهَّ مَا أَجْلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ ؟ قَالُوا : وَاللهَّ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ ، قال: أَمَا إِنِّي

لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُم، وَلَكِنَّهُ أتَانِي جِبريلُ فأخبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ[1] حين يتزين الفعل بصدق القلب فإنه لا يمر عابرًا كما يظن صاحبه، وإن لم ينل الجزاء في حينه .

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾آية تخاطب الواهمين الذين يعتقدون أن الآخرة لكل امرئ وإن لم يعمل. الحياة أكثر هشاشة من أن تتكئ على جدار أملها وتُعلِّق نفسك بأيامها .

قال تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ القصص [٨١-٨٣]

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾كان يتعالى على الناس فجاءه العقاب بالخسف ، خسف الله به وبداره الأرض فلم يعد يُرى له أثر .

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾فكل متكبر يغتر بما بين يديه من أدوات القوة ، من مال ومنصب وحسب وجاه؛ لكن لا شيء من كل هذا سيحول دون وقوع عذاب الله به.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾الفئة الأولى التي كانت بالأمس تتمنى لو أن تصبح في مثل حاله لما رأوا ما وقع به من العذاب الآن فهموا كيف توزن الأمور، ذهب بريق الأمس الذي فتن أعينهم، علموا أن عاقبة الظالمين إلى هلاك، علموا أن المال والسلطة والقوة لا تحول دون وقوع عذاب الله، علموا أن عطاء الله ومنعه ليس دليل فضل إنما هو اختبار ، بسط الله الرزق لقارون فبغى به فأخذه الله بذنبه، فتبين لهم أن بسط الرزق لقارون لم يكن الخير فيه.

---

١ رواهُ مسلمٌ ٤٩٩٨

﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ الثقة في تدبير الله هي ما تُكْسِب القلب الطمأنينة، فالذين تمنوا ما بين يدي قارون كانوا ساخطين على ما بأيديهم من النعم، على ما رزقهم الله وإن كان فيه قلة، ففي العطاء حكمة وفي المنع حكمة، ولو بسط الله لهم الرزق لبغوا فأخذهم ببغيهم، فكان في التضييق عليهم رحمة بهم وخير لهم ، لكنه خير آجل لم يروه بعد.

﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾لولا لطف الله بنا لحاسبنا على ما قلنا، على ما تمنينا، تغيرت أفكارهم، تبدلت مواقفهم لما رأوا عاقبة التكبر، والله يقص لنا لنعتبر، لا لننتظر حتى نرى العاقبة ثم نعتبر، فقد لا تأتي في حياتنا ونُجازى على ما قدمنا.

﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾كم من أمنية شاردة في ظلمات ليل تمنينا بها حرامًا وعصمنا الله منها، كم من فكرة جالت في أذهاننا كانت ترسم لنا طريقًا للحرام وحال الله بيننا وبينها، كم صرف الله عنا من سوء، كم عافانا الله من ابتلاء، لولا أن مَنَّ الله علينا لهلكنا.

﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾كل ما مُنع عنك ضعه بجوار أمنيات هؤلاء القوم، لو تحققت أمنياتهم لخُسِف بهم مع قارون، ليس كل منع ابتلاءً، فقد يكون الخير كله في المنع، قد يكون اللطف كله في السلب، قد يكون تدبير الله لك في أن يمنع عنك شيئًا تعتقد أن فيه خيرًا لك بظنك وفكرك المحدود، ويحوِّل الله طريقك لتكتشف فيما بعد أنك لو أدركته لأهلكك.

﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ الإنسان في حياته يضجر ويمل حينما لا يدرك شيئًا تمناه، والذي يطيب نفس المؤمن تعلقه القلبي بشيء غيبي، تعلقه بأن لطفًا ساقه الله إليه لم يأت وقته بعد، الذين تزرف دموعهم فرحًا بعد ابتلاء وقع بهم إنما يكون فرحًا بحسن ظنهم في الله رب العالمين، الذي يئن تحت بلاء لا يُبْقي بداخله الأمل إلا حسن الظن بالله.

﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾كل التأخيرات في حياتك هي لحكمة، قد يأتي يوم وتفهمها وقد ينطوي سرها ولا تعلمها، فإذا ما تأخر عليك أمر تنشده علّق قلبك بتدبير الله ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1] .

﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾ مَنُّ الله عليهم هنا كان بمنعهم عما أُعطِي قارون، علموا الآن أن المنع عين العطاء، الناس تتعجل ويدفعها التعجل إلى عدم فهم حقائق الأمور، والله تعالى يدبر الأمر بحكمته ويسوق الخير بفضله، ويرفع البلاء بلطفه، ويجازي كل من صبر، ويعطي كل من شكر، وينتقم من كل ظالم ، هكذا يصرف ربنا الأمور .

﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾يُدرك المرء متأخرًا معنى تفويض الأمر لله، يزعجه دعاء لم يستجب، وأمر لم يتحقق وكان يظن أن الخير كله فيه، ثم يظهر له شيء من لطف الله في تدبير الأمر فترضى نفسه لاختيار الله ، ويأنس قلبه للطف الله.

﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾ قد تستخير الله في أمرين يحار قلبك فيهما ثم تجد نفسك تميل لأحدهما رغم شيء من الأذى تطاله نفسك فيه، وتمضي قُدما فيه ويزداد الأذى إيلامًا حتى تجد نفسك مدفوعًا لتركه بلا شائبة في النفس أن فيه خيرًا ، فقد يبتليك الله بالبقاء في أمر يؤذيك حتى لا تعتقد أنه قد حرمك شيئًا جميلًا فتتركه بعد ذلك ولا أثر له في نفسك ولا خاطرة، ولو كنت قد تركته أول الأمر لتعلقت نفسك به

﴿ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾علموا الآن أنه كان كافرًا، حينما تمنوا مثل حاله رأوه قدوة وتمنوا أن لو صاروا في مثل حاله، ولما رأوا ما حَلَّ به من خسف تذكروا أنه كان كافرًا متكبرًا، بغى بماله وظلم به واغتر بسلطانه وظن أنه لن يناله الله بعذاب .

١ البقرة [٢١٦]

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص [٨٣]

عطاء الله كله هاهنا، فضل الله كله هاهنا، كل مُبتلى يطمئن حين يسمعها، كل مُنفِق يسعد حين يسمعها، كل قائم بأمر الله يهنأ حين يسمعها، الجزاء الغيبي الذي تتعلق به القلوب، الذي تأنس به في زحمة الحياة، الذي تتقوى به على ما تواجه من كيد البشر، ومن صدود البشر، ومن مكر البشر، ومن تدابير البشر.

﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ العلو بالتكبر والتجبر والطغيان، العلو بالظلم والاستهزاء والتباهي والتفاخر، كل علو فيه إفساد فهو إلى زوال، فالوعد الغيبي ليس لأمثال هولاء إنما للذين يكبحون جماح شهوات النفس ويتزينون بالتواضع رغم كل ما في أيديهم من مقومات التكبر والتجبر، لكنهم يتواضعون لله لا للبشر، ينتظرون الأجر من الله لا من البشر، حين ترى صاحب سلطة يتواضع بلا تصنع فإنه يكسر شهوة النفس إرضاء لله، يكسر رغبة الزهو إرضاءً لله. بقدر انخفاض النفس في الدنيا تواضعًا لا تذللا تكون الرِفعة في الآخره جزاء واستحقاقا.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يا لرحمة الله، العاقبة آتية لا محالة لكنها للمتقين دون غيرهم، النعيم للمتقين دون غيرهم، الخير للمتقين دون غيرهم، وأي لطف من الله بعد هذا؟! أيتساوى الظالم والمظلوم فنهلك بلا حساب ولا جزاء؟! بل العاقبة آتية لمن اتقى وأصلح، فالحمد لله على وجود الله.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ نبأنا الله في كتابه في غير موضع أن عمل المرء له، عائد عليه، فائدته له. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾[١]
﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾[٢] ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[٣]
﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾[٤] ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾[٥]

١ هود [١٠٨]
٢ لقمان [١٢]
٣ فاطر [١٨]
٤ فصلت [٤٦]
٥ الأنعام [١٠٤]

كله لنفسك، كل عملك لك، صبرك جزاؤه لك، إنفاقك عاقبته لك، إحسانك يعود لك، فلا تغتر بعطاء ساقه الله إليك لتجازى عليه فيما بعد، ولا تجزع من ابتلاء حل بك لتجازى على صبرك عليه، وليكن في قلبك يقين بأن كل أمرك خاضع لتدبير الله ولطفه.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أذكر أن أول تعلقي بهذه الآية حينما كنت أقرأ في سيرة عمر بن عبد العزيز فعلمت أنه لما حضرته الوفاة رددها حتى مات، وكأنما يضع بها خاتمة منهجه في الحياة، ذاك الذي حكم الدنيا وزهد فيها فاختار التواضع وكل مقومات التعالي بين يديه، اختار الزهد وأموال الأرض تُساق إليه، اختار الصلاح على الفساد، والخير على الشر، والحق على الباطل والإيمان على الكفر، والصدق على الكذب، واليقين على الشك، هكذا عاش ولما حضرته الوفاة كأنما رسم بهذه الآية المنهج الذي اختار السير عليه في حياته فعاش به ومات عليه حتى قال عنه إمبراطور الروم حينما علم بموته: ماتَ والله رجلٌ عادلٌ، ليس لعدله مثيلٌ، وليس ينبغي أنْ يَعجبَ الناس لراهبٍ ترك الدنيا ليعبدَ الله في صومعته، إنما العجبُ لهذا الذي أتته الدنيا حتى أناختْ عند قدمه فأعرض عنها.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يجعلها الله لبعض عباده لا كلهم، يجعلها الله للذين ترفعوا عن الكِبر ولم يعيثوا في الأرض فسادًا، فسادًا في العلاقة بينهم وبين الله وفسادًا في العلاقة بينهم وبين الخلق، آية تخاطب أولئك الذين سعوا في الأرض فسادًا بأقوال أو أفعال يظنون ـ وهمًا ـ أنها هينة وهي عند الله جُرم كبير.



السامري مع نبي الله موسى عليه السلام



نموذج ثالث للطغيان الذي واجهه موسى عليه السلام، بعدما رأينا طغيان السلطة في فرعون وطغيان المال في قارون نرى طغيان الصَنعة والقدرة على التلون في شخصية السامري، وأين الطغيان في شخصية السامري؟ إنه طغيان من نوع مختلف، طغيان النبوغ الذي ينتقص مِن قدر مَن حوله فيرى أنه صاحب فضل وأنه لم يأخذ حقه ومكانته. طغيان يخدع الناس ليوهمهم بصدق زعمه، طغيان القدرة على قلب الحقائق لتصير أكاذيب ثم يجمل تلك الأكاذيب ليُصدقها الحمقى، طغيان النفس حينما تغتر فتعتقد أن على البقية إجلالها و تقديسها.

وأمثال السامري لا يظهرون إلا وقت الراحة والأمن، أما عند البأس والشدة هم أسرع من يختبيء، وأول من يفر، أين كان السامري في مواجهة استعباد فرعون لقومه؟ قطعًا لا يجرؤ على تصدر المشهد لأن مثله يقود الفتن في ظلام الليل لا في وضح النهار، وحتى الفتنة التي أحدثها في قومه لم يجرؤ على الحديث عنها في وجود نبي الله موسى عليه السلام، إنما رأى أن يستغل غيابه فترة عن قومه حينما ذهب ليتلقى التوارة من الله عز وجل، فجمع الذهب الذي كان مع قومه وأحرقه وصنعه على شكل عِجل كبير وبصنعته كان الهواء يدخل من دُبر العِجل ثم يخرج من فمه فيُحدث صوتًا ثم أخبرهم أن هذا هو إلههم، هذا هو مجمل المشهد.

والمرء لا يدري مم يعجب؟ أيعجب من سذاجة الفكرة ؟! أم من سفه الصانع؟! أم من حمق المصدقين ؟! فهذا العجل الذهبي الذي اتخذه بعض منهم إلهًا كان بعدما اجتازوا البحر وقد أنجاهم الله وأغرق فرعون أمام أعينهم ، وبعد السقطة الأولى حينما قالوا نريد إلهًا كما لهم آلهة، نرى هنا سقطة أشد بشاعة وقد أخذت حظها منهم حتى وجدت من يُصدِّقُها .

والسامري رمز آخر للتحايل على العامة ومن لا رأي لهم، رمز لقدرة أشخاص على طمس الحقيقة وتزيين الباطل ليحتل مكانة في النفوس، وأمثال السامري لا يكاد يخلو منهم زمان، ولا نكاد نجهلهم في مجتمع من المجتمعات، إنهم حاضرون دائمًا، لا يأتون للناس مباشرة بل يُشككونهم في الحقائق ليصنعوا ممرًا يدخلون منه إليهم؛

فـإذا مـا تمكنـوا منهـم جهـروا بأفكارهـم، فالسـامري وعظهـم أن الذهـب الـذي أخـذوه مـن مـصر ليـس مـن حقهـم فامتثلـوا وجمعـوه وقـرروا دفنـه، ثـم تـراءى لـه خطـوة ثانيـة مـاذا لـو جمعنـاه وأحرقنـاه وشـكلناه ، ففعـل وهـم لـه عـون، ثـم تـراءت لـه أن يعـرض غايتـه التـي كان يخبئهـا فلـما اكتملـت صناعـة العجـل مـن الذهـب أطلـق عـلى مسـامعهم أن هـذا هـو ربكـم فاسـمعوا وأطيعـوا، فوجـد مـن يسـمع ويطيـع؛ لأن الإيـمان الضعيف لا يصمـد في مواجهـة الفتـن، فالذيـن طلبـوا مـن موسـى عليه السلام أن يجعـل لهـم إلهًـا مـن صنـم، والذيـن عبـدوا عجـل السـامري لـو أنهـم عرفـوا الله يقينًـا لمـا وقعـوا في فتنـة السـامري.

وأمثـال السـامري نـرى ارتفـاع صوتهـم حينـما يسـكت مـن يكشـف كذبهـم، الـذي ينـشر بدعـة يدقـق في اختيـار الزمـان؛ حتـى لا يظهـر مـن يـرد عليـه كذبـه، ويدقـق في اختيـار المكان؛ حتـى يجـد بيئـة خصبـة تحتضـن بدعتـه، فالسـامري الـذي أخـذ فرصتـه في تضليـل قومـه وفتنتهـم حينـما جـاء موسـى عليه السلام لم يجـرؤ عـلى الحديـث بصحـة مـا اعتقـد ولا الدفـاع عنـه، إنـما اخـترع مـبررات ككذبتـه الأولى عـلى قومـه ظنـا منـه أنهـا سـتنطلي عـلى نبـي الله .

في زمـان عمـر بـن الخطـاب قـام رجـل يُدعى (صَبِيـغُ بْـنُ عَسَـل) وكان يُحـدِّث النـاس في متشـابهات القـرآن فتنـة وتشـكيكًا لا استرشـادًا واستفسـارًا، فبلـغ ذلـك عمـر بـن الخطـاب فأرسـل إليـه وقـد أعـدَّ لـه عراجـين[1] النخـل فلـما دخـل عليـه قـال لـه عمر: مَـنْ أَنْـتَ؟ فقـال : أَنَـا عَبْـدُ اللهَّ صَبِيـغٌ. فقـال عمـر : وَأَنَـا عَبْـدُ اللهَّ عُمَـرُ، ثُـمَّ أهـوى إليـه فجعـل يضربـه بتلـك العراجـين، فـما زال يضربـه حتـى جعـل الـدم يسـيل عـلى وجهـه ، فَقَـالَ: حَسْـبُكَ يـا أمـير المؤمنـين، فقـد والله ذهـب الـذي كنـت أجـد في رأسي، فأعـاده عمـر بـن الخطـاب إلى البـصرة ثـم أمـر أن يقـم خَطِيبًـا في النـاس فليقـل: إِنَّ صَبِيغًـا طَلَـبَ الْعِلْـمَ فَأَخْطَـأَهُ، ومنـع النـاس أن يجالسـوه ، حتـى قـال أبـو عثـمان النهـدي: كتـب عمـر إلى أهل البـصرة ألا يجالسـوا صبيغًـا، فلـو جـاء ونحـن مائـة لتفرقنـا عنـه[2]

---

١ عراجين: مَا يحمل التَّمْر وَهُوَ من النّخل كالعنقود من الْعِنَب

٢ سنن الدارمي حديث١٤٦، كنز العمال(٢ /٣٣٥)، الدر المنثور(٨/٢)، (سير الذهبي:١ /٢٩)

قــال تعــالى ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥ ﴾ طـه [٨٣-٨٥]

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾بعدمـا نجـى الله موسـى عليه السلام وقومـه واعـده ربـه لميقاتـه ليتلقـى التـوراة فتقـدم موسـى عليه السلام قومـه للقـاء الله وأنـاب عنـه أخـاه هـارون عليه السلام ليقـوم مقامـه في بنـي إسرائيـل، وذهـب إلى ميقـات ربـه، فسـأله الله مـا الـذي حملـه عـلى أن يسـبقهم ولم يصـبر حتـى يـأتي معهـم ؟

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾بعـض الأعـمال يكـون الخـير فيهـا أن تـأتي في وقتهـا لا قبلـه، فموسـى عليه السلام مـن شـدة حرصـه عـلى طلـب رضـا الله قـد سـبق قومـه فلـما تركهـم لم يجـد السـامري مـن يوقـف بدعتـه بحـزم كحـزم موسـى عليه السلام فشـاع أمرهـا حتـى صدَّقهـا فئـة مـن النـاس، فتدبـير قائـد القـوم ليـس كأي أحـد منهـم، لأن نظرتـه عامـة غـير مقيـدة، فقـد يكـون الخـير في أن يكـون بينهـم، لا أن يتقدمهـم .

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور، ولم يكن يعلم بأمر السـامري.

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾لـترضى، ليـس لتعطـي، فـكل غايتـه أن يـرضى الله عنـه، والـذي يتعلـق قلبـه بالآخـرة تجـد نفسـه مدفوعـة دائـمًا لتعجـل الطاعـة، لا تصـبر نفسـه حتـى تأتيهـا، فـإذا مـا أتتهـا سـكنت نفسـه واطمأنـت.

في الحديـث أن النبـي ﷺ قال:(التُّـؤدة في كلِّ شيء خـيرٌ إلَّا في عمـل الآخـرة) [1] أي التـأني في كل الأعـمال خـير إلا أعـمال الآخـرة فـلا يُهلـك العمـل إلا التسـويف.

قـال أحـد الصالحـين : إذا فُتـح لأحدكـم بـاب خـير فليُسـرع إليـه، فإنـه لا يـدري متـى يُغلـق عنـه

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾فالغايـة التـي يريدهـا هـي إرضـاء الله، هـي الغايـة التـي يسـعى إليهـا كل مؤمـن يُخضِـع حياتـه لمـراد الله ، يعـرض أفعالـه وأقوالـه عـلى منهـج الله فـما اسـتقام منهـا أقامـه ومـا خالفهـا كان أبعـد النـاس عنـه

1 صحيح أبي داود ٤٨١٠ وقال الألباني صحيح

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ قد ابتليناهم بعدما تركتهم اختبارًا لهم. إذا ما رأيت من انتكس بعد طاعة فادع له بالهداية واتهم نفسك بالتقصير، فهؤلاء قوم عبروا البحر بمعجزة ورأوا من الآيات ما لم يره غيرهم، ولما سبقهم نبي الله في المسير عبدوا عجلا!

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ لن تجد صاحب بدعة في زمن شاع فيه العلم وكثر فيه العلماء وحُفِظ فيه الدين، إنما تنتشر البدع حين ينتشر الجهل، فالسامري الذي أخذت فتنته من قوم موسى عليه السلام كل مأخذ في غيابه لم تصمد في حضور موسى عليه السلام سويعات حتى هدمها.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أضلهم السامري حين زين لهم عبادة العجل، فصدَّقه بعضهم وأطاعوه في عبادته.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ كل صاحب بدعة في قوم هو سامري زمانه، كل من يدعو إلى باطل فهو سامري زمانه، فهذا القصص يُقَص علينا لنتعلم، لنتعظ، لنأخذ العبرة، لنفهم كيف يفكر أمثال قارون وأمثال السامري، لئلا نتخذ أفكارهم دينًا ومنهجًا، لئلا نركن لمثل أفكارهم ونزينها بأسماء واهية تخدع العامة والبسطاء فنكون شركاء في الجرم، فالذي يعلم الحق ويعجز عن نصرته عليه ألا يصفق للباطل فيلتبس أمره على الناس.

قال تعالى ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾ طه [٨٦]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ كم لاقى نبي الله في مشوار دعوته! حين تُتَابِع مشوار دعوة موسى عليه السلام تجد رحلة شاقة حوت أغلب صنوف العناد البشري للحق، والآن يرى من قومه ذنبًا لا يدري بأي عقل فعلوه؟! أهؤلاء الذين رأوا بأعينهم كل هذه الآيات يفعلون هذا؟ أهؤلاء الذين عبروا البحر بمعجزة لم يسمعوا عنها إنما عاشوها واقعًا حيًا يفعلون هذا؟ أهؤلاء الذين لا زالت آثار مياه البحر على أقدامهم يرتدون عن الإيمان؟ وحُقَّ لنبي الله أن يغضب، إنه يغضب نصرَةً لله، وغيرَةً على عقيدته.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾حينما يرى المرء إخفاقًا يئن القلب من مرارته، يئن من المجهود الذي بذله في رحلة بنائه، يئن حينما يرى الأيدي التي يفترض بها أن تتم بناءه هي من تهدمه، فالذين عبدوا العجل كانوا يُرَبَّون لبناء مجتمع على عقيدة خالصة من الشرك نقية من شوائب الوثنية .

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾يحق لكل صاحب دعوة أن يغضب نصرة لها، يحق لكل صاحب فكرة أن يغضب إذا ما رآها تُهدَم أمام عينيه، الأمم لا تُبنى بالكلمات، الأمم تبنى بالعمل، بالحزم مع من يسعون للفساد، من يسعون للهدم ، الأمة التي لا تأخذ على يد الفاسد ينهض بعده عشرات، وصاحب البدعة الذي لا يؤخذ على يديه تزداد شوكة فكرته الضالة ويجد لها أنصارًا وتتسع رقعتها وتأثيرها مع الزمان ، فالبدع لا تبدأ كبيرة أبدًا، إنما تبدأ بخاطرة في رأس صاحبها يحاول غرسها في الواقع فإن وجد من يقتلعها مبكرًا عجزت عن إيجاد أرض خصبة تنبت فيها وتزهر .

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾وفي موضع آخر﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾[1] في الحديث أن النبي ﷺ قال (لَيْسَ الْخَبَرُ كالْمُعَايَنةِ، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت)[2] ليس حال الإنسان عند معاينة الشيء كحاله عند الخبر عنه في السكون، فقد علم موسى عليه السلام بما حدث لقومه قبل أن يعود إليهم، لكنه حينما رآه بأم عينه انفعل حتى إنه ألقى الألواح التي كانت مكتوب عليها التوارة من يده من شدة غضبه من فعلهم.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾أفيكم من يعبد صنمًا وأنتم خير أهل زمانكم، ألم يعدكم ربكم بالخير في الدنيا والآخرة؟

---

١ الأعراف [١٥٠]

٢ أخرجه أحمد (٢٤٤٧)، والحاكم (٣٢٥٠) وقال صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤)

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾أطال عليكم انتظار وعد ربكم؟ هل أمضيتم زمانًا على الطاعة ولم تجدوا ثمرتها؟ إن ماء البحر لا يزال عالقًا بأقدامكم ، لم يطل الزمان بكم لتبدلوا أمر الله .

﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾هذا الذي فعلتموه بعدما تركتكم أفعلتموه لتتعجلوا عقوبة الله بكم ؟ أتتركون اتباعي إلى الطور وتتوقفون عن المسير على أثري لتعبدوا عجلًا؟!

قال تعالى : ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾﴾ طه [٨٧-٨٩].

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾بملكنا أي: بِطاقَتِنا، واختيارِنا، فالمبرر لضلالهم أنهم ما فعلوه بإرداتهم، بل وجدوا أنفسهم يملكون بعضًا من حُلي أهل مصر فتأثموا منها فصنعوا منها عجلًا فعبدوه ، ما أصبر نبي الله على قومه! يتأثمون من حُلي أخذوه ولا يتأثمون من عجل عبدوه !

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أوزارًا أي أثقالًا من حُلِيِّ قَوم فِرعَونَ، قد أخذوها معهم، ولست أدري بأي عقل يجيبون على نبي الله؟ أهذه أعذار تُقبل؟ أهذه مبررات ينطق بها أحد ليبرر كفره بالله؟ الذي يدافع عن باطل تجده ضعيف الحُجة، وهو يدافع عنها باستماتة رغم يقينه بضعفها لا لشيء إلا أنها صادفت هوى في نفسه .

﴿فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾جمعوا الحُلي في حفرة فظهرت فكرة السامري سريعًا فزين لهم أمرًا صادف هوًى في أنفسهم، وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا صنمًا يعبدونه فلم تزل الفكرة بعقل السامري حتى أوهمهم أنه على علم بأمر يفوق معرفتهم فصنع لهم من الحُلي عجلًا .

﴿ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ ﴾ لـه خـوار أي لـه صـوت، قـد أتقـن صنعتـه حتـى إن الهـواء يمـر بـه فيُحـدث صوتـا، وهـذه كانـت مقومـات إلهـه الـذي يعبـده، أن يَصـدر منـه صـوت، مـا أقبحهـا مـن مميـزات تلـك التـي يدافـع عنهـا كل سـامري .

﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾فقالـوا، لم يعـد قـول السـامري وحـده، فقـد نبتـت فكرتـه ووجـدت مـن يدافـع عنهـا، مـن يتحـدث بهـا، مـن يعرضهـا معـه أو بـدلًا منـه، إن هـذا الـذي ترونـه هـو إلـه موسـى عليه السلام الـذي غفـل عنـه هاهنـا وذهـب إلى الجبـل ليطلبـه.

﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾ وفي موضـع آخـر﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾[1]أغابـت عقولهـم فاتخـذت مـن هـذا الصنـم إلهًـا يُعبـد؟ فالإلـه المسـتحق للعبوديـة إلـه قـادر، يملك أقدراهـم وأرزاقهـم وآجالهـم، ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ ﴾رغـم أنهم يبـصرون لكن البـصر لم يغن عنهم شـيئًا، إنهـم يـرون صنـمًا لا يملك شـيئًا، فكيـف اتخـذوه إلهًا؟

قـال تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ طـه [٩٠-٩٤]

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ ﴾قامـت موعظـة هـارون فيهـم عـلى أربعـة أركان اتخذهـا منهجًـا لمواجهـة هـذه البدعـة فبـدأ أولًا بزجـر الباطـل وإظهـار فسـاده لإزالـة أي شـبهة فيه وتقبيحـه في النفـوس بوصفـه فتنـة تضل الخلـق لا تهديهـم ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ثم أتبعها بتعريـف بـالله المسـتحق للعبودية وحده تصحيحـًا لأفهامهـم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ ثم أتبعها بتذكيرهـم بمقـام النبـوة فهـو خليفة موسـى عليه السلام فيهـم ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ثم ختمهـا بتذكيرهم بما فرضتـه عليهـم الشريعة بلـزوم طاعتـه ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾

---

١ الأعراف [١٤٨]

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ كان نبي الله هارون فيهم آمرًا وناهيًا لكنهم تمردوا على طاعته فخرجوا منها، وتعللوا بغياب موسى عليه السلام وأنهم سيظلون على حالهم حتى يأتي موسى عليه السلام فيقضي في أمرهم، وعنادهم هذا لم يأت من فكرة ينتصرون لها، ولا منفعة يتمسكون بها، إنما هو من فتنة أضلتهم، لذا نبههم نبي الله ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ فما أنتم فيه هو فتنة، والفتن تُعمي القلوب عن الحق، تظهر فجأة ويتمسك بها ضعاف القلوب وينتصر لها من يبحثون عن تصدر المشهد، من يريدون القيادة ولو بالفتن، من يعتقدون بسمو منزلتهم فيرفضون الاتباع، ولو كان المُتَبع نبيًا من أنبياء الله، فتصدر المشهد السامري وتمسك بالفتنة من لا دين لهم ولا رأي

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ إنه لا يخبرهم بأمر جديد على أسماعهم، إنهم على علم بما يقول، على علم بالحقيقة التي لا غبار عليها ولا شائبة تُعكِّر فهمها، إنما يذكرهم ناصحًا، يذكرهم موجهًا وآمرًا وناهيًا، فاتبعوني على الحق الذي أذكركم به وأطيعوني فيما آمركم به وأحملكم عليه .

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ من يتمسك بفكرة لاقت في نفسه هوى - وإن كانت غير صالحة - لا يجادل إثباتًا لصحتها، لا يدافع عنها دفاع المؤمن بها، فهؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة نبي الله هارون وقد دعاهم بالحُسنى كانوا أسرع من اعتذر وتعلل بجهله حينما واجههم موسى عليه السلام .

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾ حين رأيتهم ضلوا طريق الحق وانحرفوا لِمَ لَمْ تلحق بي لتخبرني ؟

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ صلاح الدين أولى من صلاح الاجتماع، فما قيمة اجتماعهم مع فساد العقيدة؟

﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ الأمر الذي ألزمه به قبل أن يفارقه بأن يخلفه في قومه وأن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (١)

١ الأعراف [١٤٢]

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾وفي موضع آخر﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] لم يواجه هارون غضب موسى عليه السلام بغضب مثله، إنما قابله برقة ولين ولطف، وحين أراد أن يهدئ من غضبه ويستعطفه لم يقل يا أخي بل ذكر الأم ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾وذلك فيه استعطاف وتليين للجانب .

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾خشي إن تركهم ولحق بموسى صلى الله عليه وسلم ليخبره أن يكون فيه هلاكهم وفرقتهم فمكث فيهم حتى عاد .

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾عاتب موسى عليه السلام هارون عليه السلام أنه لم يتبعه حين رآهم ضلوا طريق الحق، وظن هارون أن في بقائه خيرًا ومنفعة من أن يتركهم ويتبع موسى عليه السلام، التماس العذر أولى من تقديم اللوم فلكل وجهة نظره التي يُقدِّر بها الأمور، لذا سرعان ما التمس موسى عليه السلام لأخيه عذر تأويله فما إن انتهى هارون من كلامه حتى رق قلب موسى عليه السلام لأخيه ودعا الله لهما ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2]

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ طه [٩٥-٩٧]

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ بعض القضايا يُضيعها التغاضي، يقويها التجاهل، فلا يصلح لها إلا المواجهة والحزم، لا يصلح معها إلا اقتلاع جذور الفتنة لئلا تنبت من جديد، لم يكن حديث موسى عليه السلام مع السامري نقاشًا وجدالًا، إنما حديث حزم وشدة فليست كل القضايا يمكن اعتبارها محاور فكر يخضع للنقاش ووجهات النظر،

---

١ الأعراف [١٥٠]

٢ الأعراف [١٥١]

قضايا العقيدة لا فسحة فيها لأفكار هدامة نفسح لها مجالًا ثم نتركها تنبت وندَّعي أن في تركها احترامًا للحرية وتأليفًا للجماعة، فصلاح الجماعة لا يتحقق إلا بصلاح العقيدة .

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ نجد في الحديث عن هذه الآية بعض الأخبار من قبيل أنه رأى أثر جبريل عليه السلام وأنه أخذ حفنة من أثر قدم فرسه وأشياء من هذا القبيل، وكلها أقوال لا تستند لأي أثر من السُّنة، وإن المرء ليعجب من أقوال كهذه، أيسوقه الله في ثوب الضلال ثم يقولون عنه أنه رأى جبريل عليه السلام؟ أي قول هذا؟ إنه بالمصطلح المعاصر "محتال" نسج الكذبة على قومه فلما صدَّقوها تمادى فيها، فلما واجه موسى عليه السلام اختلق كذبة جديدة لعله ينجو بها، لكن أنَّى لهذا أن ينجو! والقرآن حينما قص خبره ذكرها حكاية عنه، ذكر القول الذي قاله السامري لنبي الله لموسى عليه السلام ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ هذا هو قول السامري لموسى عليه السلام، ذكره ربنا حكاية عنه يدّعي أنه رأى شيئًا لم يروه فسولت له نفسه تميزًا عن بقية القوم فأغواهم بصناعة عجل من ذهب ودعاهم إلى عبادته، وقد رأى تجربة قومه الأولى حينما سألوا نبي الله أن يجعل لهم إلهًا صنمًا فأيقن أن فئة من القوم ليسوا على إيمان يقودهم لتمييز الحق من الباطل، وأن خداعهم أمر يسير، أرادوا إلهًا من حجر فجاءهم بإله من ذهب فعبدوه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ قال القاسمي :واختلفوا أيضا في أن السامري اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس ..؟ وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم، ولذا قال أبو مسلم الأصفهاني " ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون ، فههنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام ، وبأثره: سنته ورسمه الذي أمر به . فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ، ويقبض أثره : إذا كان يمتثل رسمه .[1]

١ محاسن التأويل (١٤٤/٧)

وقال ابن عاشور في تفسيره للآية : " وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين، ولا ورد به أثر من السنة ، وإنما هي أقوال لبعض السلف، ولعلها تسربت للناس من روايات القصاصين . "[1].

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾رأيتُ ما لم ير بنو إسرائيل، وعلمت ما لم يَعلموا وكذا كل صاحب بدعة يدَّعي التميز، يظن أنه خُصَّ بشيء لم يخصص لأحد غيره، ومن هنا يُغوي الناس باتباعه، وأمثال السامري لا يغوون إلا سفيهًا لا رأي له، أو جاهلًا لا علم عنده يرد به، هؤلاء هم ضحايا كل سامري .

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾حين يأتي المرء بفعل قبيح لكنه يصادف هوى في نفسه لا يلتفت للنقد ، لا يلتفت لآثاره على غيره ، إنما تستحسنه نفسه ويدخلها العُجب كأنما أتى بأعجوبة لم يُسبق إليها. فبعدما أغواهم لجمع الحُلي وشكل لهم عجلًا من الذهب وأمرهم بعبادته وجد من صنعه هذا قبولًا وإعجابًا في نفسه، والذي لا منهج له يحكم تصرفاته يكون عُرضة لغواية النفس قبل غواية الآخرين.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾من أفسد على الناس دينهم أفسد الله عليه دنياه وآخرته، فكان عقابه ألا يمس أحدًا، ولا يمسه أحد، ولا يخالط أحدًا ولا يخالطه أحد، ولا يقرب أحدًا ولا يقربه أحد عقوبةً له على إضلالِه لقومه.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾لك وعد آتيك لا محالة، ولن يخلف الله وعده.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ لم يكتف بالعقاب إنما أمره أيضًا بتطهير الأرض مما صنع، فهذا ما صنعت يداك ودعوت الناس لعبادته وأطاعك منهم خلق كثير وبقيتم بجواره ملازمين لعبادته؛ لأحرقنه، ليس مجرد طمس للمعالم، إنما إحراق ثم نسف كامل لآثاره لئلا يبقى له أي بقية، لا على الأرض ولا في الأنفس، فأفاقوا على عِظم الجُرم الذي جاءوا به ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[2]

١ التحرير والتنوير (ج١٦ -٢٩٦)
٢ الأعراف [١٤٩]



مؤمن آل فرعون



أخذت رحلة الصراع مع فرعون مشاهد عدة، جاءت بعض مشاهدها لتبين لنا أن سلطان العقيدة في الأنفس صادقة الإيمان لا تزعزه الهزات ولا تؤثر فيه المغريات، فرأينا مشهد الانتصار للعقيدة في قلوب السحرة وهم يحاجون فرعون بها﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾[١] فهذا الرُقي الإيماني والفهم العميق لحقيقة التوحيد كان وليد لحظات لامس الإيمان فيها قلوبهم، والسحرة إنما حاجُّوا فرعون حينما أيقنوا ببهتان دعوته وفساد أمره وبطلان منهجه.

ثم نجد في القرآن نموذجًا آخر يؤصل نفس المنهج ليرسخ في قلوب المؤمنين أن سلطان العقيدة ينتصر حتى إن عارضته الظروف ، ليس انتصار سلاح إنما انتصار منهج، انتصار ثبات، انتصار تقديم الحجج الدامغة على صدق ما يؤمن به ويدعو إليه ، وهو نموذج فردي بعدما رأينا في قصة السحرة النموذج الجماعي للانتصار للعقيدة نراه هنا في صورة فردية لا تقل جرأة عن موقف السحرة، إنه نموذج لرجل لامس الإيمان قلبه، فلم يبال بفرعون ولا سلطانه، ووقف في بلاطه ينصف موسى عليه السلام ودعوته، ينصفه بالرأي والحجة، ينصفه بالدعوة لعقيدته الصافية الخالية من شوائب الوثنية.

والإنصاف بالكلمة قد يكون أشد وقعًا على الأنفس من الإنصاف ببذل النفس في ميادين القتال، فالدعوة التي تخاطب العقول بحاجة إلى من ينقلها إلى العقول، من يحملها إلى البشر مُحملة بالمشاعر الصافية والحماس الصادق في الدعوة إليها، فالأنفس التي تُزهق تحمل بدمائها رسالة لكنها تكون بحاجة إلى الكلمة التي تنقل فكرتها قبل بذل النفس، الكلمة وحدها هي التي تبقى بعد فناء الجسد، وما أيسر أن نجد المؤمن المجاهد لكن ما أشق أن نجد الداعية صاحب الحُجة.

والقرآن حين يحمل لنا هذا النموذج إنما يريد أن يلفت انتباهنا له حين نسعى لنشر رسالة الله ومنهج الله، فالقتال بالكلمة يعادل القتال بالسيف؛ كل له وقته وميدانه، والأفكار

١ [طه: ٧٢ - ٧٣]

وحدها هي التي تحمل في داخلها عنصر البقاء، كذلك نجد بجوار الدعوة بالكلمة معنى آخر يلفت القرآن انتباهنا إليه، حين يعرض حوار فرعون مع ملئه الذين زينوا له منهجه الباطل ثم يعقب الحديث مباشرة بقصة الرجل المؤمن الذي اقتحم حديثًا كله مؤامرات لينصف موسى عليه السلام ودعوته بالحجة العقلية، فالحق يأتي من كل مكان، ولو كان الأمر للظنون ما تصور امرؤ يومًا أن يخرج من حاشية فرعون من ينصف موسى عليه السلام في حضرة فرعون، هكذا هي ظنون البشر، تعجز أحيانًا عن استيعاب قدرة الله، ومعية الله، وعناية الله لعباده، يُمنَح موسى عليه السلام سيف الكلمة الصادقة من قلب حاشية فرعون، كما مُنِح إطلالة حب من زوجة فرعون وهو طفل رضيع.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ غافر [٢٨، ٢٩]

﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾ تكررت في كثير من مشاهد القرآن، فمثلا بعد اقتتال موسى عليه السلام مع القبطي ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]

وفي سورة يس بعد قصة أنبياء الله لقومهم ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[2]

وهاهنا في قصة مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ لم يأت ذكر لأسمائهم، وما الحاجة للأسماء إن كان في الفعل الذي قاموا به تمييز لهم؟ فالرجولة ليست توضيحًا لجنسهم إنما وصف لواقعهم، رقي في تقدير الأمور، رقي في تحمل المسئولية، رقي في الجهر بالحق رغم الخطر الذي قد يجره عليهم إعلانهم به.

---
١ [القصص: ٢٠]
٢ [يس: ٢٠]

في حياة كل إنسان لحظة فارقة ليس عليه أن يؤثر السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله، بل عليه أن ينحاز للحق ولو بالكلمة لئلا يعتقد دعاة الباطل أنهم على حق إذا صمت المصلحون .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾حين نقرأ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ثم نقرأ بعدها﴿فِرْعَوْنَ﴾ نستشعر في قرارة أنفسنا كَمَّ التحدي الداخلي الذي واجهه حتى يجهر بكلامه هذا، نستشعر كَمَّ الصراع الذي واجهه قبل أن ينطق، ربما شيء من التردد، ربما بعض مشاعر من خوف العاقبة، ربما جرأة دفعته إلى المواجهة لكنها لم تخرجه عن التركيز في اختيار الألفاظ والمعاني، لكننا حين نكمل بقية القصة يختلف بداخلنا هذا الشعور، وكأن المشاعر التي بدأ بها حواره في حضور فرعون وملئه قد تلاشت مع استمراره في عرض دعوته فنجده في آخرها كأنما سرت الطمأنينة إلى قلبه، كأنما استشعر معية الله فلم يعد لحضور فرعون مهابة في قلبه، فأخذت كلماته تكون أكثر قوة ، أكثر صراحة، أكثر جرأة ، هكذا يفعل الإيمان بالمؤمن، يرتقي به، فإن لم يجد المرء تغيرًا في أقواله وأفعاله وسلوكه فعليه أن يراجع نفسه ، فالإيمان إذا لمس شغاف القلب ارتقى بالمرء كُلية في القول والفعل والسلوك .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وحين نقرأ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾تتعلق أذهاننا بصورة ذهنية مختلفة عن تلك التي يمكن أن نرسمها في مخيلتنا إن لم يأت هذان اللفظان معًا ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾فهو رجل في تصرفاته لكن هذه التصرفات جاءت بهذا الشكل لأنها اقترنت بالإيمان ، فبدون الإيمان قد لا يكون للرجولة معنى يليق بها، وذلك لأن الإيمان يرتقي بفكر المرء، يرتقي بنظرته وتقديره للأمور، وقد رأينا هذا في قصة السحرة وكيف ارتقى بهم الإيمان لمجابهة فرعون والرد عليه بلا خوف أو تردد وهو من هو في الظلم والطغيان، وذلك لأن الإيمان ينتقل بالفرد من شخصية هامشية عابرة إلى شخصية قد أدركت الغاية من وجود الإنسان، ومن خلق الإنسان، ومن تكليف الإنسان.

﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ يدبر الله الأمر لموسى عليه السلام بلطف منه، في مبدأ الأمر عاطفة رقيقة في قلب زوجة فرعون تنجيه من القتل صغيرًا، والآن رجل من خاصة فرعون يدافع عنه فيصرف فرعون عن فكرة قتله، ليست كل المعارك بحاجة إلى حشد وتجييش، بعض المعارك تُغير مصائرها كلمة.

﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ يكتم لأنه يعلم أن في إظهاره هلاكًا له، كتمه خوفًا من بطش فرعون، لكنه لما تصاعدت حدة العداء من فرعون بالتدبير لقتل موسى عليه السلام لم يجد بُدًا من الدفاع عنه، من مخاطبة فرعون بما يكره أن يسمعه وهو بين حاشيته وملئه، حتى مع الكتمان كانت هناك نقطة فاصلة لا يصلح معها السكوت.

﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ آية تعلمنا ألا نتعجل في إصدار أحكامنا، ألا نطلق لألسنتنا العنان لاتهام هذا بالكفر وغيره بالنفاق وثالث بالخيانة، آية تعلمنا أننا إن رأينا زلة ممن نعتقد فيهم الخير نتغاضَ ونتجاوز ونلتمس لهم عذرًا قد لا نعرفه.

﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ صادق الإيمان لا يُحسن التصنع، كلما أراد التَّخَفِّي كشفه صدق إيمانه في قول أو فعل.

﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ الإسهام في التغيير يكون بالمتاح من الإمكانات، ليس عليك أن تكون داعية فصيحًا، أو في منصب مرموق، أو ذا مال وفير حتى تخدم عقيدتك، بل اخدمها بكلمة صادقة، بثبات على المبدأ حين تزل أقدام آخرين، بابتسامة صادقة، بكلمة طيبة، بأمر بمعروف، بنهي عن منكر، بأن تكون قدوة صالحة، الذي يريد خدمة دعوته لن يُعدم الوسيلة.

﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ ليس شرطًا أن يكون ظاهر الحال يدل على النية والمقصد، فقد تأتي الأعمال في غير القالب الذي نريد، وقد يخرج العمل الصالح في قالب غير الذي رسمناه له، لكن الذي يشغلنا الغاية التي من أجلها نسعى.

﴿ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾رغـم كل محـاولات فرعـون لتضييـق نطـاق الدعـوة ومحاربتهـا في كل واد لكنهـا اقتحمـت حاشـيته وهاهـو رجـل مـن قومـه يـرد عليـه مدافعًـا عـن موسـى عليه السلام

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾هكـذا علانيـة ينطـق فيهم، ينطـق في حضور فرعون، ينطـق بـما لا يُعجب فرعـون، نعم إنه يكتـم إيمانه لكن الحق قـد جرى على لسـانه، وإن الإيمان الـذي قـد يجتهـد المرء في كتمانه يتجلى في لحظـة صدق كالمـوج الثائر بكلمات لا يقـوى الباطل عـلى الصمـود أمامهـا، إنـه مؤمن آثر الكتـمان، إلا أنـه في حيـاة كل مؤمن نقطـة فاصلة ولحظة حاسـمة تتغـير فيهـا الإرادة الضعيفـة الخائفـة وتركن إلى معيـة الله فتصـير أقوى وأشـد ثباتًا، فأخـذه إيمانـه إلى حيـث ينصف موسـىعليه السلام في حضـور فرعـون، وأي كلمة تنصـف داعية في حضـور طاغية تحمـل الموت لقائلها، لكن الإيـمان الصادق يأخذ بالنفـس إلى التجرد الصادق، تجـرد لا تركـن فيـه النفس إلى منكـر، لا تركن بقـول ولا بفعـل ولا بصمت، لذا نطـق الرجل المؤمـن غـير آبـه بسـلطان فرعـون ولا ببطـش فرعـون، ولم يحمل لنـا القـرآن تعقيـب فرعون عليـه، أرضي فرعـون أن يُهـان منهجـه ويصمـت؟ أرضي أن يُنصـف موسـىعليه السلام عـلى المـلأ ويصمـت؟ إن الـذي أنطـق الرجـل المؤمن قـادر عـلى حفظه من مكـر البشر .

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ أتقتلونـه لمجـرد أن قـال ربي الله؟إن هـذه الكلمـة البسـيطة تحمـل منهجًـا يشـمل كل مناحـي الحياة، فمتـى نطقها المؤمن رسـمت له كل شـئون حياتـه، ربـط بهـا إيمانـه القلبـي بالفعـلي، لكـن أيـن الظالمون مـن فهـم معانيها؟ إنهـم يهيمون بعيـدًا عنهـا، فيسـتصغرون تضحيـة المؤمنـين بهـا، يسـتخفون بهـم، يعجبـون أمن أجـل هذه الكلمـة يفنـون أعمارهـم؟ أمن أجل هـذه الكلمة يبذلـون أموالهم وأرواحهـم؟ إنها في ظنونهم كلمـة عابـرة لكنهـا في قلـوب المؤمنين بهـا كلمة تعنـي الحياة.

﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾جـاء بالآيـات التـي تـدل عـلى صـدق نبوتـه، لم يقـل أنـا نبـي الله فآمنـوا بي بـلا بينـة يحملهـا، بـلا معجـزة تُظهـره، إنـما جـاء بـما يثبـت صـدق دعوتـه ومـا نكرانكـم لنبوتـه إلا نكـران مـن مـن يـرى الحـق ويعـرض عنـه .

﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾اتركوه يخاطب الناس، يدعوهم، فإن كان كاذبًا لن تضركم دعوته، وإن كان صادقًا يأتكم الذي يعدكم به، وأنبياء الله الذين واجهوا طغاة البشر حملوا ضمنيًا هذه الرسالة لهم، فنجد النبي ﷺ يطوف على منازل الحجيج بمنى وعرفات عشر سنين يطلب النصرة على طغاة قريش «مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى وَلَهُ الْجَنَّةُ» [1] ثم يخاطبهم علانية بعد رحلة طويلة من الحروب والصراعات «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِى أَرَادُوا وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلاَمِ وَهُمْ وَافِرُونَ »[2] فرسالة التوحيد على ألسن كل الأنبياء تحمل المنهج القادر على إصلاح البشر وهدايتهم، لكن الطغاة يأبون الصلاح إلا على المنهج الذي يخدم سلطانهم ويُبقي مجدهم الزائف واستبدادهم بالبشر .

﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾كان من الممكن أن يخبرهم أنه إن كان صادقًا فسوف يصيبهم كل الذي توعدهم به، لكنه لم يرد أن يحرك فيهم حمية كاذبة لمعتقداتهم فخاطبهم بما لا يؤخذ عليه صراحة أنه مؤمن بموسى عليه السلام ، وبما يكون أقرب لتسليمهم به وتصديقهم له .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾يخبرهم بحجة عقلية دامغة أنه لو كان موسى عليه السلام غير صادق في دعوته ما كان الله ليظهره بالمعجزات التي رأيتموها، فسنة الله ألا يُظهر أمر مسرف قد تجاوز في حدود الله ، كذابًا في الإخبار عن الله .

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾يذكرهم بنعم الله عليهم بما بين أيديهم من قوة وسلطان ، ويحذرهم من نقم الله؛ فالملك الذي تصنعه يد البشر يعجز عن رد أمر الله إن جاء.

---

١ مسند أحمد ١٤٨٣٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة٦٣

٢ مسند أحمد١٩٤٢٣ وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة للغزالي

﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾حتى تقع كلماته في قلوبهم لم ينفصل عنهم في الحديث إنما أشرك نفسه معهم ﴿ إِن جَآءَنَا ﴾ والذي ينصح الناس من برج عاجي بعيدًا عن واقعهم تأنف قلوبهم أن تأنس بحديثه، فالقلوب تألف من يألفها، من يتودده، لا من يخاطبهم من علو، لا من يخاطبهم أنهم في النار جميعًا إلا هو، لا من يخاطبهم بلغة الوعيد، لا من يظهر تفضله عليهم، صلاحه وطلاحهم، خيره وشرهم، صدقه وكذبهم، فمؤمن آل فرعون يعلم أنهم على باطل وأنه على حق لكنه لما كان في مقام نصح وإرشاد وضع نفسه في نفس قالبهم لئلا يصد قلوبهم عن الأخذ بنصيحته .

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾عقلية كل فرعون بكل العصور، الإعجاب بالنفس حد الغرور، حتى الرأي العابر يصادر حقهم في إبدائه، فلم إذن كان يطرح عليهم القضية للنقاش؟! ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ ﴾[1] ما الحاجة لسؤالهم إن كان لا رأي لهم؟ ما الحاجة إلى الاستماع للناس إن كان ما تحمله لهم هو الصواب والرشاد قبلوا ذلك أو رفضوه؟ تُرى ما الذي دفعه لأن يطلب منهم إذنًا لقتله؟ أما كان يعجزه أن يفعل بلا إذن؟ وما الذي حال دون أن يفعل؟ إنه فقط يريد أن يخاطب الناس بأنه إنما يدافع عنهم، عن إرادتهم، إنما ينزل على رغبتهم وينفذ إرادتهم.

قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾غافر [٣٠- ٣٤]

١ [غافر: ٢٦]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ما كان ليقول كلمة الحق ثم يركن من جديد لجوار فرعون ومنهجه، إنما تابع حديثه في قوة وثبات زلزل به تصورات فرعون وملئه لدعوة موسى عليه السلام، فأخذ يذكرهم بمصائر الأمم التي سبقتهم ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾فهذه الأمم التي وصلتكم أخبارها كانت تظن أنها تُعجز الله بقوتها، ومُلكها، فلم يبق منها شيء، لقد رحلت إلى حيث يذهب كل باطل، والله حين يأخذ الناس بظلمهم لا يظلمهم إنما يجازيهم على عصيانهم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ فقوتكم تقف عاجزة أمام أقدار الله، وقوتكم تقف عاجزة عن رد الموت إن جاء إليكم، والقوة التي عجزت عن حمايتكم في الحياة الدنيا ستكون في الآخرة بلا قيمة.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ يصرف نظرهم لموضع آخر غير الذي يعتقدون فيه قوتهم وبأسهم، إنهم ينظرون إلى ما بين أيديهم، إلى قوتهم الحالية، إلى سلطانهم الحالي، لكنه يصرف أفهامهم لمنظر آخر، لما بعد الحياة الدنيا، لحياة أخرى بمقاييس أخرى يصبح فيها سلطانكم بلا قيمة، تصبح فيها قوتكم عاجزة عن نصركم

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾يرد على زعم فرعون بأنه يحمل لهم الرشاد ويحمل لهم النجاة، فلا سبيل لرشاد فرعون إن كان الضلال قد تمكن من قلبه فحال دون أن يؤمن بالحق الذي جاءه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾فأمر الرسل والدعوة للتوحيد ليس بجديد عليكم، لقد بعث الله إليكم يوسف عليه السلام من قبل رسولًا، فَلِمَ تعاندون وتستكبرون الآن على الإقرار بوحدانية الله والإيمان به؟

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ واصل الرجل المؤمن عرض قضيته، يخاطب عقولهم تارة وقلوبهم أخرى، يرغبهم تارة ويحذرهم أخرى، إن كلماته لم تحرك ضمائرهم لكنها أوهنت عزائمهم فحالت دون إجماع أمرهم على رغبة فرعون في قتل موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ **غافر** [٣٦، ٣٧]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ هذا الذي فعله يمكن أن نسميه بالإلهاء .هكذا هو تمييع القضايا المصيرية في حياة الشعوب، يأخذونها إلى منحى آخر يقلل من شأنها في أنفس الناس، ففي الفكر المادي تصبح كل الحياة خاضعة لإرادة البشر، وفرعون إنما يشغله صرف الناس عن دعوة موسى عليه السلام أكثر من انشغاله بالرد عليها، فكيف يرد عليها ولا حجة معه ولا منهج لديه؟ لذا لا يملك إلا صرف الناس عنها ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ سأبدأ في بحث قضية إله موسى عليه السلام رغم أني أعلم كذبه، هكذا يُرتب فرعون أولويات البشر، فالقضية خاضعة للبحث والتحري فلا تجعلوها أول شغلكم، إنما انتظروا حتى أبدي فيها رأيًا حين أتسلق على بناياتي الشامخة لأرى إله موسى عليه السلام، وفرعون إنما صرف الناس إلى أمر يحسنه ويرى فيه قوته المادية، بناء ضخم يصرف إليه قوة الناس وهمتهم وتفكيرهم فلا يفكرون إلا به ولا يقطعون أمرًا إلا بعد إتمامه، فينتظرون أن يعتلي البناء ويبت في أمر إله موسى عليه السلام، هكذا هو تصوره، وقد قبله الناس، فلا عجب أن يُنَصِّبَ نفسه عليهم إلهًا يُعبد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾لكل فرعون هامانه، ليس شرطًا أن يكون رفيق مجلسه، ليس شرطًا أن يكون عاملًا تحت إمرته، إنما كل من يُزين للحاكم الباطل هو هامان زمانه، والله تعالى حينما أشار إلى رسالة موسى عليه السلام سمى ثلاثة أسماء تحديدًا لأن كلًا منهم رمز قابل للاستشهاد به في كل زمان، قارون بقوة المال، وفرعون بقوة السلطان، وهامان التابع المُذَلِّل للصعاب.

﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ مفهوم الألوهية عند فرعون يرسم لنا بعض ملامح تفكيره فهو يراها في بناء شامخ يقف في أعلاه لينظر في أمر إله موسى عليه السلام، والمتتبع لآراء فرعون في صراعه مع موسى عليه السلام يجده من أفقر الناس عقلًا، وأقلهم رأيًا وأضعفهم بيانًا، يجده يسود بالقوة وحدها، ويفرض بها سلطانه، يجده يجمع حوله من يُزكي صنعه وإن كان باطلًا، من يحمد له رأيه وإن كان سفيهًا، فهذا الذي يدعي نفسه إلهًا يُعبد يعتقد أن وقوفه فوق بناء عالٍ كاف للحكم في مسألة إله موسى عليه السلام .

قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ غافر [٣٨-٤٠]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ يرد بها على كذب ادعاء فرعون حينما ادعى أن ما يراه في قتل موسى عليه السلام هو الخير والرشاد لهم ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[1]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ تأليف القلوب يحملها على الاستماع للحق وقبوله، فقد ظل حرصه على هدايتهم ملازمًا دعوته رغم علمه بطغيانهم واستكبارهم، ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ لست غريبًا عنكم، إنما أهتم لأمركم ، أريد لكم الخير، ظل يرددها عليهم تأليفًا وتوددًا .

﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ حقيقة ألقاها على أسماعهم ونعيشها واقعًا في حياتنا، قد نجد من يغتر بصحة، ومن يغتر بمال، ومن يغتر بسلطة، وحين يشارف الموت يجد كل هذا بلا قيمة، وذلك لأنه أدرك قيمة أخرى لم يكن ينتبه لها حين كانت لديه بعض مُتَع الحياة وهي قيمة الإيمان والعمل الصالح.

---

١ [غافر: ٢٩]

﴿ يَـٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَـٰعٞ ﴾ وهـو يخاطـب قومًـا أَلِفـوا رغـد العيش، أَلِفـوا حيـاة الرفاهيـة، ومـن تكـون لديـه أسـباب المتعـة قـد لا يلتفـت لحقيقـة الحيـاة إلا متأخـرًا، وقـد يمـوت دون أن يلتفـت إليهـا، حقيقـة أن كل هـذه متـع وقتيـة، متـع إلى زوال، متـع قـد تُسـلب في أي لحظـة وتفـارق صاحبهـا .

﴿ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ وفي مقابـل متـع الحيـاة الوقتيـة يقـدم لهـم بديـلًا دائـمًا لكنـه غيبـي، وهـذا في الحقيقـة مـا يميـز البـشر ، إيمانهـم بحقيقـة وعـد غيبـي ، فالـذي ينعـم في الحيـاة برغـد العيـش ومتاعـه قـد لا ينتبـه لهـذا الوعـد الغيبـي إلا متأخـرا وقـد يفـارق الحيـاة دون أن يفكـر يومًـا في وعـد الآخـرة الغيبـي.

﴿ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ وحـين نقـرأ ﴿ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ يسـتقر في القلـب طمأنينـة أننـا لم نـأت للحيـاة عبثًـا إنـما جئنـا لغايـة، وسـوف ننتقـل إلى صـورة أخـرى هـي أمـر غيبـي بالنسـبة لنـا الآن، لكنهـا حقيقـة، ولـن تكـون حيـاة مؤقتـة إنـما قرارنـا فيهـا، هـي المسـتقر الحقيقـي الدائـم.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ مـن عـاش حياتـه في معصيـة الله فسـوف يُجـازَى في الآخـرة بمثـل مـا عمـل.

﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَـٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ليس مجـرد العمـل الصالـح إنـما عمـل صالـح﴿ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾فالجـزاء في الآخـرة مرتبـط بالإيـمان والعمـل، الله يجـازي المؤمـن عـلى مـا قـدم.

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ يُعلـق قلوبهـم بالآخـرة، لئلا تغلبهـم متـع الدنيـا، لئـلا يتوهمـوا أن هـذا هـو منتهـى النعيـم، أن هـذا هـو منتهى السـعادة.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ **غافر** [٤١-٤٥]

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أدعوكم للخير فتدعونني للشر ، أدعوكم للنجاة فتدعونني للهلاك، أدعوكم لليقين فتدعونني للشك، أدعوكم للجنة فتدعونني للنار ، يرسم مؤمن آل فرعون ذاك الصراع الأبدي بين الحق والباطل، ذاك الصراع الذي سقط فيه خلق كثير ، ذاك الصراع الذي نال من سادة ووجهاء وعظماء وفقراء تعلقت قلوبهم بالدنيا وحدها فضلُّوا الطريق للآخرة ، يذكرهم ويذكر نفسه معهم أن ما أدعوكم إليه هو الحق وما أنتم عليه هو الباطل

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ لا تستقيم دعوتي ودعوتكم، إنما أريد لكم النجاة وتريدون لأنفسكم الهلاك، أريد لكم الجنة وتريدون لأنفسكم النار، فالدعوة التي أريدكم لها ترتقي عن التقليد الأعمى للآباء، دعوة تحمل لحياتكم منهجًا وأسلوبًا للحياة، وما أيسر تصحيح مسار الحياة حينما تدرك النفس حقيقة الحياة وتأنس بلذة الإيمان.

﴿ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ هو عزيز قادر، وهو غفور يتجاوز ويعفو ويسامح، هو عزيز لا يُغلب، قوي لا يُقهر، وهو غفور يجازي الحسنة بأضعافها بل يجازي على النية الحسنة حتى دون أن يفعلها صاحبها ، فيا لله ما أعظم قدرته وما ألطف حلمه بعباده وهو الغني عنهم !

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾في الآخرة نعلمها فكيف في الدنيا ؟ كل الذين يعبدون من دون الله إلهًا لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا، لا يملك لهم خيرًا ولا شرًا، يدعونه فلا يستجيب، ينادونه فلا يُجيب، ويستنصرونه فلا ينصرهم، يعلقون آمالهم على إجابة فلا يرونها طيلة حياتهم، هكذا خذلان عقيدتهم في دنياهم قبل أخراهم.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ليس إسراف مال إنما إسراف أقوال وأفعال، طريق الحق واضح فيعرضون عنه، أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعصيته، بالصد عن سبيله، بمحاربة منهجه، بالتضييق على المؤمنين به، أسرفوا كثيرا فلم يردهم للحق رسول يدعوهم، ولا معجزة ترد إليهم رشدهم، فكان الجزاء من جنس عملهم أنهم أصحاب النار، إنه وعد غيبي وهم ينكرون الغيب، لكنه وعد يقيني سيرونه لا محالة .

﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾خاطب بها نفسك في كل ابتلاء وقع لك، خاطب بها نفسك إذا غلبك قوي بسلطانه ، خاطب بها نفسك إذا ظُلمت ولم تجد لك منصفًا، خاطب بها نفسك في كل ليلة غلبتك الهموم، خاطب بها نفسك في كل مرة حدثتك نفسك بمشقة الطاعة، أن مردنا إلى الله، أن موعدنا بين يدي الله ليقضي ربنا بيننا، في حينها تهدأ نفسك فتأنس وتطمئن. إن جعلت الله كفيلك كفاك، وإن جعلته عونك أعانك، وإن جعلته قوتك أيدك ونصرك .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾أنت مُطالب بالدعوة، بالنُصح ، بالإرشاد ، أما التوفيق والهداية فليست شأنك ولا قضيتك إنها من الله، سألها إبراهيم عليه السلام لأبيه ومات كافرًا ، وسألها النبي ﷺ لعمه فنزل فيه قرآن يُتلي ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ السعي قضيتك، والدعوة قضيتك، والتذكير قضيتك، أما الهداية فلله وحده، فالزم ما يعنيك وسل الله التوفيق ولا يضرنك قلة السالكين في طريق الحق، ففي أمم ممن كانوا قبلنا بعث الله أنبياءً لم يؤمن بهم أحد حتى يُبعث النبي ولم يكن معه مؤمن واحد من قومه يُصدقه .

﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ ﴾فستذكرون نصيحتي، لكنكم قد تذكرونها في وقت لا جدوى فيه من تذكرها، وكأنه بكلماته يرسم لهم النهاية، فالتوحيد الذي فر منه فرعون ظل يرجوه وهو يغرق ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[1] أدرك الحقيقة في غير وقتها، أدركها في وقت لا فسحة فيه، وغفل عن الانصياع لها طيلة حياته .

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾كل أمري ، صغيره وكبيره.قد يضع الله في طريقك ابتلاءً لا كاشف له إلا هو، وعقدة لا حل لها في حدود إمكاناتك لأنه يريد أن يرى قلبك مستسلمًا لقضاء الله، راضيًا بأقدار الله، مقرًّا لله وحده بالقدرة ، يريد أن يسمع صوتك مناجيًا خارجًا من حولك وقوتك لاجئًا لحول الله وقوته، يريد أن يرى إيمان قلبك لا إسلام لسانك، يريد لك اصطفاءً يخرجك من ضيق مقدرتك لسعة عطائه ، وحين تصل لهذا المستوى من الإيمان ترى كل الأحزان قد تلاشت، وكل الابتلاءات قد انكشفت وكل الصعاب التي ظننت للحظة ألا حل لها قد بدت صغيرة بعدما فتح الله لها ألف باب يخرجك منها، في حينها يطمئن القلب الحائر، وتهدأ النفس القلقة فتركن أنفسنا إلى حقيقة إيمان القلب والقالب .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾بصير بأعمالهم ، عالم بأحوالهم، وبمقادير حاجاتهم، يُعطي بفضلٍ ويمنع بحكمة فيكون في العطاء خير وفي المنع خير وما يميز المؤمن عن غيره هو رضاه بحكم الله في أمره في المنع والعطاء .

قال ابن عطاء الله :"ربما أعطاك "الله فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء."

---

١ [يونس: ٩٠]

انتهى الحوار وانتهى الجدل إلى حيث ينتهي كل جدال مع مستكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فتأبى نفسه الانصياع للحق وتأبى نفسه إلا الركون للهوى، ثم تأتي الإشارة في لفتة بسيطة تقذف في النفوس المؤمنة السكينة وهي تتابع الحوار الجدلي من أوله، لترى الخاتمة في أروع صورها، وترى معية الله في صورتها المادية المحسوسة فحال دون أن يُصاب بأذى﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾[1]سيئات ما مكروا في الحياة الدنيا، فحاشية فرعون التي تنطق بلسانه تأبى أن تسمع ما يخدش ضمائرهم الغائبة، إلا أن عناية الله فوق تدبير البشر، وفوق مكر البشر، فحفظه الله في الدنيا من مكرهم، وسيرعاه في الحياة الآخرة برضاه، وقد شهد الله له بالإيمان ووصفه بالرجولة، وجعله رمزا لكل داعية يقوى على قول كلمة الحق، فأنصار الباطل تؤرقهم الكلمة الصادقة، تقض مضاجعهم، ترد الظالم إلى حجمه الطبيعي، إلى بشريته الزائلة، إلى عدم الاغترار بسلطانه وقوته، ترده إلى عجزه البشري.

انتهت قصة الرجل المؤمن، لكنها بقيت حية في ضمائر المؤمنين، في ضمائر الدعاة، في ضمائر الفئة التي لا ترضخ لباطل ولا تركن لظالم .

انتهت القصة في أحداثها وبقيت في قيمتها وأثرها، تحمل لنا حقيقة الدعوة وقوة الداعية، فالعمل الذي جاء به في صميم الدعوة لكنه جاء من منظور خارج عنها ﴿ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ فما الفائدة من الضجيج إن كان المضمون أجوف، الضجيج لمن لا هدف لهم، أما أصحاب الرسالات فينشغلون بالجوهر، ينشغلون بإيصال فكرتهم نقية بلا شوائب، فما القيمة التي يتركها الالتزام الأجوف الذي يخالف فيه القول العمل، والسلوك للمنهج؟ إن الرسالة التي حملها لم ينشغل بالكيفية التي هو عليها بقدر انشغاله بشرح تفاصيلها بالحُجة العقلية التي يقبلونها، فما الفائدة من الصدام؟ إنه يبني حاجزًا يحول دون التواصل بين الناس، يحول دون الوصول إلى مشاعرهم، إلى مخاطبة ضمائرهم، فالدعوة الجافة تموت والدعوة الغليظة تموت، إنما الدعوة اللينة يبقى أثرها ويجني دعاتها ثمراتها، والدعوة التي تبقى هي التي ترتقي بأفهام الناس وترتقي بمشاعرهم، ففي أشد اللحظات شدَّة جاء بدعوته الراقية في مضمونها الرقيقة في أسلوبها.

---

١ [غافر: ٤٥]



مريم وميلاد المسيح عليهالسلام



قال النبي ﷺ (كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ)[1] كمال في الصفات الإنسانية، من فضائل وخصال تسمو بهن عمن دونهن من الناس، ليس للدنيا حظوظ في قلوبهن، إنما سلِمت قلوبهن من كل شائبة تُعكِّر صفو الإيمان الحقيقي، إيمان يسكن القلب وتبرهنه الأقوال والأفعال، وهكذا كانت حياة مريم ابنة عمران، أفضل نساء زمانها، دينًا وخُلقًا، لم تكن نتاج تربية بقدر ما كانت نتاج دعوة صادقة لهج بها قلب أمها الصادق المتلىء بالإيمان .

وقصة مريم لم ترد في القرآن كإخبار عن المعجزة التي غيرت حياتها فحسب، إنما بدأت تفاصيل قصتها من قبل ميلادها، من أم صالحة قد نذرتها الله من قبل أن تولد، ولما علم الله صدق نيتها قَبِلَ منها نذرها، فنشأت مريم في أروع صورة يمكن أن تنشأ فيها فتاة، في بيت حافل بصنوف الطاعات وفي كفالة نبي من أنبياء الله، لتنشأ على أتم صور الطاعة، وأروع صور العبادة، على الصورة التي جعلت فتاة في مطلع عمرها ترى رزقًا يُساق إليها في محراب عبادتها فلا تعجب إنما تُجيب بكل ثقة ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] لم تكن نشأتها عادية كما حياتها فيما بعد، لقد جاءت مريم كسرًا للمألوف في حياة النساء، ولم تحصل على مرتبة الصديقية إلا حينما اجتازت عديد من الابتلاءات قد تجاوزتها لا بشيء سوى بصدق توكلها على الله، الذي شملها بعفوه ولطفه في أصعب لحظاتها ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾[3]

والسياق الذي وردت فيه تفاصيل القصة جاء في عرض حي مليء بالمشاعر والانفعالات حينما تقرأ تفاصيله تجد ثباتها مع كل ابتلاء يهز كيانك، يحرك كل مشاعرك تفاعلًا معها، تستوقفك الردود في مواقف مختلفة، يشد انتباهك ذاك اليقين الذي ينطلق مع كلماتها، حين ترى يقين فتاة في مقتبل العمر تجيب على نبي كريم ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] يقين فتاة في مقتبل العمر

١ رواه البخاري (٣٤١١) ، ومسلم (٦٤٢٥)
٢ [آل عمران:٣٧]
٣ [المائدة:٧٥]
٤ [آل عمران:٣٧]

تجيب على ملك كريم ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[1] يقين فتاة في مقتبل العمر تجيب على قومها بإيماءة صغيره لوليدها ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ ليبدأ خطبة ستظل عالقة في تاريخ البشرية، وهي خطبة – رغم قصر كلماتها – تضع الفئة المؤمنة على طريق الحق، الحق الذي لا زيغ فيه، لا شبهة فيه، لا مكان لأقاويل باطلة ، ليكون أول ما ينطق في خطبته ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[2] إقرار واضح وصريح أنه عبد لله، أنه بشر مكتمل البشرية، أنه نبي من أنبياء الله ، ذاك الإعلان الذي ظل يردده على آذان الناس لتعيه أفهامهم وتستوعبه قلوبهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[3] إعلان بربوية الله وحده من عيسى عليه السلام لكل البشر، لا استثناءات في هذه، لا مجال لشبهات ولا أباطيل ولا شك ولا أوهام ، ولا تأويلات .

قال تعالى ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾

آل عمران [٣٥-٣٧]

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ لا عجب أن تكون لمريم أم كهذه، فهذا أشبه بسنن الحياة، صلاح الآباء يقود إلى صلاح أبنائهم، فالصلاح منجاة للمرء ولذريته، لذا نجده واضحًا ومباشرًا في قصة الغلامين بسورة الكهف؛ فكان تعليل الخضر لموسى عليه السلام ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾[4] والأبناء لا ينصلح شأنهم في الدنيا بقدر ما تُرِك لهم من ثروة بل بقدر ما تُرِك فيهم من أثر وقدوة .

---

١ [مريم:١٨]

٢ مريم [٣٠]

٣ [مريم:٣٦]

٤ [الكهف:٨٢]

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ محررًا من ماذا؟ محررًا من كل مظاهر العبودية لغير الله، من كل تعلق إلا بالله، من كل ميل للدنيا ، من كل حظ للنفس ، من كل شهوة ، من كل قول أو عمل لا يأتي وفقًا لمراد الله، من كل اعتصام إلا بالله، من كل ركون للدنيا أو اعتماد على الخلق ، هذا هو التحرر، هذا ما يرتقي بقلب المؤمن نحو الكمال، كما يرتفع به من دونية الشهوة إلى عز العفة، من دونية الظن السيئ إلى يقين حُسن الظن، ليصبح خالصًا لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ إذا رتبت خطواتك وفق مراد الله وجدت السعادة أيًا كان الوضع الذي تحياه، وإذا رتبتها وفق مراد النفس وجدت الشقاء أيًا كان الوضع الذي تحياه .

﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾تجود بما في بطنها قبل أن يأتي إلى الدنيا، فكيف يكون حالها فيما بين يديها من متاع الدنيا ؟!

﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾تتقوى بالله لتحقق أمنيتها، تهتف بالدعاء ليقبل نذرها، تتقوى بعون الله لا بعون الظنون، تأمل أن يحيط وليدها معية الله فلا يشقى، لم تكله إلى فطنتها، إلى مالها، إلى ما ستوفره له من صنوف الراحة والتعليم والتهذيب، إنما تهتف بالدعاء ليعينها الله في تربية وليدها .

أنفق محمد بن كعب القرظي – أحد التابعين – مالًا كثيرًا فقيل له: لو تركت شيئًا لأبنائك فقال لهم :ادخرت مالي لنفسي عند ربي، وادخرتُ ربي لأولادي.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾كانت تتمنى ذكرًا يصلح لخدمة بيت المقدس ـ رقعة من الأرض تقام فيها الشعائر ـ وأرادها الله أنثى تخدم العقيدة، تظل آية عالقة في أذهان البشرية ـ ما دام على الأرض حياة ـ تدل على طلاقة قدرة الله. والله حين يتفضل على خلقه لا يعطي ما سألوا فحسب بل يزيد فضلًا وكرمًا بأكثر مما تمنوا.

﴿ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ ﴾ تفضيل في حدود الغاية التي كانت تقصدها، فإنما تمنت ولدًا يقوم على خدمة بيت المقدس ويقوى على مشاق هذا العمل، وهو تفضيل لا ينتقص من جنس لصالح آخر، فإنما يرمم كل منهما نقص الآخر فيكمل بعضهم بعضًا.

﴿ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾ومريم تعني في لغتهم العابدة أو خادمة الرب، وحين يرجو الآباء صلاح أبنائهم يجتهدون بكل ما في أيديهم لحملهم على الهداية حتى في أبسط الأمور وهو اختيار الأسماء.

﴿ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾ظلت عند نذرها حتى بعدما ولدت أنثى، لكنها رجت أن تكون خادمة لعقيدتها إن لم تكن صالحة لخدمة البيت كالذكور، فتمنت أن تنشأ على تربية عقدية صحيحة كي تدرك ما فاتها من خدمة البيت كالرجال بخدمة عقيدتها كامرأة صالحة.

﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ لما اختارت اسمًا لها هتفت بالدعاء لها بالصلاح ليكون فعلها مطابقًا لاسمها ، فكان دعاؤها أن يعصمها الله من كل شوائب الشرك، من همزات الشياطين﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ أي: أمنعها وأجيرها بحفظك أن يصيبها شر من الشيطان ، والشيطان في لغة العرب هو كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء[1] وحين يكون العبد في معية الله لن يقوى شيطان من إنس أو جن على أن يمسه بسوء.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ ﴾ تقبَّل الله منها نذرها، لِما علم من صدق سريرتها، وحين يُقبِل العبد نحو ربه بسريرته يُصلِح الله له علانيته، فتجده ميسرًا لفعل الخيرات، مقبلًا على كل صنوف الطاعات، وهذا من علامات قبول الله له.

﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا ﴾بعض الناس يظن أن لطف الله به يكون في كِبَره، يكون في مرضه، يكون في ابتلاء أصابه، ولم يدر أن لطف الله يشمله حتى في تربيته لأبنائه، تجد فيهم صلاحًا فتستبشر فيهم خيرًا.

١ تفسير الطبري = جامع البيان (١/ ١١١)

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾اختلفوا في أيهم يتولى رعايتها، ولما كانت نتاج دعوة صالحة تقبلها ربها وأنبتها نباتًا حسنًا، فكان من قبول الله أن يتولى رعايتها نبي من أنبيائه لا شخص عادي وإن كان تقيًا، وكفالة زكريا عليه السلام لمريم لم تبدأ منذ ولادتها إنما منذ أن بلغت سنًّا تصلح فيه التربية وتقوم فيه بخدمة البيت. وقد ورد بيان اختلافهم فيمن يقوم بأمرها كل يريد أن يرعاها وذلك لأن أباها قد تُوفي قبل أن تولد، ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ آل عمران [٤٤]

قال ابن عاشور في تفسيره " ولما ولدت مريم كان أبوها قد مات ، فتنازع كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل ، حرصًا على كفالة بنت حبرهم الكبير، واقترعوا على ذلك، فطارت القرعة لزكريا عليه السلام، والظاهر أن جعل كفالتها للأحبار لأنها محررة لخدمة المسجد فيلزم أن تُربى تربية صالحة لذلك " [١]

وقال الرازي في تفسيره : «ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء، إلا أنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم أنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام ، فلا جَرَمَ صار هو أولى بكفالتها والله أعلم». [٢]

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾المحراب هنا ليس المعروف بوقتنا الحالي الذي يُصلي فيه الإمام، إنما هو غرفة كانت مُلحقة ببيت المقدس بُنيت لمريم لتعتكف فيها، فهو في الأصل بناء كان يُتخذ للعبادة والخلوة وهو غير المسجد وكان يُسمى بالمحراب لأن المقيم فيه كأنه محارب للناس مبتعد عنهم.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ ﴾ ليست كرامة مرة ، ولا فضل مرة، ولاية الله لها كاملة ، عناية الله لها موصولة لم تنقطع ، يراها زكريا عليه السلام في كل مرة يزورها في محرابها.

١ التحرير والتنوير: (٣/ ٢٣٥).
٢ تفسير الرازي - ج ٨ ص ٥٠ - آل عمران ٢٦ - ١٢٩

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ رزق ساقه الله إليها يصل إلى داخل محرابها، وهكذا هو عطاء الله ، يرزق بأسباب مألوفة ظاهرة، ويرزق بلا أسباب حين يريد إظهار كرامة عبد من عباده.

وفي سوق الرزق إليها بهذه الكيفية تهيئة لها لقابل المعجزات، لتألف رؤية ما خالف الواقع والمألوف في حياة الناس، لتأنس نفسها بآيات الله، لتأنس نفسها بمعية الله، ثم هو رزق ليس معجزًا في كيفية وصوله لها فحسب، إنما فيما يشتمل عليه.

قال ابن عباس: ثمار الجنة، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ المعجزة هي أمر يُجريه الله على أيدي الأنبياء ويكون على خلاف ما اعتاده الناس من سنن الكون وقوانينه، مقرونًا بالتحدي بهدف إثبات صدق نبوتهم، كتحول عصا موسى عليه السلام إلى حية.

أما الكرامة فهي أمر يجريه الله على يد بعض أوليائه، ويكون على خلاف ما اعتاده الناس من سنن الكون وقوانينه كالرزق الذي ساقه الله لمريم، وفي حياة أصحاب النبي بعض الكرامات، ففي صحيح البخاري أن خبيب بن عدي الصحابي حينما أخذته قريش لتقتله حبسته أيامًا فقالت امرأة ممن كانت في الدار التي حُبس بها (ما رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِن خُبَيْبٍ، لقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِن قِطْفِ عِنَبٍ وما بمَكَّةَ يَومَئِذٍ ثَمَرَةٌ، وإنَّه لَمُوثَقٌ في الحَدِيدِ، وما كانَ إلَّا رِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ)[1]

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أتدري من السائل ومن المسئول ؟ السائل زكريا عليه السلام والمسئول مريم ابنة عمران، حين رأى ما استغربه لم يتغافله، إنما سأل ، من واجب المربي أن ينتبه لأحوال من يقوم بتربيته، أن يسأل إذا ما رأى ما لم يألف رؤيته فيطمئن القلب .

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من ألطاف الله العظيمة أن جعل كل شيء في الحياة قابلًا للتعويض إلا طريق النجاة فإنه مرتبط ارتباطًا تامًا بالله وحده ولا تعويض له .

---

١ البخاري ٤٠٨٦

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ توفيق في الرد، إرجاع الفضل لله وحده، تخاطب نبيًّا كريمًا وهكذا كان ردها، لذا كأنما استشعر زكريا عليه السلام أن في جوابها هذا إشارة له، ولم يكن له ولد فبعدها مباشرة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1] بعض الردود تأتي في حياتنا على شكل رسائل؛ فإذا ما خَالَطْتَ من ترى فيه الصلاح والتقوى فلا تجعل عباراته تَمُرُّ عليك مرور الكرام .

عن ابن عباس قال: فلما رأى ذلك زكريا عليه السلام - يعني فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف - عند مريم قال: إنّ الذي يأتي بهذا مريمَ في غير زمانه، قادرٌ أن يرزقني ولدًا، قال الله عز وجل ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ قال: فذلك حين دعا.[2]

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ آل عمران [٤٢، ٤٣]

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ كل الأحداث التي مرت بها مريم كانت تؤهلها لأن تصبح إحدى آيات الله، من رزق يأتي بغير حساب، إلى ملك من السماء تمثل لها في صورة بشر ليخبرها باصطفاء الله لها، لتأنس بمعية الله، لتطمئن في قابل الأحداث، لتركن إلى ركن الله لا إلى ركن البشر حين تحمل بلا رجل، والإيمان حين يخالط القلب يُخضع أفعال المؤمن وأقواله لمراد الله، يعرضها على مراد الله، فإن وافقته قالها وفعلها وإن عارضته أعرض عنها، فلا قول ولا فعل يصدر منه يخالف مراد الله .

﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اختارها دون غيرها لتكون إحدى آيات الله، وقد تكرر لفظ الاصطفاء مرتين فالاصطفاء الأول كان عامًا فقد ميزها بالإيمان والصلاح والطهارة، لكنه اصطفاء لم يقتصر عليها، فقد شاركها فيه غيرها من النساء، أما الاصطفاء الثاني فهو خاص لمريم دون نساء العالمين بأنها الوحيدة التي ستلد دون ذكر، وهذه مسألة لن يشابهها فيها أحد.

١ [آل عمران :٣٨]

٢ تفسير الطبري (٦٩٤١)

﴿ يَـٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾لا زال الخطاب من الملك جبريل عليه السلام إلى مريم أن هذا الاصطفاء يحتاج منك مزيدًا من الطاعة، مزيدًا من الركوع والسجود، مزيدًا من العبادات التي ترتقي بها، فالطاعات ترتقي بالمؤمن بقلبه، بعقله، بجوارحه، لا تتركه كما كان قبلها.

عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: « إنَّ فُلانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ» قَالَ ﷺ « إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ »[1] أي إن صلاته سَتردعه عن تكرار المعصية.

قال تعالى ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ آل عمران [٤٥ ، ٤٦]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾رغم شدة الموقف عليها، رغم كل ما سوف تلاقي بعده، إلا إنه يسوق إليها الخبر على أنه بشارة، الله يبشرك، الله الذي اصطفاك الآن يبشرك، أي عطاء هذا؟ أي فضل هذا؟ أي اختصاص لمريم هذا؟

﴿ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾لقب واسم ونسب، كله من الله ، لم تسمه أمه ولا ذووه، وقد أُنتسب إليها لا إلى أب، إخبار لها مع البشارة أنه وَلَدٌ من غير أب لذا فطنت لهذا حينما جاوبت فقالت: ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ ﴾

﴿ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ المسيح هو مسيح من الله أي مبارك من الله تعالى وقيل سمي مسيحًا لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدُهن، وقيل سُمي مسيحا لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقيل المسيح الصدِّيق.

أما الثابت أن الذي سماه ولقَّبه هو الله تعالى ، واللقب جاء مُعرَّفا بالألف واللام ليكون قد اختص باللقب دون غيره، فما قال قائل المسيح إلا وعُرف أنه عيسى ابن مريم عليه السلام، أما اللقب ففيه إشارة إلى أن الممسوح يقتضي من يمسحه وأن المبارك يقتضي من يباركه ، وكونه بشرًا رسولًا فقد جرت عليه بركة الله ولاصقت اسمه ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾.[2]

١ مسند أحمد ١٠٠٣٠

٢ [مريم : ٣١]

﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ وجيهًا، ما أجملها الألقاب التي تستند على عقيدة صادقة، التي تستند على إيمان خالص، وجاهة في الدنيا بالنبوة فهو نبي من أولي العزم من الرسل، ووجاهة في الآخرة بعلو المنزلة حين يجمع الله الناس للحساب .

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لن يكون شخصًا عاديًا، إنما ستكون حياته كلها معجزات، إعجازًا في طريقة حملك به، ثم إعجازًا في نطقه في المهد، ثم إعجازًا في كهولته وقد صار نبيًا من أولي العزم ، وإعجازًا في الصبر على ما لاقى من قومه، من عناد واستخفاف وتنكيل به، من مغالاة في الحُب ، ومغالاة في البغض.

قال تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ آل عمران [٤٧]

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ ﴾ استفسار يكون في الجواب عليه سكينة تستقر في القلب فلا يجزع مما هو آت، لذا جاء الجواب ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ إن الأمر خاضع لإرادة الله، لمشيئة الله، إن الله سيجعل من ميلاد ابنها هذا آية للعالمين، فهي أهل للاصطفاء وهو أهل للبركة.

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ ﴾ كان من المقبول منها أن تستفسر ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ وتقف لكنها أتمت استفسارها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ ﴾ وهذا من فطنتها حينما سمعت ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فهو ابن مريم لم ينسب لأب إنما انتسب لها ولو كان من أب لانتسب إليه لا إليها، لذا اكملت استفسارها الباحث عن جواب لهذا الانتساب لها فقالت ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ فجاء الجواب تأكيدًا لفهمها ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ إنك صادقة حين قلت ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ومع ذلك سترزقين بولد، وهذا راجع لمشيئة الله وقدرته لا للأسباب المألوفة التي اعتدتِ عليها .

وفي سورة مريم جانب آخر من تفاصيل القصة

قال تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ مريم [١٦-٢١]

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ لم يذكر الله تعالى امرأة في القرآن وسماها باسمها إلا مريم بنت عمران، فأفرد لها القرآن الكريم سورة كاملة باسمها، وسورة باسم أهلها وذويها «آل عمران» وجاء ذكر اسمها في نحو ثلاثين موضعًا.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ قال الزركشي في كتابه « البرهان في علوم القرآن»: إن عيسى لا أب له، واعتقاد هذا واجب، وإن تكرار اسم عيسى عليه السلام منسوبًا إلى أمه مريم استشعارًا للقلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود عنها «. (١).

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾فاتخذت من دون أهلها سترًا يسترها عنهم وعن الناس، لذة العبودية لله ليست بحاجة إلى أعين تنظر أو آذان تسمع، إنما خلوة ومناجاة ويقين في القلب أن الله يسمع نجواها .

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ بعض الأعمال لا يليق بالمؤمن أن يفعلها أمام الناس وإن كانوا أهله وخاصته، ليكن لك خبيئة عمل لا يعملها إلا الله .

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ سويًا أي مستوي الخِلقة ، فما كانت لتتحمل رؤية ملك على صورته التي هو عليها، إقرار بالضعف البشري وأن الله لا يُحمِّل عباده – وإن كانوا أولياءه – فوق طاقتهم .

---

١ البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦٣)

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾جاءها جبريل عليه السلام في صورة رجل ، فلما رأت رجلًا قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء، فأول ما نطقت كانت التعوذ بالله ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ومن قبل قالها يوسف عليه السلام ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾[1] حين يفزعك أمر ليكن أول نطقك الالتجاء لله، فذكر الله في كل أمر يورث القلب سكينة تخرجك من فزعك إلى الأمن بمعيته، من عجزك إلى قدرته، من ضيقك إلى سعة فضله، من فراغ حيلتك إلى جميل تدبيره.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ بالرحمن، استعاذت بالرحمن وكأن لسانها قد اعتاد ذكر صفة الرحمن، ففي لحظة فزعها استعاذت به حيث رأت رجلًا في هيئته الصلاح والتقوى لكنه ظهر في طريقها بلا مقدمات ففزعت منه.

﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾لم تكن تعلم أنه ملك من عند الله قد تمثل لها في صورة بشر تستطيع رؤيته ، فافترضت فيه التقوى فقدمتها تذكيرًا له بالله، حتى مع هول المفاجأة لم تزد عن التذكير بالله ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ ﴾فالتقي حينما يسمع اسم الله تغلبه تقواه على مجرد التفكير في الذنوب، لذا حُذف جواب الشرط لأنه فُهم من السياق كأنما قالت إن كنت تقيًّا فلا تتعرض لي بسوء .

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ رسول ربك، يُطمْئن فزعها أنه ليس شخصًا عاديًا، إنما هو ملك مرسل من عند رب العالمين ، عَرَّف نفسه ثم وضَّح سبب وجوده ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾استفهام تريد به إزالة الحيرة مما سمعت، إزالة الدهشة مما قاله، ولد ولم يمسسني بشر؟ ثم أعقبته بدفاع عن نفسها تنفي به كونها قد أخطأت، دفاع عن نفسها بما تعرفه من الأسباب، ولد بلا أب وبلا خطيئة ؟

وأقدار الله خاضعة لمشيئته، يهيئ الأسباب لوقوعها ، وقد تحدث بلا أسباب وذلك لأنه قادر .

---

١ [يوسف : ٧٩]

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ مَنْ أنبتها الله نباتًا حسنًا، ومَنْ كفلها نبي كريم في تربيتها ما كانت لتستبعد شيئًا عن قدرة الله تعالى إنما كالذي يستفهم كيف سيحدث كل هذا؟ أهو بعد نكاح مستقبلي أم أمر يقضي فيه الله بحكمه؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾يأتي الجواب ليزيل حيرتها، يُقر بحقيقة قولها، أنها عفيفة لم يمسسها بشر، أنها طاهرة لم تكن بغيًا، وأن خَلْق ولد بلا أب هو أمر هين على الله الذي خلق أول الخلق بلا أم أو أب، جواب يردها إلى الحقيقة الغائبة عن أذهان أغلب الناس أن الأسباب خاضعة لمشيئة الله، وأن خلق ابن بلا أب لن يعجز إلهًا خلق آدم بلا أم أو أب، لذا أراد الله للطفل الصغير أن ينطق؛ مخالفًا للعادة، حتى يستوعبوا أن خلقه أيضًا مخالفًا للعادة، وأن الالتفات الدائم للأسباب وحدها هو قصور في الفهم، وأن رد قضية خلق المسيح إلى حقيقتها الأولية في خلق آدم يُذهب أي عجب، بل يقتضي التسليم المطلق، والإيمان المطلق أن الذي خلق آدم دون أب أو أم قادر على خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب .

﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾يتابع شرحه لها لتطمئن أن كل هذا لن يجري مثل باقي أمور الحياة، أن وليدها لن يكون كغيره من أهل زمانه، إنما هو آية من آيات الله، معجزة من معجزات الله، وأنه سيكون في ميلاده ونبوته فيما بعد رحمة للناس، لمن آمن به وصدقه .

﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾آية واضحة يستدلون بها على طلاقة قدرة الله تعالى في خلقه بلا أب، وقد خلق آدم من قبل بلا أم أو أب

﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾أي أن ما أقوله هو قضاء الله الذي لا يُرد، إنه أمر كائن لا محالة فلتطمئني لأقدار الله ولتستقبليها بقلب المؤمن، والذي يعامل الله بالطاعة في رخائه يعامله الله بلطفه في شدته، وهكذا كان لطف الله بمريم في الشدة أن ألقى في قلبها سكينة فلم تفزعها الأحداث .

قال تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾مريم [٢٢-٢٦]

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾بعدما أخبرها جبريل عليه السلام بالأمر نفخ فيها نفخة أحدث الله بها الحمل بعيسى عليه السلام، وفي سورة التحريم ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[1] أحصنت فرجها أي لم يدنسه شيء، لم يعلق بثوبها رِيبة.

﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾في الرخاء اختارت المكان﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ وفي الشدة عجز العقل عن اختيار المكان فكان ما يشغلها هو الابتعاد﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ هكذا تفعل النوازل بالمؤمن، ولن يتجاوزها إلا حين يسكن قلبه استسلامًا لقضاء الله ورضا به .

﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ تنحَّت به عن الناس إلى مكان ناءٍ، لكن لطف الله بها لم يبعد عنها. إذا انقطعت السُبل في الناس فإنها لا تنقطع في الله.

﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾بعض الابتلاءات لا يصلح معها المخالطة، إنما العُزلة، العزلة عن فضول الآخرين، عن كلماتهم الجارحة ، عن تهامسهم ، عن نظراتهم الشامتة، في حينها تكون العزلة منجاة من استنزاف الطاقات هدرًا على ردود لا جدوى منها.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾حملت فترة حملها كما تحمل النساء، وولدت كما يلدن، ليتم أمر الله﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ فلما جاء وقت ولادتها لجأت إلى جذع نخلة، لا أهل ، لا سند من نساء يساعدنها في أمر ولادتها، انقطع عنها كل عون من البشر ليتعلق قلبها بعون الله وحده، بمعية الله وحدة ، بلطف الله وحده .

---

[1] التحريم :١٢

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ قالتها امرأة تربت في بيت صالح، وتكفل بتربيتها نبي كريم، وكلَّمها ملك من ملائكة الرحمن، هكذا يصنع الألم، هكذا قد تخوننا بعض ألفاظنا في أوقات عصيبة مرت علينا .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾قالتها في وقت بلائها، وقت ضيقها وشدتها، ولم تعلم أنها سوف تلد نبيًا من أولي العزم، ليس كل بلاء شقاء، إنما تأتي المنح من رحم المحن ، ويأتي اللطف من رحم الشدة .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾كأنما مَر بمخيلتها ما ينتظرها من قومها فقسى عليها أن ابتلاءها سيكون في عفتها ، وأن قومها لن يُصدِّقوا خبرها، وأن مريم العابدة سوف تصبح موضع اتهام من مرضى القلوب من قومها ، فتمنت الموت رغم ما أخبرها به الملك ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ رفقًا بمن يئنون تحت وطأة الابتلاء ، إن قلوبهم في غمرة آلام لا يعلمها إلا الله .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ لكل إنسان طاقة في الكتمان، في الصبر، في التحمل، بعدها يحتاج إلى أن ينطق بشيء يُسَرِّي عما بداخل قلبه، لذا كان رد فعلها أول مرة قبل وقوع الابتلاء ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ استفسار غير مشحون بعاطفة ترغب في الإيضاح فلم يكن البلاء قد وقع بعد، أما بعدما أصبح أمرًا واقعًا تعيش تفاصيله جاءت الألفاظ تحمل شيئًا بسيطًا مما تحمله بداخلها من ألم وحيرة، فهي بشر تفجعها النوازل، تئن من شدة الابتلاء، وهذا مما تسمو به نفوس المؤمنين، إنهم يتفاعلون مع الابتلاءات ببشريتهم لكن إيمانهم يحول دون السخط، دون الجزع، دون التبرم، دون الانتكاس بعد الرضا.

﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ بلاء تمنت معه الموت، تمنت أن يختفي ذكرها، ولم تدري في لحظتها أنه بلاء في ظاهره ورحمة في باطنه، وأن حديثها العابر في لحظة ألم ووقت ابتلاء حين تمنت أن لو تُنسى قد قصه الله في كتابه لِيَكتُبَ لكلامها العابر خلودًا في الذكر .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ صراع داخلي قد بلغ ذروته، بين واقع تعلم أنها قد صارت به آية من آيات الله، وأن ابنها هذا سيكون ذا شأن ، وبين موقف المجتمع الذي تعيش فيه، والذي سوف يتربى فيه ابنها، والذي تعلم مسبقًا إنكاره له، ورفضه لقبوله وتكذيبهم لها .

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ قيل أن المنادي هو جبريل عليه السلام وقيل هو عيسى عليه السلام، والقول بأنه عيسى عليه السلام هو الأظهر في سياق الحديث وذلك لأنه لما حدَّثها قومها في أمره كل ما فعلته أنها أشارت إليه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته، ومثل هذا في قصة موسى عليه السلام حين أمره الله أن يُلقي عصاه فصارت ثعبانًا حتى إذا صارت ثعبانًا أمام فرعون لا يجزع ، هكذا هو لطف الله بعباده، فلا يُحمِّلهم فوق طاقتهم، فحتى أنبياء الله وأولياؤه رغم نقاء قلوبهم إلا أنهم بشر لهم طاقة تَحمُّل.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ سريعًا جاء اللطف، تسمع صوتًا يبث في قلبها المضطرب الطمأنينة، ينطق صغيرها الذي لم تمض على ولادته دقائق لتعلم أنها بصدد معجزة، أنها بصدد آية من آيات الله، لذا حين سألوها فيما بعد عن ابنها هذا لم تزد عن﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾[1] فمن لطف الله أن حدَّثها طفلها أولًا لتطمئن، فحين تسمعه يُحدث القوم وهو رضيع لا تفزع .

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ أول ما سمعت من كلام وليدها ينهاها عن الحُزن. قال ابن القيم : الحزن يُضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شئ أحب إلى الشيطان من حُزن المؤمن، وقد استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم منه (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحُزَنِ).....والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، و إن كان من أمر حاضر أحدث الغم.

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ سريًّا أي جدول ماء كالنهر الصغير لتشربي منه .

١ [مريم : ٢٩]

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ كلمات تنقلها من عمق المحنة إلى سعة اليقين في معية الله، يقطع تفكيرها العميق في تفاصيل الأحداث إلى أفعال اعتيادية تشغل العقل عن مداومة التفكير في الأمر والتعمق في بناء تخيلات لمستقبل الأحداث وتوابعها.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ لطف الله بها لم ينقطع، ففي الوقت الذي تضع فيه مولودها وليس بجوارها أحدٌ يعينها؛ يُنطِق الله صغيرها ليربط على قلبها، يُجري ماء عذبًا بجوارها ، يسقط عليها الرُطب لتتقوى به ، تفاصيل تربط على قلبها الصابر أن معية الله تحيط بها، تشملها، يتكفل الله بأمرها حتى في أبسط الأمور، وفي أدق التفاصيل.

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ لا تحزني فحالتك أدعى للاستبشار والفرح، لا للحزن والضيق، إن حالتك جديرة بالمسرة لا بالحيرة، إنك بحاجة إلى السكينة والهدوء لا إلى استنزاف الطاقة بالتفكير فيما هو فوق طاقتك، فاخرجي من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، فما دام الأمر كله كان عند الله قدرًا مقدورًا فتفاصيل أحداثه كائنة وفق مراده، ولن يُضيِّع الله عبدًا اعتصم به وركن إليه واستقوى به ولجأ إليه.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾وماذا تفعل هِزة امرأة بعد آلام الولادة ومشقتها لنخلة؟ فحتى مع المعجزة جاء الجهد البشري، إفراغ الطاقة في السبب وبعدها يأتي عون الله، حتى إذا رأت أن دفعها الذي لا قوة فيه قد حرَّك النخلة فأسقطت عليها من ثمارها يطمئن قلبها ويأنس لمعية الله، فأيقنت أنها أوت إلى ركن الله المتين الذي أنطق وليدها، والذي أسقط عليها ثمرات النخيل بدفعها الذي لا قوة فيه فلا عليها بما هو آت، فسوف يُدبره الله .

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾في أشد لحظات الضعف أبقى الله الأسباب لئلا يتكل القلب ، حتى وإن كانت الأسباب بسيطة لكن بها شيئًا من السعي، من الحركة، من البذل. يأتي عون الله للعبد بعدما يفرغ الجهد في السعي، لا أن يتكل إلى عون الله فلا يحرك ساكنًا وينتظر من الله العون والتأييد ، ليس بمثل هذا تقوم الحياة .

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي ﴾ في محن كهذه، في آيات تتوالى عليها كهذه، في كرب وابتلاء كهذا؛ يأتيها الأمر بلطف أن كُلي واشربي، أن تقوي على الأيام بأسباب البقاء، أن الابتلاءات لا ينبغي لها أن توقف سير الحياة ، أن المحن إنما هي اختبار فلا نجعلها نهاية المطاف بإعراضنا عن مقومات الحياة، أن بعض الصعاب التي نلقاها يكون حلها عند الله وحده.

﴿ وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾ ما أرحم الله بعباده، أنطق وليدها في المهد، فإذا به يخاطبها بأروع الألفاظ، ألا تجزعي وطيبي نفسًا بما اختارك الله له، أن قري عينًا فاستبشري خيرًا ولا تري من الابتلاء ظاهره، فإنما أنت آية من آيات الله. في شدة المحنة يشملها الله بطلفه، حتى في الألفاظ ليسكن قلبها المضطرب وينعم بالسكينة والطمأنينة ﴿ أَلَّا تَحۡزَنِي ﴾ ﴿ وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ﴾ طعام وشراب يتقوى به الجسد، ثم علاج للقلب من الحيرة التي تعتصره كيف ستقابل قومها بصغيرها؟ فيأتي الأمر بأن ﴿ وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾طيبي نفسًا فلا حزن، ولا حيرة، ولا وهن، ولا تردد، وتذكري في شدة الضعف تلك البشارة بالاصطفاء على نساء العالمين، فحياتك لن تكون حياة تقليدية كغيرك من النساء ، إنما أنتِ اصطفاء من الله اختارك لتكوني إحدى آياته للبشر .

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ﴾ أوامر ثلاث عالج الله بها ضعف الجسد وحيرة القلب، فما أجمل لطف الله حين يشمل عباده بمعيته فيرتب فوضى حياتهم ويربط على قلوبهم من الحيرة فتطمئن .

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ ثم يأتي التوجيه في أكثر ما كان يشغل بالها، كيف تواجه به قومها ، أيستقيم في حالتها هذه أن تُدير جدالًا أو تُجري حوارًا معهم؟ فإذ بالأمر يأتيها ألا تنطق، ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ ليتم الابتلاء، ليكون الاختبار في صدق توكلها، كنت تخشين مواجهة قومك وبإمكانك الحديث، الآن ستواجهين قومك ولن تنطقي كلمة لتشرحي بها أو تدافعي بها عن نفسك، ليتم مراد الله ولتظهر آيات الله على أعين الناس منذ اللحظة الأولى لميلاد عيسى عليه السلام .

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾
صورة أخرى للطف الله بمريم، خفف عنها حتى مجرد الكلام ، ففي وقت الابتلاء يسكن القلب حزن فيصعب عليه أن يجد ألفاظًا يشرح بها حاله ، فلا يجد سوى الصمت سبيلًا ، فكيف بمريم ولم يكن لها حُجَّة عند الناس ظاهرة؟ في بعض الحديث مفسدة، لذا كان في الصمت خير لها.

قال تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ مريم [٢٧-٢٩]

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ ﴾ مرت الأوقات على مريم طويلة مُرهِقة، فالمكان القصي الذي ابتعدت فيه عن قومها ها هي عائدة منه إليهم ومعها طفل رضيع ، حين يحسن العبد الظن بربه تهون عليه صعاب الحياة، يمضي في الحياة لا يحزن من أقدار الله، إنما يحزن من أفعال بعض البشر، من نكرانهم، من قسوة قلوبهم، من شدة ألفاظهم ، من جحودهم ، من إعراضهم ، من تكذيبهم ، أما أقدار الله فإنما يتقبلها برضا ويقين أن في كل أقدار الله خير .

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ لا تـردد ، تمـضي في طريقهـا يقـود اليقـين خطاهـا، أن الله لـن يتركهـا، أن الـذي دبـر الأمـر سـوف يتكفـل بهـا حتـى النهايـة، وهـذا اليقـين في معيـة الله هـو الـذي يـزرع الأمـل في أنفـس المؤمنـين، في أنفـس الطامحـين، لـذا تجـد أنفسـهم يغمرهـا يقـين أنـه مهـما كثـرت المصائـب واشـتدّت المِحـن فـإن الفـرج آت، وإن اليـسر آت ، وأن الله قـد يفعـل ذلـك بأسـباب مألوفـة لنـا، وقـد يفعلـه بأسـباب غـير مألوفـة ، وقـد يفعلـه بـلا أسـباب .

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾عطـاء الله دائـمًا عـلى قـدر البـلاء، في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال: « إنَّ عِظَـمُ الجَـزَاءِ مَـعَ عِظَـمِ البَـلاَءِ وَإنَّ اللهَّ إِذَا أَحَـبَّ قَوْمًـا ابْتَلاَهُـمْ، فَمَـنْ رَضِىَ فَلَـهُ الرِّضَـا وَمَـنْ سَـخِطَ فَلَـهُ السُّـخْطُ » [1]

﴿ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ سريعًـا جـاء الاتهـام، سريعًـا ألصقـوا بهـا أبشـع التهـم، لا سـؤال يسـبقه، لا مسـاحة للـكلام تعـرض أمرهـا، إنـما اتهـام مبـاشر في عِفتهـا ومـا أصعبهـا مـن لحظـات عـلى المـرء وهـو مظلـوم بسـوء الظـن ممـن يفـترض فيهـم أنهـم أعلـم النـاس بحالـه وصلاحـه وتقـواه وأن النقائـص أبعـد مـا تكـون عنـه !

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾تتتابـع الاتهامـات وتـزداد حدتهـا ليذكروهـا بصالحـي قومهـا، ومـن كانـت عـلى شـاكلتهم في العبـادة والتقـوى والصـلاح ، ثـم يـأتي مـا يدمـي القلـب مـرارة وألمًـا حـين يذكرونهـا بوالديهـا في مشـهد كهـذا، لم تكـوني إلا مـن بيـت طُهـر وعفـاف، أمـا مريـم فإنـما أوكلـت أمرهـا لله، استسـلمت لأمـر الله، علمـت أن أمـره مقـضي لـن يـرده شيء .

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾تحمـل رضيعهـا بيديهـا، اجتمع القـوم حولهـا، بـدأت ألسـنتهم تطلـق الاتهامـات جزافًـا ، لا فرصـة لـكلام، ألفـاظ صعبـة، تذكـير بوالديهـا عـلى رءوس النـاس في موقـف كهـذا، ثـم هـي بثبـات المؤمـن لم تـزد عـن الإشـارة إلى رضيعهـا، إلى معجـزة الله فيهـم ، إلى طلاقـة قـدرة الله ليروهـا بـأم أعينهـم فيـأتي

---

١ سنن الترمذي(٢٥٧٦) وحسنه

الاستنكار سريعًا أنكلم طفلًا رضيعًا ؟ كأنما رأوا في إشارتها سخرية واستهزاءً ولم يعلموا أنهم على بُعد لحظات من آية من آيات الله .

قال تعالى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ مريم [٣٠-٣٣]

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أول ما نطق به إقرار العبودية لله وحده، لئلا يكون للضلال سبيل إليهم فَيُفتنوا فيه ، إقرار بالعبودية لله ليعلموا أنه إحدى آيات الله للعالمين، إقرار العبودية لله ليغلق عليهم كل أبواب المغالاة في التقديس فيقر بأنه عبدٌ لله، والمؤمن الحق لا يرتضي بغير هذا الوصف، المؤمن الحق يخضع لمراد الله قولًا وفعلًا، المؤمن الحق يعرض كل أمره على ميزان الطاعة فما وافقه أمضاه وما عارضه أعرض عنه .

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ كانت أول ما نطق به ليقطع كل قول في حق أمه، ثم يقطع كل قول فيمن يغالي في تقديسه لميلاده المعجز، ليضع القرآن فهم الفئة المؤمنة على بينة من أمر ضلَّ فيه خلق كثير ، ليرشدهم إلى حقيقة الأمر بعرض الحقيقة ولا شيء غيرها، وافقت هوى الناس أو عارضتها ستظل هي الحقيقة ، وسيظل عرض القرآن لها هو الحق ولا شيء غيره، لذا جاءت قصة الميلاد بشيء من التفصيل بعدما حاد بسببها خلق كثير عن الحق، ونشأت عقائد ومذاهب جديدة لا تزال تُتَّبَع حتى وقتنا هذا .

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ بمنتهى البشرية، إقرار مباشر بتمام العبودية لئلا يظن ظانٌّ أن ميلاده المعجز يعلو عن كونه بشرًا، وقد صرف الإلف الناس عن تدبر قضية الخلق الأولى ، فإذا كان عيسى عليه السلام بلا أب فآدم أول الخلق بلا أم أو أب، فكيف تقرون ببشرية آدم التامة وتغالون في ميلاد المسيح ؟

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ معلمًا للخير داعيًا للحق أينما حللت .

﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ إلـزام بمداومـة الطاعـة مـا دام حيًـا، طاعـة لا تنقطـع، لا تتوقـف، ليـس كـما يدَّعـي البعـض أن المـرء إذا بلـغ درجـة مـن درجـات المعرفـة بـالله تعـالى يُـسرَّح مـن قيـود التكاليـف ومشـقتها ، فهـذا نبـي مـن أولي العـزم أوصـاه ربـه بمداومـة الطاعـة مـا دام حيًـا، وخـص الصـلاة والـزكاة لعظيـم فضليهـا.

﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ أوصاني بالقيام بحقوقه وأولها الصلاة، وحقوق عباده علي وأولها الزكاة.

﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ بعد كل هذه النعم التي أنعم الله بها عليه يُقر بالفضل لأمه على مرأى ومسمع منهم في مشهد لم يحدث من قبل، بكلمات لا ينطق بها إلا نبي كريم ، فينصفها أمامهم ، ويقر عينها أنه سيكون ابنًا بارًا بها، ولا سعادة للأم أكثر من بِر أبنائها بها .

﴿ وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ إقـرار بالفضـل لله وحده، فلا يمكن أن تتحول نعم الله أداة للتجـبر عـلى الخلـق ، فآيـات الله وتفضلـه عـلي بهـا لأكـون عبـدًا مطيعًا لا جبـارًا عـلى الخلق متعاليًـا عليهـم، ولـن تجـد جبـارًا في أفعالـه إلا ولازمـه الشـقاء، كأن التجـبر قريـن الشـقاء.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ السـلام أمن الله يحوطه ويشـمله، أمـن قـد أحاطـه يـوم ميـلاده، وسـوف يرافقـه بقيـة حياتـه، وكأن ميـلاد المسـيح آيـة سـوف تظـل عالقـة في أذهـان البـشر منـذ حدوثهـا وحتـى القيامـة، وذلـك لأن البـشر لم يـروا الآيـة الأولى، بدايـة الخلـق، فلـم ينتبـه لهـا كثـير مـن النـاس، فجـاءت آيـة خلق المسـيح بـما يخالف العـادة والمألـوف بـين النـاس لتردهـم إلى حقيقـة فهـم الآيـة الأولى ، الإيجـاد مـن عـدم، وأن قـدرة الله لا تحدهـا حـدود العقـول، ولا تقيدهـا أفهامهـم، وأن آيـات الله لم تـأت لنتعجـب منهـا إنـما لنقـر لله وحـده بالقُـدرة ، لنقـر لله وحـده بالعبوديـة ، لـذا نجـد آيـة مبـاشرة تلفـت انتباهنـا لهـذا الربـط، بـين المعجـزة الأولى والمعجـزة الثانيـة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] فالـذي عجـز فهمـه عـن اسـتيعاب المعجـزة الثانيـة حـق عليـه أن يلتفـت أولًا للمعجـزة الأولى التـي هـو مـن نتاجها .

---

١ [آل عمران : ٥٩]



الحواريون مع نبي الله عيسى عليه السلام



كانت فلسطين حينما وُلد عيسى عليه السلام تحت حكم الرومان، وكان ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور أغسطس أكتافيوس، وكان عامله على أرض فلسطين هيرودس الكبير وكان شديدًا على اليهود لذا ناصبوه العداء، وفي أواخر عهده ولد المسيح عليه السلام فخافت مريم عليه من بطشه بعدما انتشر خبر حديثه في المهد، فهربت ومعها رضيعها نحو مصر ورافقهم أحد عُباد بيت المقدس ويدعى يوسف النجار وعادوا إلى فلسطين بعدما علموا بموته .

وقد كانت الديانة اليهودية قد انتشرت في جميع أنحاء فلسطين قبل ميلاد المسيح عليه السلام إلا أن ديانات أخرى غير سماوية كانت بجانب الديانة اليهودية، فكانت الديانة الوثنية لليونان والرومان ، وكان اليهود في بعض الأحيان يعبدون إلهًا واحدًا، وفي بعض الأحيان تراهم زاغوا وعبدوا آلهة أخرى، وكان سبب هذا الانحراف في عقيدتهم تأثرهم بالديانة الفارسية أثناء فترة السبي ونفي اليهود إلى بابل [١]

أما أرض فلسطين فكانت تحت نوعين من الحكم، الحكام المستعمرون (الإمبراطورية الرومانية) ، والحكام المحليون وهم فئة رجال الدين ، وكان نبي الله يحيى عليه السلام يقف معارضًا لحاكم الدولة الرومانية على أرض فلسطين هيرودز لأعماله السيئة غير الشرعية ، أما عيسى عليه السلام فوقف معارضًا للحكام الدينيين لما كانوا يبشرون الشعب بما لا يوافق الشريعة اليهودية في كثير من المسائل [٢]

وقد بدأ عيسى عليه السلام تبليغ رسالة الله لقومه وهو في سن الثلاثين فبدأ يصلح ما أفسده بعض أحبار اليهود، فوقف في وجه طوائف اليهود التي اعتادت استغلال الناس، وفي وجه بعض الأحبار الذين كانوا يملؤون بطونهم مما يدخل للهيكل ونهب أموال الفقراء والعامة باسم النذور ويخبرهم أنه مكان للعبادة لا سوقًا للبيع والشراء يحتكرون فيه السلع ثم يلزمون الناس بشرائها ، فقد فاض الطابع المادّي لليهود حتى وصل إلى دور العبادة والأماكن المقدسة، حتى صار الترف المادي والرغبة في الشراء هو القيمة الوحيدة التي يتصارع عليها رجال الحياة ورجال الشريعة على

١ اليهود في عصر المسيح (ص٧٠- ٦٩)
٢ اليهود في عصر المسيح (ص ١٠)

السـواء .[1] وكانـت نتيجـة التعمـق في المادية إنـكارًا للروحانيـات فأنكـر فريـق منهـم البعـث والحشر. قـال تعـالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ ﴾ التوبـة [٣٤]

انحـراف دينـي، فسـاد اقتصـادي واجتماعـي، ليـس هـذا فحسـب بـل عـاصر عيسـى عليه السلام أيضًـا حاكـمًا ظالمًـا هـو هـيرودوس أنتيـاس لكنـه كـدأب كل أنبيـاء الله واجـه كل هـذا غير آبـه بتكذيـب قومـه، ولا بعنادهـم، فقـد أراد بنـو إسرائيـل مُخَلِّصـا يقـود الجيـوش ويحـارب الـروم، فجاءهـم نبـي كريـم يقـود حربًـا عـلى شرور أنفسـهم قبـل أن يخوضـوا حربًـا عـلى أعدائهـم، ومـا قيمـة أن يخوضـوا حربًـا خارجيـة وبناؤهـم الداخـلي خـاو عـلى عروشـه؟ ربـما اعتـادوا مـا قاله أسـلافهم لموسـى عليه السلام مـن قبـل ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾[2] لقد كانـت حـرب المسـيح عليه السلام الحقيقيـة سـاحة النفـس البشريـة، تطهيرهـا مـن شـوائب الـشرك الـذي مـلأ حياتهـم فاتخـذوه تشريعًـا كذبًـا وزورًا ، فخاطـب بنـي إسرائيـل مبـاشرة أنـه مرسـل مـن الله إليهـم جـاء برسـالة ذات معـالم واضحـة نفهـم تفاصيلها مـن آيات القـرآن .

- الدعـوة للتوحيـد : فهـي رسـالة ككل رسـالات الله للخلـق، تدعـو العبـاد إلى التوحيـد الـذي لا شرك فيـه، إلى الإقـرار لله وحـده بالعبوديـة ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ ﴾[3]

- العمـل بـما جـاء في التـوراة وتجديـد بعـض أحكامهـا لمـا فيـه مصلحـة العبـاد في زمانـه ﴿ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ ﴾[4]

- إقامـة الحـدود وبيـان مـا اختلفـوا فيـه ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ ﴾[5]

---

١ عيسى نبي الإسلام (ص٣١)

٢ [المائدة : ٢٤]

٣ المائدة [٧٢]

٤ آل عمران [٥٠]

٥ الزخرف [٦٣]

- **التبشير برسول من بعده** ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ **الصف** [٦]

قال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ **آل عمران** [٤٨-٥١]

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ جاء المسيح عليه السلام ليصحح مسار بني إسرائيل كغيره من أنبياء الله الذين أُرسلوا لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ، فالرسالة خاصة ببني إسرائيل، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١] أي جعله الله آية لهم، في ميلاده المعجز وفي الآيات الدالة على نبوته ، وهكذا كان شأن كل الرسالات السابقة أن النبي يُرسل إلى قومه خاصة، ومن وصلته رسالته من أهل زمانه، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾[٢]

﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ المعجزة أمر خارق للعادات والقوانين الكونيّة الثابتة المُتعارف عليها بين الناس عمومًا، يُظهرها الله على يد رسوله تصديقًا له في دعوته، ومعجزات الأنبياء جاءت كافية في إقامة الحجة البالغة والبرهان الواضح بنبوة رسل الله، أما كونها فيما برع فيه قومه فليست شرطًا مطلقًا، قد تكون فيما برع فيه قوم نبي الله وقد لا تكون، المهم أنها آية ظاهرة قوية واضحة تثبت صدق الرسول فيما يقوله أنه من عند رب العالمين، فمعجزات المسيح جاءت في مجال الطب وليس شرطًا براعة قومه في هذا المجال، إنما المهم أن تأتي الآيات دالة على صدق قول المسيح أنه رسول رب العالمين ، فآية إبراهيم عليه السلام أن أنجاه الله من النار فأين

---

١ **[الزخرف : ٥٩]**
٢ **[الصف : ٦]**

البراعة من قومه في آية مثل هذه؟ والمسيح عليه السلام الذي أحيا الموتى آية تثبت طلاقة قدرة الله وتأييده لنبيه ولا دخل لها بالطب، فمعجزات الأنبياء إلى أقوامهم إنما كانت أن يأتوا بآية خارقة للعادة ولنواميس الكون يعجز عن مثلها البشر، قد تكون فيما برع فيه قوم النبي ونبغوا فيه كبراعة العرب في اللغة فجاء القرآن معجزًا لهم، وقد تكون آية تدل على طلاقة قدرة الله وتأييده لنبيه على عمومها وليس فيما برعوا فيه كإحياء عيسى عليه السلام للموتى وإخباره لهم بما يدخرون في بيوتهم، وكخروج إبراهيم عليه السلام من النار وكالناقة التي خرجت لصالح عليه السلام من صخرة حددها له قومه كتحدٍ له ليثبت صدق نبوته.

﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ حين قال ﴿أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ لم يقيدها بقوله﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ فهذا من مقدور البشر، تشكيل الطين على هيئة الطير والنفخ فيه، هذا مما يستطيعه البشر، أما حينما صار طيرًا أطلق على آذانهم ﴿ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ لأن الطين الصلب الجامد إنما صار طيرًا حقيقيًا بما فعله الله فيه من قدرة على الخلق والإحياء، ولا قدرة لبشر على تحويل جماد إلى خلق حقيقي إنما هي قدرة الله وحده.

﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ الأكمه هو الأعمى أو الأعشى وقيل هو الذي يولد أعمى وهذا أبلغ في إظهار المعجزة، فليس العمى لعلة مكتسبة قد تزول بالوقت، والبرص في اللغة بياض يصيب الجلد، وقيل إنه البُهاق وقيل أيضًا الجذام وهو الأرجح، فالبهاق مرض غير خطير ولا يعيب إلا المنظر، أما الجذام فكانوا يحذرونه ويخافون من المصابين به ويعتبرونهم منبوذين لا يقترب منهم أحد ولا يقتربون من أحد.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ آية أخرى جاءت لإثبات حُجَّته أنه رسول من رب العالمين، جاء بآيات تظهره على من كذب برسالته من قومه، وآيات الله لأنبيائه إنما جاءت بوحي الله لهم، لا باجتهاد شخصي منهم، بقدرة الله على حدوثها على يد نبيه، فهي دليل نبوة الرسول لا كما ضل فيها خلق كثير بأنها ترتقي

بالمسيح من بشريته أو كما وصفوها بطبيعته الإلهية، فقد كان من معجزات موسى عليه السلام أنه ألقى عصاه فصارت حية تسعى، وكان من معجزة صالح عليه السلام ناقة خرجت من صخرة حددوها له كتحد وخرجت الناقة تسعى من الصخرة، وكانت من معجزات عيسى عليه السلام أن أحيا ميتًا، كلها آيات أنبياء تدل على صدق دعوتهم أنهم رسل من رب العالمين، فلا السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام ادعوا ألوهيته، ولا مَنْ آمن مِن ثمود قد ادعى ألوهية صالح عليه السلام حينما خرجت عليهم الناقة تسعى من صخرة صماء، إنما آمنوا أنهم أنبياء من عند رب العالمين.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وفي موضع آخر ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾[1] فإحياء الموتى من نفخ المسيح عليه السلام مقترن بالإذن من الله، فالإحياء لم يحدث من عملية النفخ بذاتها إنما من إذن الله لهذا النفخ أن يُحدث الإحياء، وهذه هي ولاية الله لأنبيائه بإظهارهم على أقوامهم بالمعجزات، الآية واضحة إنها معجزة لقومه ومن طلب الحق عرفه، ومن أعرض عنه فقد ضل.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ معجزات الأنبياء لم تأت مطلقة إنما مقيدة، لأنها تخرق سنن الكون فلا حاجة لتكرارها مرارًا على أعين الناس، إنما هي آيات تقوم بها الحُجة على قومه في وقتها، فإحياء عيسى عليه السلام للموتى خرق للعادة لإثبات نبوته وليس تغييرًا لسنن الله في كونه، فلم يَسْعَ المسيح عليه السلام إلى أحياء كل من مات من قومه، ولا كل من طلبوا إحياءه إنما أحيا عددًا محدودًا كبرهان لرسالته وكان إحياؤه لها خاضعًا لإذن الله ومشيئته لذا قالها صريحة ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إنما أفعل ما يأمرني به الله لا بقدرة شخصية مني .

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ الإنباء يكون في الأمور الخفية التي لا يطلع عليها الغير، فكانت آية ظاهرة يلتمسها كل واحد منهم في شأنه الخاص، حينما يخبره عن أحواله التي لا يطلع عليها أحد وما أكل في بيته وما ادخر فيه بعيدًا عن أعين الناس

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ الآيات قد رآها أكثر الناس ولم يؤمن بها إلا قلة، فالخطاب موجه إلى بني إسرائيل إن كنتم تريدون الإيمان فالآيات الدالة

١ [المائدة : ١١٠]

على صدق نبوتي قد رأيتموها، ولن يمنعكم من التصديق إلا عادة عناد الحق التي يحسنها خلق كثير ، فرغم كل هذه الآيات إلا أنهم أول من بادر بتكذيب دعوته.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ كانت التوراة من أول الكتب السماوية التي جاءت بشرائع حياتية تنظم حياة الأمم، لذا أوحى الله إلى عيسى عليه السلام بتصديق ما كان قبله من كتب الله، والعمل بما جاء في التوراة وأن رسالته جاءت مكملة لرسالة موسى عليه السلام، فمن شرائع التوراة التي أُمر بها المسيح حفظ الوصايا العشر[1] وإقام الصلاة، والصوم، وتعظيم أيام الأعياد، ووجوب حد الزنا، وتحريم لحم الخنزير، وتعظيم ذبح النُسك [2]

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ مصدقٌ لما جاء بالتوراة تصديقًا لا تشوبه شائبة شك، فشريعة عيسى عليه السلام قامت على إحياء تعاليم التوراة وما تركوه فيها، قامت على تنقيحها من الشوائب التي ألحقها بها بعض أحبارهم ورهبانهم رغبة في مغنم دنيوي، وتحليل بعض ما حرمه الله عليهم رعاية لحالهم في أزمنة مختلفة.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وفي موضع آخر قال تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [3] أي أتبعنا عيسى عليه السلام على إثر النبيين الذين جاءوا لبني إسرائيل، فبعثناه نبيًّا مصدقًا لكتابنا الذي أنزلناه إلى موسى عليه السلام من قبل مؤمنًا به حاكمًا بما فيه ، وآتاه الله الإنجيل فيه بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانهم ، فهو نور يُستضاء به في إزالة الشبهات .

---

١ ١-لَا يكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي ٢-لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ.٣-لا تحلف باسم إلهك باطلا.٤-اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ.٥-لا تَقْتُلْ.٦-لَا تَزْنِ.٧-لَا تَسْرِقْ.٨-لَا تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ.٩-لَا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ.١٠- أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. « التحرير والتنوير» (٩/ ٩٧)

٢ المسيح عيسى بن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة (ص١١٤)

٣ [المائدة : ٤٦]

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾نسخ بعض شريعة التوراة تخفيفًا عليهم ومراعاة لاختلاف الأزمنة، بعضها أطعمة قد أُحِلَّ لهم أكلها، ومن البعض الذي أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير يوم السبت، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت[1]

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾العقائد لا تبديل فيها، إنما التبديل في بعض الأحكام وفقًا لمصالح الناس في أزمنة مختلفة، وحين نتابع الأحكام في شرائع الأنبياء نجدها تتجدد مع الاجتماع الإنساني ليلبي حاجاته، حتى إذا اكتمل نضج الاجتماع الإنساني جاءته رسالة خاتمة بأحكام صالحة لكل زمان ومكان .

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾حين تعلم أن شيئًا ما قد حرمه الله فلا تنشغل بالبحث عن عِلة التحريم ، إنما من مقتضيات الإيمان التسليم بما أحل الله وبما حرم ، وليس في كل تحريم ضرر تعرفه، وليس بمعرفتك أو جهلك لعلة الأشياء يقوم الحكم، فهي حرام عرفت علَّة التحريم أو لم تعرفها فلن يغير ذلك من حكم تحريمها، فجوهر الإيمان أن يبني المؤمن حياته على مقتضى ما أنزل الله .

﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾جئتكم بآية من ربكم لا من عندي، إقرار لا شك فيه .

وهذه الآيات نزلت حينما قدم وفد من نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أكثروا الجدال واستدلوا بالآيات التي جاءت على يد عيسى عليه السلام أنها دليل ألوهيته وأنها لا تدخل تحت مقدرة البشر فجاءت هذه الآيات ترد على كذبهم على لسان عيسى عليه السلام نفسه فما أتى بمعجزة إلا وقال ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وختمها بقوله ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾فكل ما أتى به هو آيات من الله أظهرها على يد نبيه ليظهره على قومه وتكون له حجة بصدق رسالته من الله رب العالمين .

١ تفسير القاسمي محاسن التأويل (٢/ ٣٢١)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ ﴾لا تمييز لي عليكم في شيء، إنما أنا عبد الله ربي وربكم، أعبده وأقر له وحده بالوحدانية، حسم واضح لأمر العقيدة، إنه بشر عبد لله، وإن إخراجه من بشريته ومن عبوديته لله هو ضلال .

﴿ فَٱعۡبُدُوهُ ﴾العبادة ليست الصلاة والصيام فحسب، إنما هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من أدق الأفعال إلى أعظمها، إنها الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان، وحين يفهم المؤمن حقيقة عبوديته لله في حينها يضبط كل أفعاله وأقواله بميزان مُراد الله، فالعبادة توجه كامل بالقلب إلى الله تعالى في كل نشاطات الحياة، رغبة ورهبة، أملًا ورجاء .

﴿ فَٱعۡبُدُوهُ ﴾إننا نعبد الله بقلوبنا أولًا، فعبادات الظواهر دون القلب ممقوتة، إنها درب الذين يظهرون خيرًا ويضمرون في قلوبهم شرًا، أما درب المؤمنين تجده دائمًا بين عبادة واستعانة، فكل ما نفعله بحياتنا يمكن أن نحصره بين عبادة لله صادقة واستعانة بالله صادقة، فالعبادة هي الهدف والغاية والمقصد من كل ما تقوم به، والاستعانة هي خروجك من حولك وقوتك وضعفك إلى حول الله وقوته.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾صراط مستقيم لا عِوج فيه، صراط قويم من اتبعه رشد وهدي، ففي معركة الحق والباطل لا حياد للمؤمن فيها، إنما إحقاق الحق وإنكار الباطل.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾الصراط المستقيم، ذاك الدعاء الذي نهتف به في كل ركعة حينما نردد سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دعوة ينطقها اللسان ليستشعر القلب معانيها فيطلبها في كل شيء، في كل قرار يتخذه، في كل تردد يقع فيه، في كل خطوة يخطوها في حياته، إنها إقرار أن هناك طرقًا أخرى متعرجة وأنك تنشد الله أن يلهمك الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، لا شوائب فيه ، لا ميلًا للهوى فيه، تدعو الله في كل ركعة أن يلهمك الطريق المستقيم وأنت تعلم أن غيرك قد سلكه ومضى فيه لآخره﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾وآخرون قد أخطؤوا الطريق ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

قال تعالى ﴿ * فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ آل عمران [٥٢-٥٣]

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾فاء تؤذن بالتعقيب، رأوا الآية تلو الآية؛ فلم تحرك فيهم ساكنًا إنما ازدادوا عنادًا، وهموا بمحاربة دعوته بل وتعمد إيذائه، فبيان كفرهم لدعوته ليس مجرد خاطر في قلبه إنما إدراك تام لا شبهة فيه كالذي يدركه المرء بالحواس غير قابل للظن أو التأويل .

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾صدر منهم ما صدر من أغلب الأمم مع رسلهم، قلة تؤمن وكثرة تكفر، قلة تُعذِّب وكثرة تتجبر، والكثرة لا تتجبر من مجرد الرغبة في التجبر إنما من دفاع عن منافع يتعلق وجودها بدوام الوضع الخاطئ الذي يسعى دائمًا أنبياء الله لتغييره، فدعوة الأنبياء دائمًا ما تأتي لتغيير وضع خاطئ دأبت عليه الشعوب، وهذا الوضع له منتفعون بوجوده، انتفاع مادي أو قهري على غيرهم بسلطة ما، لذا يكون أول من يحارب دعوة الرسل هؤلاء المنتفعون من وضع سيئ قائم يأبون تغييره .

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ الداعية ليس مجرد ناقل لرسالة إنما متفاعل معها، مهموم بها، وبنشرها، وهذا الهم هو الذي يدفع حواسه للتفاعل مع معطيات ما يرى ممن يدعوهم. فلما رأى عيسى عليه السلام جحودًا واستكبارًا كان عليه أن ينتقي منهم صفوة يقومون معه بالأمر ، ينهضون بمهام الدعوة ، يؤمنون بها إيمان القلب والقالب، إيمان الباطن والظاهر، ولن تجد حاملًا لِهَمِّ دعوة إلا وقلبه متعلق بها، لا يأبه بما يلاقي في سبيل الدعوة لها، بهؤلاء تقوم الدعوات، بهؤلاء تنهض الأمم، لا مَنْ يدَّعون الإيمان باللفظ المجرد وفي ميدان العمل يلتزمون الحياد في صراع لا مكان فيه للحياد.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ رأى أمـارات الكفـر مـن اسـتهزاء بآيـات الله، مـن سـخرية وتطـاول، مـن اتهـام بالسـحر ، مـن تضييـق عليـه في تبليـغ دعوتـه، مـن إبعـاد النـاس عنـه ، مـن منعـه مـن منابـر الدعـوة السـائدة في زمانهـم كـدور العبـادة ، على الداعيـة وصاحـب الهـدف والمؤمـن بفكـرة مـا حـين يـرى بـوادر الرفـض والتكذيـب أن يُغير مـن وسـائله، أن يُغير كذلـك مـن مُسـتقبِلي دعوتـه، فمـن لم ترشـده الآيـات الظاهـرة لـن تحركـه كلـمات الوعـد والوعيـد .

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾مـا أروع اللفظـي القـرآني وهـو يرسـم لنـا صـورة تنطـق بالحيـاة لتفاعـل عيسـى عليه السلام مـع دعوتـه ومـع المحيطـين بـه، (أَحَسَّ) أنـه متعلـق بالدعـوة بـكل حواسـه، كلهـا تعمـل في سـبيل غايتـه التـي ينشـدها، إنـه شـغف يدفـع صاحبـه إلى اسـتثمار كل طاقتـه لتحقيـق غايتـه، ليسـت كلـمات ينطقهـا ويمـضي في حياتـه، إنـما كل مشـاعره، كل حواسـه تتفاعـل مـع محيطـه لتحقيـق غايتـه .

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ لم ينتظـر فـوات الوقـت وضعـف الجهـد واسـتنزاف الطاقـة في قـوم يأبـون الطاعـة، إنـما مـا إن رأى علامـات التكذيـب تطـارد كل حديـث ينطـق بـه أيقـن أن رسـالته لـن تنهـض بعـوام النـاس إنـما بخاصتهـم، بمـن يؤمنون بهـا إيـمان القلـب والقالـب لا مـن يستحسـنون الحديـث ولا طاقـة لهـم عـلى خـوض أي نزال فكـري في سـبيل الدعـوة لهـا، لـذا حـين استشـعر تكذيبهـم كان عليـه أن ينتقـي منهـم مـن يقـوم بالأمـر كلـه بإيـمان خالـص لا شـبهة فيـه ، وهو هنـا ينتقـي صحيـح الإيـمان دون غيره لأن الرسـالات لا تقـوم بالمترددين ، بمـن في قلوبهـم شـبهات ، بمـن لا يحسـنون خـوض نقـاش فكـري يظهـر صـدق مـا يؤمنـون بـه، وهـؤلاء دائـمًا مـا يكونـون قلـة في العـدد لكنهم كثـرة في المواقـف التـي يكـون عليهـم أن يُظْهِـروا فيهـا صـدق انتمائهـم للرسـالة والدعـوة.

﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾سـؤال واضـح وصريـح لأن معركـة الإيـمان لا تقبـل أنصـاف الحلـول، فحـين تحتـدم المواجهـة بـين حـق وباطـل يأخـذ كل امـرئ موقعـه الحقيقـي في معركـة ليـس فيهـا أماكـن في المنتصـف، إمـا إلى جانـب الحـق وإمـا إلى جانـب

الباطل. لذا سألها عيسى عليه السلام مباشرة وصريحة من منكم سيكون في جانب الحق حين تحتدم المواجهة، ثم ها هو يطلب منهم أن يختاروا مواقعهم برغبة كاملة منهم، حتى إذا ما احتدمت المواجهة وكان عليهم التضحية تهون عليهم أنفسهم في سبيل الغاية التي اختاروا نصرتها، لم يختر أنصاره إنما ترك لهم حرية التقرير، حرية الاختيار حتى يتحملوا توابع الاختيار، في حياتنا دومًا فرصة للاختيار لكننا لا نمنح أنفسنا الوقت الكافي لاتخاذ القرار؛ لذا نعيش ما بقي من حياتنا نندم على تردد كان علينا أن نتحلى فيه بالحزم.

﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من ينصرني نصرًا لا مكان لمغنم دنيوي فيه، لا مكان لطلب دنيا فيه، إنما هو نصر غايته الله ومرجعه إلى الله وجزاؤه عند الله، يحدد لهم تفاصيل النُصرة التي يريدها منهم أنهم لن يجدوا جزاءً وقتيًا، لن يجدوا مغنمًا بانتظارهم بمجرد إعلانهم النُصرة، إنما صرفهم إلى الغاية الكبرى، إلى الله، وحين تكون الغاية هي الله تهون الدنيا، تهون الصعاب، تهون مكائد البشر وإعراضهم.

﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ حين تضيق عليك سُبل الحياة لا تنشغل بالجَمْعِ مِن حولك بل اختر من يهتم لأمرك دون غيره، فهو الأجدر على نصحك، على عونك، على تفهم دوافعك وأهدافك والمضي قدمًا في دربك الذي تنشد، فحين ضَيَّقت قريش على النبي ﷺ في دعوته خرج يجوب قوافل الحجيج قبل أن يهاجر فيقول لهم «أَلا رجلٌ يَحْمِلُنِي إلى قَوْمِهِ، فإنَّ قُرَيْشًا قد مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ ربِّي»[1] حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه.

﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دائمًا ما يكون حديث الأنبياء مفعمًا بالثقة في الله، لذا ينقلها إلى أتباعه لا تردد فيها، بل بيقين يسكن القلوب، رغم أنه وعد لأجل بعيد لا لمغنم قريب ومع ذلك ينقله إليهم بثقة المؤمن في وعد الله لذا تقبلته أفئدة الصفوة من أتباع الأنبياء بإيمان لا تشوبه شائبة شك، ولا تدنسه شبهة تردد، نجده أيضًا في سيرة رسول الله ﷺ حينما بايع الزمرة الأولى من الأنصار وهو لا يزال بمكة يبتغي النُصرة، قال لهم الرسول

---

1 أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥) واللفظ له وصححه

ﷺ (وعلى أنْ تَنصُروني إذا قَدِمْتُ يَثرِبَ، فتَمْنَعوني ممَّا تَمنَعون منه أنفُسَكُم وأزْواجَكُم وأبْناءكُم ولكم الجَنَّةُ)[1] ولكم الجنة هكذا مباشرة ، لكنه ينقلها لهم بثقة المؤمن في وعد الله لذا استقبلها الأتباع بنفس الثقة .

﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾الحواريون هم النخبة من المؤمنين الذين آمنوا بعيسىعليه السلام، وحواريو النبي أي خاصته والأقرب له ، و" الحوَر " عند العرب شدة البياض، ولعل اللفظ قد تجاوز الدلالة الظاهرة إلى دلالة الإيمان النقي الذي لا شبهة فيه، فكان لكل نبي قبل محمد ﷺ حواريون يقومون بأمر رسالته، فلم يكن مبدأ الأمر أتباع عيسى عليه السلامإنما كان فيمن قبله من الأنبياء ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال(ما من نبيٍّ بَعثَهُ اللهُ في أُمَّةٍ قبْلِي ، إلَّا كان لهُ من أُمَّتِه حوَارِيُّونَ ، وأصحابٌ يأخُذونَ بسنَّتِه ، ويَتقيَّدُونَ بأمْرِه) [2]
فالحواريون هم الصفوة من الذين آمنوا برسالة عيسىعليه السلام وأنه نبي من عند الله، ومع أن غيرهم قد آمن به إلا أن الله قد اصطفى هؤلاء الأتباع دون غيرهم ليخلد ذكرهم، ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[3]
ربما كان أبرز ما ميزهم هو الوضوح، وضوح الإيمان الذي لا شائبة فيه﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾ وضوح القصد الذي قادهم إلى إعلان اتباعهم للمسيحعليه السلام على ملأ من الناس لم يهابوا كيد كائد ولا بطش ظالم﴿ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ وضوح الغاية من الإيمان والاتباع ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ حين يقدم لنا القرآن نموذجًا لفئة من المؤمنين إنما يستنهض هممنا للاقتداء بها، فالذين اختاروا نصرة عيسى عليه السلاملم يختاروها في رخاء ورفاهية ودعة من العيش، إنما اختاروها في وقت يُكذِّبه فيه أغلب قومه ، عامة الناس ووجهائهم ، أهل الدين وأهل الدنيا، إنها ليست نصرة في وقت قوة وكثرة من الأتباع، إنما نصرة في وقت ضعف وابتلاءات تحوط به، لذا خلَّد الله ذكرهم، فما أكثر الأتباع في الرخاء وما أندرهم في الشدة ووقت البأس !

---

١ أخرجه أحمد (١٤٦٥٣)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه ، وابن حبان (٦٢٧٤)
٢ صحيح الجامع (٥٧٩٠)، وقال الألباني (صحيح)
٣ [المائدة : ١١١]

والمؤمن الخالص لله قولًا وفعلًا، ظاهرًا وباطنًا يستوي عنده البلاء والرخاء فتأتي أقواله وأفعاله موافقة لمراد الله، لذا يأتي الأمر بالاقتداء بهم واضحًا وصريحًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾[1] أنصارٌ لله دعاة للحق بالقول والفعل، في السر والعلن.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾وجواب الحواريين ليس لفظًا مجردًا، إنما قولٌ اقترن بعمل، قلبٌ اقترن بالقالب، والذي يختار طريق الله يعلم أن المضي فيه صعب وذلك لأنه لا يمضي فيه سوى الرجال، ومع صعوبته يمضي فيه بلا تردد ولا خوف، لذا دائمًا ما تجد من يدَّعون الإيمان كثرة ومن يثبتون عند المحن قلة ، فالحواري لكل دين هو تابع مخلص له يمضي حيث أُمر، عينه على الغاية البعيدة لا المغنم القريب.

في يوم الأحزاب حينما اشتد الأمر على أصحاب رسول الله ﷺ وضاقت عليهم الأرض بما رحبت قال النبي ﷺ لأصحابه :

- مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟

- قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا.

- ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟

- قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ.[2]

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ إيمان ليس باللفظ المجرد إنما يقين يسكن القلب يوافقه إقرار باللسان وعمل بالجوارح، وكل طاعة يقوم بها المرء من فرض أو نافلة هي من الإيمان ، وكلما ازداد من الخير ازداد الإيمان وكلما أسرف في الذنب نقص الإيمان .

﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾يطلبون شهادة نبي الله على صدق إيمانهم

---

١ [الصف : ١٤]

٢ البخاري (٢٨٤٦)

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ يعـودون بـكل حولهـم إلى مـراد الله، إلى إعـلان حقيقـة هـذا الإيـمان أمـام نبـي الله ليقـروا لـه بالرسـالة ولربـه بالوحدانيـة، يعـودون بـكل حولهـم إلى الله وحـده﴿رَبَّنَآ﴾ يقـرون لـه بالوحدانيـة ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي صدَّقنـا بكتابـك الـذي أنزلـت عـلى رسـولك وهـو الإنجيـل، وأطعنـا رسـولك فيـما أمـر بـه وفيـما نهـى عنـه تصديقًـا لنبوتـه وأنـه رسـول مـن عنـد رب العالمـين .

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يهتـف القلـب الصـادق دائـمًا بـأن يقبلـه الله رغـم التقصـير والضعـف والخطـأ، لكنـه لا يفـتر في الإلحـاح بقبـول الله لـه، أن يقبلـه مـع أولئـك الذيـن أحسـنوا في طاعتهـم لله .

====================

« اللهـمّ إليـك تُقْصـد رغبتـي، وإيـاك أسـأل حاجتـي، ومنـك أرجـو نجاحـي، بيـدك مفاتيـح مسـألتي، أرجـو الخـير منـك، ولا أرجـوه مـن غـيرك، ولا أيـأس مـن روحـك بعـد معرفتـي بفضلـك، أحمـدك عـلى كل قضائـك حمـد الرضـا بحكمـك، واليقـين بحكمتـك ، اللهـم احفظنـا مـن الخطـأ والزلـل الـذي لا يأمـن منـه أحـد منـا، ووفقنـا لمـا هـو خـير لنـا، واعصمنـا عـما لا ينفعنـا، إنـك أنـت المنـان واسـع الغفـران »

وعند هذا الحد ينتهي هذا الكتاب بحمد من الله وتوفيقه، ولعل الله أن يكتب له بقية في أجزاء قادمة إن شاء الله

الفهـــــــــــــــرس